
رضا سليمان
شبه عارية
رواية
المجموعة الدولية
للنشر والتوزيع
سما
للنشر والتوزيع



رواية

رضا سُليمان



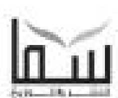


شِبه عارية

رضا سُليمان

الطبعة الأولى: يناير
1438هـ 2017م

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية
دار الكتب المصرية
سُليمان، رضا
شِبه عارية/
رضا سُليمان - القاهرة: سما للنشر والتوزيع، 2017
360 ص؛ 13,7×19,5سم - (شِبه عارية)
تدمك 978-977-781-125-5
1 - رواية.
أ. العنوان
رقم الإيداع: 2017/3099
تدمك 978-977-781-125-5



دار سما للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية
15 ش يوسف الجندي متفرع من شارع البستان - باب اللوق - القاهرة
تليفون: 24517300 202+ - 01271919100 2+
email: samanasher@yahoo.com
Web-site: publishing@sama-publishing.com

التوزيع
المجموعة الدولية
للنشر والتوزيع

80 ش طومان باي - الزيتون - القاهرة - جمهورية مصر العربية
تلفاكس: 24518068 202+ - 01099998240 2+
email:aldawleah_group1@yahoo.com

التنفيذ الفني



للاستشارات وخدمات النشر
ali@daraj-eg.com


شبه
عَارية



إهـــــداء

إلى مَن يدركون روعة الحياة

« أصحاب القلوب النابضة بالإنسانية»

رضا سُليمان



«الثياب لا تحجب عيونًا نهمة»

(1)

الهروب

فجـأة يهبط الظلام ليحتـوي المكان، تبدو البيـوت مثل خرابة، مثل مدينـة شـهدت حربًا عظيمـة، قُتل على أرضهـا أطراف النـزاع، تحتلها قطعـان الجـرذان والغربان. كنتُ أجـري مُترنّحة، رغم أنـي كنت أبذلُ جهـدًا عظيمًا، كي أهـرب ممَن يُطاردونني، لم أشـعر بتلك الدماء التي تسيلُ من قدمي بعدما خطوتُ أكثرَ من مرةٍ فوقَ قِطَع حادة من الحجارة أو كسـرات زجاج، لا أدري، حافية قدماي بعد أن خَلعتُ حذائي الذي يعرقلني منذ لحظة هروبي.

لـم أدرك إلا بعـد حين أني لا أرتدي غير قطع قليلة من ثيابي، أجزاءٌ كثيرة من جسدي ظاهرةٌ للعيان، شبه عاريةٍ كنت. بالطبع لم أكن لأخرج هكـذا إلى الشـارع، لقد كانت ثيابي ممزقة وهـذا ما تبقى منها بعد ذلك الهجوم الذي تعرضتُ له.

أعيـنٌ كثيـرة كانـت تتابعنـي وأنا أجـري في هـذه الشـوارع الضيقة التـي لا نهايـةَ لهـا، لكن لم يجـرؤ أحدٌ أن يستوقفني،أو حتـى يمدُ يدًا

لمساعدتي، نعم كنت في أشد الحاجة إلى يد تتلقفني، إلى صدر أرتمي فوقه ويضمني بقوة، أتلاشى بداخله حتى يُخفيني عن الوجود، كانت نظراتهم متلصصة، تنهش جسدي العاري، لماذا لا يتقدم أحدهم لأحتمي به من هؤلاء الوحوش الذين يبحثون عني في كل مكان؟!

أخيرًا.. وأنا أنحرف يسارًا إلى زقاق ضيق، ألفيتُ نفسي أمام باب مفتوح، يبدو أن صاحبه خرج على عجل، دخلتُ بسرعة، لا أدري كيف واتتني الجرأة للدخول بلا استئذان؟! لكني في الحقيقة كنتُ أتمني الاستلقاءَ لحظاتٍ كي ألتقطَ أنفاسي، في حاجة إلى قطرات ماء كي أروي بها ظمأي الذي تعاون مع البغاة ضدي وشق حلقي، في حاجة إلى ثوب أرتديه لأواري به جسدي، إلى حذاء يقي قدميَّ شرَّ الطريق.

للمرة الأولى أدرك قيمة قطرات الماء، قطعة ثوب، حذاء. كم هي أشياء عظيمة وإن كانت قديمة، لو عثرتُ عليها في صندوق قمامة.

ارتميتُ على ذلك المقعد الوحيد في هذه الصالة التي دخلتها، بعد لحظات أفقتُ على ذلك الألم الرهيب في قدمي، رفعتها عن الأرض بصعوبة وأنا أطلق صرخة ألم مكتومة، بيد مرتعشة سحبتُ شيئًا من على مسند الكرسي اكتشفتُ بعد لحظات أنه عبارة عن منشفة ما تزال تحتفظ بالماء، يبدو أن صاحبها قد استعملها بعد خروجه من الحمام، كانت رطبة على قدمي المشتعلة، بهدوء مسحتهما وأزلت عنهما الأتربة الملتصقة التي عُجنت بماء العرق والدماء، بدت بشرتي البيضاء بوضوح بعد لحظات من العمل، كنتُ أنصت لئلا يكونوا قد اقتربوا أو أدركوا أني أختبئ في هذا المكان، وقفتُ بحذر كي أغلق الباب،

أعـود إلـى المقعد مـرة أخرى،لحظـات ثقيلة تمـر لا أعلم مـاذا أفعل، وقفـتُ مرة أخـرى والآلام تمزقني لأبحث عن الماء، ما تزال المنشـفة في يدي أمسح بها وجهي وأجزاء متفرقة من جسدي، بعد مشقة عثرتُ على ثلاجة صغيرة أكل الصدأ أطرافها، فتحتها فسـقط بابها فوق قدمى فأطلقـتُ صرخـة ألـم ممزوجة بالفـزع، تلقيتُ الباب علـى صدرى ثم أزحتُـه بعيدًا وأنا أقفـز إلى الخلف، نظرتُ ناحية البـاب وأنا أضع يدي علـى فمى كـى أحبس صوتى، كى أكتم أنفاسـى، لا أمتلك القدرة على الهرب أكثر من ذلك، إن عثروا عليَّ انتهي أمرى للأبد.

زجاجـة ماء كبيـرة التقطتُها مـن الثلاجة، رفعتها لأصـب ماؤها في جوفي، كنتُ مثل نار تتلاشـى أمام الماء، تُصدر حسيسًا ودخانًا، عدتُ إلـى الصالة، إلى المقعـد المواجه للباب طلبا للراحة ومراقبة للباب في انتظار أى إشارة تدل على مرورهم وفقدهم إياى.

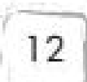
بعد لحظات شـعرتُ بألـم رهيب في معدتى، كأنـي تجرعتُ نار لا ماء، لم يكن عليَّ تناول كل هذه الكمية من الماء البارد على هذا اللحم المشتعل. ضغطتُ براحتى معدتى كى أخنقها فلا تصرخ، بينما أفحص بعينيَّ المكان، من باب جانبي يفضى إلى غرفة صغيرة، شاهدتُ سريرًا حديديًـا صغيـر يسـع فردًا واحـدًا، ملقى عليـه قطع ثياب غيـر واضحة المعالـم، تحاملـتُ على قدمـيَّ، تشـبثتُ بالجدران حتـى وصلتُ إلى السـرير، في طريقى شـاهدت صورة جسـدي العارى معظمه في المرآة علـى يمين الباب المفتوح، خصلات شـعرى الأسـود متناثـرة ملتصق بعضها على وجهي وأطرافها على صدرى.. تأملتُ جسـدي في المرآة

لحظات، خطيئتى التي لا ذنب لى فيها، جمالى كان نقمة وشقاءًا، كنتُ أحســبه في بداية إدراكى أنه سبب سعادتى المنتظرة، لم يأتى ذلك اليوم بعد وها أنا أوشــك على النهاية، سحبتُ قطعة ثوب أغطى بها جسدي، فــي المــرآة اكتشــفت أنهــا ثــوب رجالى قديــم، صاحبهــا يتميــز بطول ملحــوظ، ارتميتُ فوق الســرير وأنا أختنق معدتى التي تقاســم جســدي الآلام، تأملت سقف الحجرة بينما أذناى لم تفارق الباب، بل لم تفارق الشارع تتأمل ماذا سيحدث بعد لحظات، هل سيكتشفون مخبأى؟

أتذكــر العيــون التي كانت تتابعني وأنا أهرول في الشــوارع بدون أن يســاعدني أحدهــم!! أتذكر هــؤلاء الذين يبحثــون عنــي، إن لحقوا بي في الشــارع وحققــوا مأربهم واغتصبوا جســدي، كيف ســيكون تعامل المارة معهم؟! هل ســيتحرك أحدهم لينقذني أم يشاهدون عن قرب أم يشــاركونهم فعلتهم؟! غلبتني صورهــم البشــعة وهم ينهشون جسدي.. صرختُ بشدة وأنا أدفعهم بعيدًا بقوة جسد يقف على باب الموت.

صرخــتُ أكثر وأكثر.. بحثــتُ عمن ينقذني..لم أجد اســمًا واضحًا أناديه، لا أحد أثق فيه لينقذني من هؤلاء المغتصبين الذين تكاثروا عليَّ كلما مر الوقت.. شهواتهم مثل بئر لا يمتلئ.

ما بين الوعى واللاوعى أشاهد ذئابًا بشرية تنهش جسدي في سعادة لا أعــى ســببها، الدماء تســيل من كل مكان في جســدي، حتى شــفتاى تدميان، دموعى الغزيرة تنهمر على وجنتىَّ لتختلط بدماء شفتىَّ، أبحث عن صرخاتى بداخلى فلا أجدها. تخور قواى، أستســلم تمامًا.. أغيب عن الوعى.



سوسن.. سوسن..

أستيقظ مفزوعة على يدٍ حانيةٍ توقظني، أتأملهـا.. أتأمل المكان.. إنها أمي.. إنني في منزل والدي، فوق سريري القديم.

مـا يـزال داخلـي يؤلمنـي.. لحظـات تمـر كي أعـود إلـى المكان، تحتضننـي أمـي.. كثيرًا مـا احتوتني فـي الآونة الأخيـرة، تذكرتُ ذلك الكابـوس، إنه لـم يراودني من قبل مثـل بقية كوابيسـي الأخرى، هناك أحدهـم هو الذي يطاردني باسـتمرار، أسـميه حلمًا من كثـرة ما تآلفنا، لا أعلم سـببًا واضحًا لأن يلازمني هذا الحلم طوال السـنوات الماضية من عمري، أو بالأدق من سـنوات ذاكرتي، أصحو باسـتمرار ولا أتذكر الكثيـر منـه، فقط صـورة مهتزة، مثـل لوحة بألـوان مائية تتمـاوج على صفحـة ماء، من أهـم تفاصيلها، أنيـن، تأوهات تجمع بين الألـم واللذة، غنـج يصدر عن سـيدة نحيفـة، لحظات وتظهـر للوجـود، كمولود من بخار يتجسد فجأة، تُعدل من ثيابها الرخيصة ذات الألوان الزاهية، على محياها ابتسـامة بؤس مزجتها بلحظة سـعادة اقتنصتهـا من قلب البغاء. تولـد إلـى الوجود من خلف رجل طويل يرتدي جلبابًـا بنيًا كالحًا، يمد يديـه، فتظهر ذراعـاه الطويلتان، يحبك طاقيته على رأسـه، بهدوء يلف شـاله حول رقبته، يسـتخرج سيجارة طويلة، يشـعلها بعود ثقاب أصدر فرقعة لحظة احتكاكه ثم نفث إلى الوجود شعلة خجلى لن تبقى طويلًا، يتأرجح اللهب أسـفل طرف سـيجارته، يسحب نفسًـا طويلًا، ثم ينفث دخان سـيجارته مطلقا ضحكة جوفاء كشـفت عن أسـنان مدببة صفراء

وهو يمد يده مداعبًا تلك السيدة التي تسبه بألفاظ بذيئة وتنط في الهواء مع قرصتة لها في وركها تارة وصدرها تارة أخرى.

شــجرة ضخمة حبلـى بمئات العصافير، تعزف أنغامًا غير متجانســة كجوقـات متعـددة، نهيق حمار من بعيـد يأبي تفويت العـزف بدون أن يترك بصمته الشـاذة. سـاقية من حديـد صدأ، مهترئة أطرافها، متكلسـة تروسـها، فلـم تعمـل منذ سـنوات مضت، بقايـا المـدار حولها وضيق الطريـق المـار بالجوار، يشـهدان على جور الفلاحيـن وحرصهم على زيادة رقعة أرضهم.

عجـوز نحيفة، محنية الظهر كإحدي سـيدات أفـلام الرعب، تحزم وسـطها بشـال قديـم لترفع ثوبهـا إلى مـا أسـفل الركبة، تاركة سـاقين معروقتين كسـوق ماعز مسنة. تخطو السيدة ببطء وكأنها تثبت أقدامها فـي الأرض ثـم تبذل جهـدًا لتخلعمها ثانيـة ثم تثبتهما، تحمل « طسـتًا » بـه مـاء رائق مـن الترعـة القريبـة، تتمهل لحظـة، تتأمل قبة الشـجرة، تهبط بنظرها إلى الواقفين أسـفلها وكأنهم مرسـومون فوق لوحة زيتية، تشـم رائحة البغاء في المكان، تمط شـفتيها وتقـوس كتفيها، تعبيرًا عن امتعاض رافض عاجز، ترحل على مهل.

أولاد يلعبون حول السـاقية، أسفل الشـجرة الضخمة، يصنعون من الطيـن عرائس وأحصنه، يحاولون تثبيتها لتقف متواجهة تلقى بعبارات الصمـت، معبـرة عـن ذواتهـم المنقبضة التي لـم تتفتح بعد. يتنفسـون روائـح مختلفة، قادمة من الحقول المحيطـة بالمكان، مخلوطة بدخان سيجارة الرجل الطويل الذي يرتدي جلبابًا بنيًا كالحًا.



كلمات قليلة ترددت همسًا بين الأطفال، أتذكرها جيدًا :

- ماذا كانوا يفعلون؟

- كان يضربها.

هنا ترتسم على ملامحي علامات دهشة تليها علامات فزع وأنا أشاهد هذا الرجل ينظر ناحيتي بأنيابه المدببة وابتسامته المتوحشة، أستيقظ صارخة، ثم مع مرور السنوات أصبحتُ أستيقظ فزعة، ثم معتكرة المزاج، حتى ألفت هذا الحلم، ويبدو أنه بدأ يملني بعدما ألفته، قليلًا ما كان يزعجني، ولكنه ظل يزورني على فترات متباعدة، حتى تفاقمت المصائب وتجمعت فوق رأسي الكوارث فأصبح لا يتركني ليلة واحدة دون أن يقض مضجعي، هو وكوابيس أخرى مثل ذلك الذي هاجمني منذ قليل.

المصائب والكوارث التي أتعرض لها الأن والتي سوف تلازمني لمدة طويلة، تعود بلا شك إلى جهلي بسرائر نفسي. كوني اخصائية اجتماعية، لم ييسر لي الغوص في الأعماق والتحرك في أحراش نفسي بسهولة ويسر، فهناك أمور في حياة الفرد قد تمر دون أن تلفت الانتباه، وقد تجبره هذه الأمور نفسها على تأملها والإهتمام بها في أوقات أخرى، ذلك يتوقف على حالة الشخص النفسية ووعيه بما يدور حوله.

الأن يجب عليَّ أن أتأمل ما مررتُ به ولم أهتم به في حينها.

***

«بالقبلات تتواصل الأرواح قبل أن تتواصل الأجساد»



(2)

قبلات حارة

قبـل أعـوام قليلة كنـتُ بالسـنة النهائية فـي المعهد العالـى للخدمة الاجتماعيـة بمدينـة المنصورة، الكائن في شـارع عبد السـلام عارف. محطة السـيارات أمام المعهد، يقال إنها محطة المعهد العالى أو محطة الفرن أو محطة سـوق الجملة، حيث يحيط بالمعهد فرن العيش وسوق الخضـار والفاكهـة في حصار خانـق جعله يفقد أية مسـاحة خضراء أو حتى سور يحميه من زحام وضجيج لا ينتهي.

ألفنـا المعهد بـكل تفاصيله، على مضض، وها نحن الأن في السـنة النهائيـة، تفتحت كثيـر من مداركنا. خوفنا الدفين مـن الانتهاء من حياة الدراسـة الجامعية والانخراط فـي العمل ومتاعب الحياة جعلنا نحاول بقـدر الإمـكان الاسـتمتاع بمـا تبقى لنـا من وقـت، لذا يقتـرح الزملاء الخروج في رحلة نستمتع فيها بعض الوقت ونستعيد بعضا من حيويتنا المفقوده داخل هذا البناء الحجرى الذي لا يمت للحياة بصلة.

لم أكن مستعدة للخروج مع الزملاء في هذه الرحلة التي تم الاتفاق عليها مسبقًا، سبب امتناعي عن تلك الرحلة وغيرها كان ظاهريًا أنني لا أفضل الخروج وأهتم بمذاكرة المواد الدراسية، أما السبب الحقيقي الذي أخفيه بداخلي هو أن مثل تلك الرحلات تتطلب مصروفات لا أستطيع توفيرها، أنا بالكاد أجد المصروفات اللازمة لاستكمال دراستي.

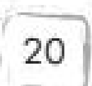
عزة، زميلتي، أصرت على اصطحابي معها في تلك الرحلة، وبأسلوب حاولت جعله فكها، قالت :

- كل المصروفات عليَّ يا سوسن.

وإن مرت جملتها على الجميع إلا أنها تركت بداخلي جرحًا، لن يندمل بسهولة، خاصة بعد ما ستفعله عزة خلال الأيام القادمة.

وجدت نفسي في حيرة من أمري، إن ظللتُ على رفضي، فسره الزملاء بفاقتي، وإن وافقت فمن أين لي بتلك المصروفات، بدون أن أشعر وبشكل جعلته فكاهيا أيضا، أخبرت عزة بأنني أوافق على الذهاب معهم شريطة أن تتكبد هي بالفعل كافة التكاليف حتى تكف عن إلحاحها لاصطحابي معها مرة أخرى، وضحكنا.

الموعد المحدد كان يوم الإثنين الذي يوافق عيد شم النسيم، يتفق الزملاء على الذهاب إلى حدائق أنشاص. لم أكن قد ذهبت إليها من قبل، سمعتُ عنها الكثير.



المجموعة كانت مكونة من عشرة أفراد، ثلاثة فتيان وسبع فتيات، كنت أنا وعزة على رأس مجموعة الفتيات، تلينا مباشرة "هبه الرومانسية" كما كنا نطلق عليها، هبه مرتبطة عاطفيًا بـوائل، الذي رافقنا مع حسين وهشام.

لم أكن كثيرة الحديث مع أحدهم، فهم مجرد زملاء دراسة لا أكثر، في هذا اليوم تقابلنا في الثامنة صباحًا في موقف الأتوبيس، أقلنا أتوبيس متجهًا إلى الزقازيق ومنها أقلنا آخر حتى حدائق أنشاص.

كان من السهل عليَّ أن أختلق أسباب كثيرة أضعها أمام والديَّ تبريرًا لخروجي هذا اليوم وتأخري حتى نهايته، ولم أكن لأعاني من تشدد منهم لثقتهم في.

في حوالي الساعة العاشرة والنصف وصلنا إلى حدائق مترامية الأطراف من أشجار البرتقال والليمون والمانجو والنخيل على أطرافها، في الحقيقة كان المنظر مذهل، الأرض العشبية تنغرس فيها أقدامنا وروائح الزهور البرية تملأ أنوفنا ممزوجة برائحة زهور البرتقال التي تزين الأشجار متداخلة مع لون الثمار الصفراء والأوراق الخضراء مع جذوع الأشجار البنية اللون، أصوات شجية لطيور مختلفة أبرزها عصافير تتحادث بأصواتها المرتفعة، أو تتغني.. لا ندري، يبدو بين تلك الأصوات عزف بلبل منفرد، لا نراه لكن صوته يشجينا أينما كنا.

طوال وقت الرحلة كان الفتية الثلاثة يتسابقون في خدمتنا مما جعلنا نتدلل أكثر، فها هم يحملون الحقائب التي تحوى الكثير من الأطعمة التي أعدتها عزة وسعاد، وحقيبة أخرى تضم ترمس للشاى

وآخر للنسكافيه، بالإضافة إلى عدد من زجات الماء المثلج والكثير من العصائر المعلبة.

كان الاقتراح الطبيعي حول نوعية الطعام: الرنجة والفسيخ والبصل، إلا أنني اعترضت لأن معدتي لا تتحمل هذه الأطعمة وقد أسقط منهم خلال اليوم ونحن منعزلون عن العالم في قلب حدائق أنشاص، وقد وافق اعتراضي هوى زميلنا وائل الذي كان يتأنق كثيرًا أمام "هبه" ويبدو أنه فضل ألا ينغمس في مثل هذه الروائح في يوم كهذا. لذا أعدت عزة وسعاد الكثير من سندوتشات البرجر والبيض بالبسطرمة مع البطاطس المقلية والكثير من المخللات وشرائح الخيار والطمام.

تركنا الطريق ودخلنا إلى قلب حديقة البرتقال واليوسفي، أول ما لاحظت أننا كنا وحدنا بعيدًا عن تجمعات أخرى أتت إلى الحدائق، علمنا فيما بعد أن بالقرب منا، وفي قلب مزارع البرتقال تتواجد نقطة تمركز عسكرية، لكن حسين وعن طريق أحد معارفه استطاع الحصول على موافقة شفوية بنزهتنا تلك، فلم نكن لنمثل أى خطر خاصة وأننا لن نقترب من نقطة التمركز وسوف نظل على مقربة فقط، ولن نستخدم كاميرات التصوير، وفي حال احتياجنا لأى شيء سوف يأتى هذا الشخص، صديق حسين، ليقدمه لنا، ومن ناحية أخرى ننعم بحمايتهم، ففي مثل هذه البقعة قد يقتل القتيل ولا أحد يعلم عنه شيئًا، إنها مئات.. لا.. بل آلاف الأفدنة من الحدائق الغناء.

بعد مسيرة ربع ساعة تقريبًا وصلنا إلى بقعة متسعة، محاطة بأشجار البرتقال، تصلح للاستقرار، جلسنا نلتقط أنفاسنا وقد أنهكتنا الحركة



بسبب أغصان الأشجار المدلاة التي تحتاج لمجهود لتفاديها، إما ندور حولها أو ننحني أسفلها، وبسبب الأعشاب البرية الصغيرة المنتشرة تحت أقدامنا وبغض النظر عن جمالها ورائحتها التي تملأ صدورنا، كانت تحتوى على بعض الأشواك، فتصيبنا بوخزاتها حينا وتتشبس بثيابنا حينا آخر.

أخرجت سعاد ملاءتين من حقيبتها وفرشناهما على العشب الأخضر وجلسنا، فكان العشب أسفلها طريًا باردًا مثل وسائد رقيقة، تمنيتُ أن أستلقى على ظهرى وأملأ صدرى بالهواء النقى المشبع بكل تلك الروائح وأنا أتابع زرقة السماء من بين أغصان الشجرة التي أنعم بظلها الوفير، أنصت إلى ذلك العزف الرائع لخليط الطيور التي تسكن أو تحوم في الجوار، لكن وجود حسين ووائل وهشام جعلني أجلس صامتة لمتابعة ما يحدث.

أخذ الثلاثة يلعبون الكرة في الجوار بينما قامت عزة وسعاد وهبة بإعداد الطعام ومناولتنا السندويتشات والمخللات وخلافه، كان الفتية يأتون بمرحهم الملحوظ ويحملون طعامهم ثم يعودون لاستكمال لعبهم بالكرة، حتى أنهكهم اللعب.

أكلت بشراهة بعد هذا المجهود الذي بذلناه في الطريق مذ الصباح الباكر بالإضافة إلى أنني لم أكن قد تناولت شيئًا، فقد خرجتُ مسرعة بدون إفطار.

بعد مرور ساعة تقريبًا وقفت هبه لتتأبط يد وائل ضاحكة في خجل تخبرنا بأنهم سيكتشفون المكان، بينما ظلّ حسين وهشام معنا،

لاحظتُ أن هشـام كان يطيل النظر نحو سـعاد التي كانت تغض طرفها عنـه بالحديـث في أى أمـر أو تذكـر أى موقف قديم، أما حسـين فكان يختلـس النظرات نحوى، لـم أهتم، أوليتهم ظهرى وصمتى حتى أغلق الباب أمام أى تطفل، هكذا كنت أراه في هذا التوقيت.

بعدمـا هدأت الأحاديث وخفت الضحـكات وطال الوقت ولـم تعد هبه أو وائل بدأ القلق يتسـرب إلى داخلى، هو قلق بسيط على أية حال، لا أعلـم لمـاذا وقفتُ وأنا أشـير في الإتجاه الذي انطلقـا فيه وأخبرتهم بأننـي سـوف أتمشـى قليـلًا للبحـث عنهـم، وقـف حسـين وطلب أن يصحبني لكنني رفضتُ بشدة، فجذبته عزه من يده وأجلسته.

لـم أنطلـق كثيـرًا، عـدة متـرات، لمحت ملابسـهم تبـدو من خلف الأغصـان المتدليـة حتـى تلامـس الأرض، لقـد اختـارا شـجرة كثيفة الأغصان والثمار واستلقيا أسفلها وكأنها كوخ بُنِيَ من أجلهما، اقتربت أكثر، لم يشعرا بوجودي، كانت هبه تجلس فوق فخذى وائل كأنها طفلة يدللها شخص كبير، يطوقها بذراعه الأيسر من الخلف بينما ترتمى على شفتيه بشفتيها، يغيبان في قبلة طويلة عن الوجود. تصاعدت الدماء إلى وجهـي وأنا فـي حيرة من أمـرى، هل أعـود وأتركهـم أم أوبخهم على فعلتهم تلك.

زاد صمتـى وطـال مكوثـى، كانـا يتلـذذان بالقبلات، مـا بين تلاقى الشـفاة أو تدحرجهـا على الوجنـات والأذن والرقبه، حتـى هوى وائل بشفتيه ليقبل هبه على صدرها، بل يلتهمه، لاحظت ذوبان " هبه" حتى أضحـت مثـل قطعة من صلصال طـرى، لا أدرى كيف انقبض أسـفلى

ولامس طرف لسـاني شفتاى، تعلقتُ بغصن بعدما شعرت بخدر يسير فـي جسـدي، صدرت آهة عشـق عـن هبة وهـي تسـتلقى بظهرها فوق العشب، ويداها متعلقتان بعشيقها جاذبة إياه.

هززتُ رأسـي بعنف، فارت الدماء في رأسـي، سـوف يسـقطان في بئـر النـزوة التي تملكتهم، سـوف يحترقان إن أنا تركتهـم، كان عليَّ أن أنقذهما من براثن الشـيطان الذي يسطير عليهما. اقتربت عدة خطوات ثم تنحنحت، لـم يستمعا في البداية، اقتربت أكثر ثم رفعت صوتى، مرة ثم مرة، حتى استفاقا، نظرا ناحيتى، اعتدلا وقد امتزجت على وجهيهما دماء النزوة والخجل، ابتسمت هبه وهي تعدل من ملابسها فوق صدرها والتـي يبـدو أنها قد فتحت أزرارها العليا، بينما الإيشـارب الذي يغطى رأسـها كان حرًا على كتفيها، ترفعه لتعيده إلى رأسـها، وائل لـم يجد ما يقوله فأشـاح بنظره إلى الناحية الأخرى وهو يهمس بكلمات إلى هبه، فهمت منها أنه يطلب منها أن تبعدني عن المكان، بالفعل ابتسـمت هبه وهي تستدير، ولا تزال جالسة في موقعها، ثم تسألني :

- خير يا سوسن؟
- لا شيء.. قلقت عليكِ يا هبه.

قلـتُ ذلـك بعاطفـة حاولت جعلهـا حميميـة حتى أمتـص غضبها الوليـد، وقـد كان بالفعل، فابتسـمت ووقفت تقترب منـي عبر أغصان الشجر، حتى دنت تماما، ثم همست :

- لا تخشـى شـيئا يا حبيبتى، أنا أعرف أحافظ على نفسـى.. ثم إننا مخطوبان والزواج بعد الدراسة كما تعلمين.

ذكـرت ذلـك ثم عادت لتجلـس إلى جوار وائل وليـس على رجليه كمـا في السـابق، لم أجد بُدًا مـن العود إلى المجموعة، سـألوني عنهم فأجبتهم بأنهما يتجاذبان أطراف الحديث في ظل شجرة بالجوار.

لـم أسـتطع تحديد طبيعة مشـاعرى نحـو ما حـدث، لا غضبي ولا راضية، لا حاسدة ولا ناقمة، أين أنا من ذلك؟ لا أعلم!!

مـر اليـوم على هـذا المنوال، ونظرات حسـين ومحاولاته مسـتمرة لخدمتـى ومن ثم لفـت انتباهي ناحيته، إلا أنني لم أهتم به لا لشـيئ إلا أننـي لـم أجد أى شـيء بداخلى، كنت فقط سـعيدة بالمـكان، بالهواء، بالألوان، بروائحه الزكية، تفتحت مسـامى مثل تفتح الزهور من حولى، ابتسمتُ في سعادة، بل وشكرت عزة على هذا اليوم الجميل.

***

«أجسادنا صناديق مغلقة بأقفال صدئة
على أرواح باتساع الكون»

(3)

العاشق

أراح يده على ظهرها، أصابعه تضم ثنايا لحمها، شفتاه تجمع رحيق وجنتيهـا، تُلقي بصدرهـا على صدره، تضمه أكثـر، يضمها بلا هوادة.. تلقـى الشـجرة بأغصانهـا لتصنـع حولهمـا كوخًـا مـن أوراق خضراء تحتوي عشـقهما، تغرد طيـور محلقة في الفضاء تتنسـم عبير القبلات، تتهادي آهات الغرام لتنثر في المكان عبيرًا يخلق مما يحدث لوحة فنية يعجز عن رسمها بيكاسو نفسه، ينقبض أسفلي وترتعد شفتاي، تُمسك يدي بحزمة هواء لا وجود لها..

أوف..

سـيطرت رحلتـي الأخيرة علـى تفكيري عدة أيام، بـؤرة تفكيري ما شـاهدته بيـن وائـل وهبة، ليل نهـار لا تفارقنـي تلك الصـورة التي كانا عليهـا، كنـت أغضب كلما تذكـرت نظرات وائل هذا نحـوي، حتى إن حلمـي عاودني عدة مرات في الأيام التالية لأصحو منه فزعة على ذلك الرجل الذي يقترب بأنيابه الصفراء المدببة.

مـرت عدة أيام قضيتها في الدراسـة، عدتُ فيها إلى صمتي وعزلتي داخل مبني المعهد، ما أن أشاهد هبة أو وائل، أتذكر ما حدث بينهم في خجـل، كيف يفعلان ذلك ثم يمارسـان حياتهم بعدها بشـكل طبيعي، تعاظم بداخلي شـعور الكراهيـة ناحية وائل هذا، وقـد بادلني هو نفس الشـعور على ما يبدو فـي نظراته الصامتة التي يرسـلها نحوي، يبدو أنه كَرِهَ أن أراه هكذا، أو خشـي أن أشـي لأحد بفعلته، ولم أكن أبدًا لأفعل ذلك، وخوفًا من أن تساور بعضهم الشكوك ابتعدتُ عنهم بعض الشيء.

فـي المعهـد انتحـي جانبًا، ففـي محاولة للتعويض عـن عدم وجود حدائـق أو مسـاحات خضراء مثل باقـي الكليات والمعاهـد، تم وضع بعض أشجار ونباتات الظل يمينًا ويسارًا.

هنـاك بالقـرب مـن بوابـة الدخـول نصـف برميـل، به شـجيرة ظل مـن نباتـات الزينة التي لهـا أوراق عريضة تشـبه الكف أو تشـبه القلب المرسـوم على ورقة، شـجيرة تمتلك قوة وجمـالًا، علمتُ فيما بعد أن اسمها « فيكس»، أشعر كلما رأيتها أنها تمثل شيئا من نفسي.

أتذكـر جيدا ذلك اليـوم وأنا واقفة إلي جوار شـجيرة الفيكس هذه، بيدي مشـروب سـاخن أحتسـيه على رشـفات متفرقة كي لا أنتهي منه سريعًا.

كثيـرًا مـا كنت آوي إلي هذا المـكان في أويقات الراحـة، تلك التي تفصل ما بين المحاضرات، أو عندما يعتذر الدكتور عن إلقاء محاضرته وهذه ما أكثرها.

تأملـت الشـجيرة وصلابة أوراقهـا رغم حداثة عمرهـا، عجبتُ من تلـك الورقة الوحيدة التي سـقطت منها في نصـف البرميل. لقد فقدتْ فـي لحظة واحـدة مصدر الحياة، رغم احتفاظها بنفـس النضارة التي ما زالت على اخوتها في أحضان أمها، يبدو أنها فارقت الجمع منذ برهة.

يقتـرب حسـين بوسـامته وطولـه الـذي يزيـد عَلَـيّ حوالى عشـرة سـنتيمترات، يرتـدي قميصًـا أبيـض وبنطلونًـا أسـود وجـورب أبيض يختفي في قلب حذاء أسود لامع، كنت أرتدي بلوزة سوداء على جيب طويل أزرق فاتح بينما أغطى رأسـى بإيشـارب فضفـاض زهرى اللون تزينه زهور بنفسـجية صغيـرة الحجم تبدو للناظر مـن بعيد وكانها نقط صغيرة، شعرتُ به يهمس:

- ممكن.. أتحدث معكِ قليلًا؟

أتانـي الصوتُ متقطعًا مرتعشًـا، لا يتناسـب مع صاحبه الممشـوق الجسد، الثاقب النظرات. فنظرات مثل نظرات حسين تُشعرك باستمرار بثقـة ويقيـن لدي صاحبهـا مما يؤكـد أن صوته ثابت قوي، ثـم إنني قد عرفته خلال الأعوام السـابقة وأكثـر خلال الرحلة الأخيرة، عرفته متزنًا هادئًا.

نظـرتُ ناحيته بهدوء، لاحظت اضطرابه الذي كشـف لى تقريبا عن داخلـه. قرأته بسـهوله، ملامح وجهه فاضحة، صـورة الاعتراف الأول بالمشـاعر هي نسخة كربونية، تكررت آلاف.. بل ملايين المرات، وأن تحـدث اليوم معى بـدون أن يكون بداخلى مثلهـا أو بعضها فإني أراها كما يرى الغريب أحزان شخص فقد عزيز عليه، فلا الشخص المحزون

ولا الفقيد يهمان الغريب، لذا لن يشعر بمرارة الفقد ولن يشعر أبدًا بعاطفة الباكي، مشاعره متبلدة قليلًا لعدم تماس الموضوع معه، كنت كذلك، أشاهد من بعيد.. من بعيد جدًا.. لا يهمني المتحدث ومشاعره ولا تهمني تلك الفتاة التي تواجهه والتي هي أنا، لا مشاعر بداخلها تجعلني أشفق عليها، بلادتها جعلتني أبتسم، فما يحدث شيء عادي جدًا

و لأن الأمر لم يمس بداخلي وترًا، خرج صوتي هادئًا على العكس منه تمامًا، فطبيعة الصوت تعبر عما يجيش به الصدر من محبة أو انفعال أو لا مبالاة، أجبته بنفس الهدوء:

- الأمر يتوقف على نوع الحديث؟!

يصمت قليلًا، لحظات يحاول فيها جاهدًا أن ينظر نحوي، في شيء من التردد والخجل، بدأ يتلعثم ويغض الطرف، يبحث في الهواء المحيط عن صفحة يقرأ منها كلماته التاليه، يبدو أن صفحاته كانت قليلة الكلمات، قال بعد صمته الطويل وزفرته الساخنة التي بثت في المكان حرارة لا تتناسب مع طبيعة جو اليوم المعتدل نوعًا ما :

- لدي إحساس.. داخلي.. أتمني لو حدثتك عنه.

تأملتُ كلماته وهي تترنح في الهواء باحثة عن صدر دافئ لتعانقه، لم أشاهد أيا منها، إنما شاهدتُ أعين الزميلات يتابعن ما يحدث، لاحظتُ أنهن متحمسات ويغمزن لبعضهن بأعينهن،يتهامسن بشفاه لا تصدر صوتًا، وبالتحديد هبة وسعاد، تودان لو أحذو حذوهما، بحثتُ في داخلي عن كلمات أجيبه بها، عن موقف أتخذه تعرف منه الزميلات

الناظرات المتابعات في شـغف موقفي من هذا المتحدث، لم أجد غير إحساس داخلى يرفض الحديث معه أو حتى الاستمرار في الوقوف.

دُهشـت.. نعم دُهشت مما لاحظته على نفسـي، وكأنني أشاهد فتاة أخرى تمنيتُ أن ألومها على جفاء قلبها. الحقيقة أنني شعرت بأكثر من حالة في تلك اللحظات، لم أكن لأرسـو على شـاطئ بعينه، أمامى أكثر من طريق لا أعرف في أى منها أسير، كلها مظلمة على ما يبدو.

تكسـو وجهـي علامـات نفور، ليـس نفورًا مـن المتحـدث، أو مما يتحـدث به، وليس نفـورًا من الفتيـات اللائي يراقبننـي كوصيات على طفلة، إنما كسـت علامات النفور وجهي لعدم إدراكى لرغباتى، جهلى بذاتى أصابني بغثيان، زفرتُ بشدة وأنا أجيبه:

- هكذا..!! لا أوافق طبعًا.

ثـم أوليته ظهري طلبا لرحيله، هنـا فقط ظهرت على ملامحى، التي برزت منعكسـة على الزجـاج أمامى، غضبة احترتُ فـي تحديد كنهها، كم من فتاة أخرى تتمني لو تسمع حديث القلوب، تتغني بأرواح تتعلق بها، وإن رفضتها لم تكن أبدا لتحرم نفسها من الاستمتاع باللحظة.

لحظـة العثور على الحبيب، لحظـة التعلق، إنها المرحلة التي يجب أن أحظـى فيها بمن أسـهر الليل بطوله لأفكر فيه، أنتظر رؤيته بشـغف، أتمني لو أسمع صوته ليل نهار، نتقابل وتتعانق الأيدي.

ترى هل حانت تلك اللحظة؟

يا لها من سـعيدة الحظ التي تنال القبلـة الأولى (القبلة الأولى فقط وليـس عناقًا وافتراسًـا كما فعل وائـل مع هبه) نجتمع حولها، نسـتمع فـي شـغف، تعلو آهاتنـا مع وصف المشـاعر، كنـا نتذوق طعـم القبلة مـن خلال الوصف فنجد لها لذة الشـهد على شـفاهنا، ننتشـي ونحلق كفراشـات حول بطلتنا ونستزيدها، وما أن تنتهي حتى نسألها أن تُعيد.. تكرر ولو لألف مرة، فنحن أمام بئر لا تروى ظمأ، ولا تحنو على بائس، كلما نهل طلب المزيد والمزيد، فلا يشبع أبدًا.

يـدو أنهـا كانت أحلامًا، فها أنا أقف جافة كشـجرة يابسـة مثبتة في الأرض بجذور لا تشعر بفيض الماء حولها.

غضبتـى زادت حينمـا أفقـت فألفيتـه لـم ينصـرف، إنمـا اسـتدار ليواجهنـي، نظـرتُ، وجدته يوارى توتره.. يبتسـم.. أخفيتُ ابتسـامتى المخلوطة بمشـاعرى المتضاربة بداخلى وأنا أشـعر بنصر لحظى، ولا أعلـم لما سـميتها نصـرًا! ولماذا من الأصـل اعتبرت أن هنـاك منتصرًا ومهزومًا؟! نظرت إلى عينيه وتحدثتُ بهدوء:

- رفضـى ليـس تقليـلًا.. لكـن ليس لـدي أى اسـتعداد لمثـل هذا الحديث حاليًا.

نطقـت جملتى الأخيرة ضاحكة برشـاقة، كى أهـون عليه، ولـم أكن أعلم وقتها أنني أهون على نفسى أنا.

تأملني لحظة كأنما يبذل جهدا في استيعاب الموقف قبل أن يقول :



- أرجوكِ يا سوسن.. اعطني الفرصة.. على الأقل هذا وقته بالنسبة لي، فكرت كثيرًا.. لا قدرة لدي على التحمل.

ظللتُ صامتة وكأني أترك له فرصة الاستمرار، أريد أن أستمع، لحظات ضعفه كانت غاية في الروعة، فليكمل إذن.. فليستمر.. هززتُ رأسي، فأكمل:

- أمور كثيرة تحدث.. نكون سببها وإن كنا لا نعلم عنها شيئًا.

يتحدث بصدق وبكلمات تعبر عن حقائق، أقول في داخلي: أيضا قد نتأثر بآخرين لا يعلمون عنا شيئا البتة. بينما أتوجه نحوه بكلمات جافة:

- إذن.. ماذا أفعل..؟! داخلي يرفض ما تتحدث عنه.

- دعيني أخبرك و..

- لا داعي لمعرفتي.. ما دامت غير مفيدة لي.. لو سمحت.. إرحل..

كان ذاك ما تحدثتُ به، أما حقيقة داخلي.. كنتُ راغبة في إتمام الحديث، فالمرء أحيانا لا يستطيع أن يغض الطرف عن مشهد ما حتى وإن كان بشعًا.

ما أن مرت كلمة « بشعًا » على تفكيري حتى اندهشتُ، ما لهذه الكلمة وما يحدث الأن؟! شاب وسيم يبثني آهاته، وأنا أصفه بالمنظر البشع..!! ماذا يحدث وكيف أفكر؟!!

لا أعلم..!!

أحيانًـا الجهل.. لا.. لا.. ليـس أحيانا.. إنما دائما الجهل يؤدي إلى التخبط، وأنا أجهل رغبات ذاتى.

كنـتُ باسـتمرار أدهش من قلبي الذي لم يخفـق لرؤيته أحدهم، لم أختر، ولو حتى في خيالى، ذاك الشاب الذي أتلهف لرؤيته، الذي أتوق لسـماع صوتـه، الذي أذوب إذا ما بثني حنينه وشـوقه. لـم يغمرني مثل هذا الإحساس من قبل، لم أجد حتى بذوره بداخلى.

لماذا يا قلبي؟

لم أحصل على إجابة..

اسـتدرتُ مرة أخرى، ألقيتُ بنظرى نحو الورقة السـاقطة، لاحظتُ أن عنقهـا قد تحول من الأخضر الطبيعي إلى اللون الأصفر الشـاحب، ولـم أكـن قد أمعنت النظر فـي عنقها من قبل، لكـن ذبوله جذب نظرى الآن، مس أوتارى المهترئة. سمعت حسين يهمس :

- أعتقد أنكِ خالية من العيوب!!

تأثـرتُ بمقولتـه لحظـة، تملكتني الدهشـة، خالية مـن العيوب؟!! تمتمتُ في صوت غير مسموع: وجفاف قلبي.. أليس عيبًا يا حسين؟!

عمومـا صبرتُ نفسـى ومددتُ يـد خيالى لأربت علـى قلبي كى لا يحزن، تمنيتُ لو أهدهده كطفل وليد حتى يسـتكين وينام. إهدأ يا قلبي فلا أحد يخلو من العيوب. التفتُ لمواجهته دفعة واحدة وأنا أجيبه :

- لا أحد يخلو من العيوب.

يرتبك.. يرتدُّ إلى الخلف لمسـافة قدمين أو ثلاثة أمام سهام نظراتى التي بدت شرسة، يبتسم ابتسامة حذرة قلقه وهو يقول :

- أقصد.. أنتِ يا سوسن فتاة شيك.. إحساسك عالٍ.. تعرفين أدب الحوار.

- ....

تعمـدتُ أن يطـول صمتي وأن أضـع على وجهي ملامـح صماء لا تعبر عن شيء واضح، الحقيقة أنني لم أبذل مجهودا ملحوظًا في ذلك، فـذاك داخلـى بالفعل، لا وضـوح، يتأملني لحظات، يمط شـفتيه، يزفر بهدوء وهو يسأل :

- هل.. أرحل فعلًا؟

- ليتك تفعل..!!

- سوسن.. علينا وضع البذور..

- ....

- أُهديكِ قلبي.. ولن أندم.

- أنا حاليا مثلُ أرض صخرية.. لا يمكن زراعتها.

ابتسـمتُ بسـخرية وأنـا أتخيله وقد نـزع قلبه وقام بوضعـه في علبة هدايـا، ثـم ذهب إلـى المكتبـة الكائنة أمـام المعهد كي يغلفهـا كهدية، ثـم يأتينـي بهديته ذات الغـلاف المفضض اللامع والشـريط الحلزوني المتدلى منها مع زهرة من البلاستيك الخفيف وقد لُصقت في وسطها، ثم أتناول الهدية بابتسامة خجلى وأفتحها أمامه حتى أشكره عليها، فإذا

بي أجد قلبه.. يَـعّ.. قطعة لحم تقطر دمًا.. ماذا يُهديني؟! هززتُ رأسي بشدة، أعود إلى حيز المكان وأرفع عينيّ نحوه وأقول بإصرار:

– هديتك مرفوضة.

– لماذا؟! هل.. قلبك مشغول بآخر؟

– ....

يصمت حسين، يتأملني وصمتي، يبدو أنه يبحث عن مدخل أخر.. لا تحاول يا هذا، أنت أمام حائط صلد، جدار خرسـاني.. ولا تسـألني لماذا.. فأنا لا أعلم.

يقول مستغيثًا بحروف ساخنة قد ألهبتها مشاعره:

– سوسن..

سمعت اسمي بلحن آخر، لم أسمعه هكذا من قبل، يجب أن أهتز.. يجب أن أنظر نحوه بابتسـامة خجلى.. بالفعل ابتسمت.. لكنها لم تكن ابتسـامة الخجل إنما كانت سـاخرة، نعم ساخرة.. فجأة هدأ داخلي مع هذه الابتسامة الساخرة، فتراجعت قليلًا عن حدتي وأنا أجيبه:

– لن أقضي على آمالك مرة واحدة.

هنـا تظهـر علـى ملامحه سـعادة طفوليـة، يفـرك يديه فـي بعضهما ويتحرك جسده بنشاط بعد خمول، يقول:

– سأنتظر.

– إذن ستشقي.

ابتسمتُ ابتسامة محايدة.. كي أوحي إليه بأنني لست مهتمة، بادلني الابتسامة منتشيًا وكأنه عبر باب الأمل الذي تخيل أنني فتحته له، يقول:

- هذا المرض الذي لا أبتغي منه شفاءً.
- الأيام تُنسي المرء أحبابه بعد موتهم.
- يا لقلبك القاسي.. سوسن..
- نعم..؟
- أنتِ أجمل مما يجب.
- الأجمل أن تتركني وحدي.. ويكفي هذا.

تفوهت بكلماتي الأخيرة ولا أعلم ما هي على وجه التحديد، بينما أغوص بعينيَّ بحثا في عمق الأرض عن مستقر. هي المرة الأولى التي يحدثني بها شاب ممتدحًا جمالي.. جمالي..

قبل أن أهيم خلف كلماته أخذتُ شهيقًا، ملأتُ صدري بالهواء، هربتُ بفكري إلى أمي وهي تودعني صباح اليوم وتطلب مني أن أحمل إليهم الخبز من الفرن المجاور للمعهد، تتلقفه أمي بلهفة وشوق، تحاول بأي طريقة الحفاظ على مركب أسرتنا المهترئة من الغرق، تسد ثقبًا هنا بيد بينما تمد يدها الأخرى لتسد ثقبًا ثانيًا، تجلس على ثقب، تضع قدمها على ثقب، كم أحزن وأنا أتابع تمزقها، يبدو أن هذا جانب مما يحجب عن قلبي رؤية مشاعر هذا الذي يحدثني.

على ملامحي ظهرت علامات الأسى، يرتبك حسين أكثر، بهدوء ينصرف، يتركني وحيدة ولم أشعر بأن حديثه، رغم عذوبته، قد مس

وترًا بداخلى، منبع ذلك أنني كنتُ ألاحظ نظراته ذات المغزى منذ وقت طويل، حتى قبل رحلتنا إلى أنشاص، فكنتُ مستعدة لهذا الحديث.

أما عن جملته الأخيرة « أنتِ أجمل مما يجب » شعرتُ بأنها يد حانية تمسح على وجنتىّ برفق.. لكنها لم تصل إلى الأعماق، سريعا ما يتلاشى تأثيرها.

ما أثر فيّ حقًا هو أدبه في الحوار، أجبرني على محادثته بهدوء، ورغم أني لم أكن أخلو من دماثة خلق وعمق فهم، إلا أنه استطاع بثقة ورقة أن يُشعرني بالإثم حينما أوليته ظهرى، فلم يكن من طباعى أبدًا مثل هذا التصرف.

المكان متسع ويزدحم بكثير من الزملاء كلما مر الوقت، تتزايد نظراتهم نحوى، لم أجد بداخلى أى انفعال، شعرتُ وكأن شيئا لم يكن.

علىّ الرحيل الأن، ما إن تحركت حتى وجدتُ يدًا تجذبني وتثبتني في مكاني، نظرتُ فلم أجد أحدًا، إنما جملة تسرى بداخلى، لا يجب أن أخرج من جمال الموقف، ابتسمتُ راضية، أوليت الجميع ظهرى، وهمستُ لشجيرة الفيكس في صمت :

- القدر جعلكِ شاهدة على جفاف قلبي.

ضغطتُ على شفتى بشدة، تألمتُ لحظة، وكأني اكتشفتُ موقفي للتو وصُدمت به، كأني لم أكن أنا من رفضت هذا الشاب الوسيم، أفقتُ ومددتُ يدي في الهواء لعلى أعيده لأخبره بأنني قد عدت إلى



الطبيعة، لكنه رحل وعادت يدي خاوية تقبض على هواء مشبع بأنفاسه الحارة التي زفرها قبل رحيله.

أبحث في داخلي عن سبب هذا الجفاف، هذا الاضطراب، هذا التناقض، لم أعثر على شيء. لدي يقين بأن الله خلق القلوب، وخلق لكل قلب مفتاحًا يحمله شخص واحد فقط، دائما ما أسأل نفسي:

- من هو؟ وأين..؟!

لا أحد يعلم إلا الله وحده..

ليتني أيضا أعلم لماذا سقطت ورقة الفيكس وتركت باقي الأوراق؟

***



«حتى من رحم الصخر.. تولد بعض النباتات»



(4)

إنكسار

تتعانق الغيوم لتحجب أشـعة الشـمس حتى لا تشـاهد بأعينها تلك الحماقـات التي نرتكبها علـى الأرض، فالخفافيـش تحلق في الظلام، بيـن ثنايا الزمـن تتعانق أجسـاد، وتتقاتل أخرى، خلف السـتائر.. تتأوه فتيات من لذة الحب.. أو لوعة الفقد.. خلف الستائر شباب يحلمون.. ورجـال يخططـون.. الكل يرتـب أوراق اللعبة كي يحصـل على أعلى النقاط في النهاية.. كلٌ يبحث عن لحظة تاريخية يحصل فيها على اللذة الكونية.

وأنا..

تائهة على أعتاب الكون..

حسـين يتابعني، ينتظر صامتًا الخطوة القادمـة، يبدو أنه يُدرك معني المشـاعر الحقيقية. كم تمنيت أن أدركه وأدرك مشـاعره، لكنني بحثتُ بين جنبات قلبي بضعة أيام لرؤية البذور، لم أجدها. بدا أن الأمر معلق بيننا، لا نهاية له، أكره الأمور غير الواضحة، أعشق النهايات.

تحرك يا قلبي.. تحرك.. آه لو أمسك بهذا القلب لأضغط عليه بيدي لأعتصـره عصرًا، لا.. لا.. لن ألوم قلبي الأن أو مستقبلًا.. هو فقط لم يجد نبعًا يرتوى منه لتدب فيه الحياة.

من الأمـور الغريبة في تلك اللحظات أنني كنت أدرك جفاف قلبي هـذا بثقة ويقيـن لا حد لهما وكأن ذلـك أمر بديهي، وأنـه هو الصواب الوحيـد فـي الكـون ويجب أن أحظى علـى تقدير حقيقـى على موقفي هذا، لم يخطر على بالى ولو للحظة أن قسـوتى تلك مؤشـر يدلل على بداية كوارثى.

سوف أدرك، فيما بعد، أن الطغاة لا يعلمون أنهم طغاة.. أن الأغبياء لا يعلمون أنهم أغبياء.. لو أدركوا.. ما كانوا.. لكن كيف تجتمع قسـوة قلبي مع جمالى..؟! لابد أن يرتبط الجمال بالذكاء ورهافة الحس ودقة المشـاعر، يبدو أن تلـك النظرية، التي يتحدث عنهـا علماء النفس، لها شواذ.. وأنا منهم. ليتني لم أشذ.. ليتني تشبثتُ ولـم أترك عقلى يجرجر قلبي خلفه ويلقى به إلى تلك النيران.

فـي ذلك الصباح، أقف في نفس المـكان، أعلم أنه يتابعني بنظراته. بهـدوء لا يلفت الأنظار رنوتُ نحوه، مـع إيماءة هادئه بأن يقترب، فهم المعني ببساطة.

يتقـدم نحوى مترقبًـا، عدوى توتـره تصيبني، أرتبك لحظة، أشـعر بأنفاسـه الدافئـة، أتمنـي للحظـة أن يجذبنـي إلـى صـدره بعنـف، أن يقتـل غـرورى، أن يقتحمنـي بقـوة، يمتـص رحيقـى، يلهب شـفتاى، يعتصرني،يُلهـب ثديـيَّ على صدره، يصب في أذنـيَّ أعذب الكلمات،

يشـدو بـأرق الألحـان، بكلمات الحـب.. يفعـل أى شـيء، المهم ألا يتركني فريسة غبائي..

أتماسك، أحبس أنفاسى بداخلى، أقول :

- حسين.. لم أجد البذور.

يصمـتُ لحظات، يجول بنظـره في فضاء المكان وإن كنتُ أعلم أنه لا يرى من تفاصيله شـيئًا، يزفر حتى يصيبني بعض هواءه الساخن وهو يقول :

- البذور؟! طبيعى ألا تجديها.. لماذا الجمود؟!!

- أرجوك يا حسين.. أعلم أنك شخص ذكى.

- الأقدار تحركنا.. نبكى.. ونعود.

يتفـوه بكلماتـه.. بل بحروف كلماتـه كأنه يصنعها مـن جديد، على ملامحه تبدو علامات التأثر الشـديد، حتى إني شعرت بنوع من الشفقة نحوه، لكني سريعًا ما لفظت هذا الشعور.

ابتسمت وأنا أتخيله أحد أبطال الأفلام القديمة وقد مال شعره لامعًا علـى الجانب الأيسـر وهو يعترف بحبه لفتاته التـي تفرك يديها ببعضها فـي خجل وعينيها تحفر الأرض من شـدة التوتر، وكأني أسـمع كلماته التي يتبعها بكلمة « صدقيني.. »

واريت ابتسـامتى، تماسـكتُ وأنا أرفع رأسى قليلًا بشموخ يتناسب مع انتصارى وهزيمته البادية على ملامحه، ولا أعلم في تلك اللحظات لماذا أسميت موقفي انتصارًا وموقفه هزيمة. تحدثت بصرامة:

- ليتك تكون أكبر من الموقف.

- لا كبير أو صغير في الحب يا سوسن.

- فلتنس يا حسين.. يجب أن تنسى..

- و هل ينسى المرء نفسه؟!

- عادي..

أجبته ببرود جعله يتساءل بدهشة :

- عادي؟!

و كأنني مدرس يتعالى أمام تلميذ بليد وهو يشرح له نقطة مستعصية، لاحظتُ بالفعل كيف يتضاءل حسين أمامي، وكأنني أنمو وهو يتقزم..

بدأت في الشرح قائلة :

- هل حدث في يوم ما أن تابعتَ قدمك وهي تتحرك على الطريق.. هل لفتت انتباهك ذات يوم يدك وهي تمسك بالقلم وتكتب؟

- نعم؟!

- ألم أقل لك.. الفرد ينسى نفسه.. طيب.. هل مر عليك يوم تكلمت فيه مع أصبع في يدك؟ أعتقد أن هذا لم ولن يحدث.

- تتحدثين عن أعضاء في أجسادنا؟!

- و القلب.. أليس عضوًا؟.. أنت شاب ذكي ويجب أن تنسى..

- سوسن.. الذكاء في توجيه المشاعر.. وليس في قتلها

- الدول أحيانا تستخدم القتل والدمار لحل مشكلاتها.



- ذنب أكبر.

- الحسنات يذهبن السيئات.

تحدثت بهذه الكلمات بشيء من الحزم لأنهي الحوار، لقد سئمت.. ليس من الحوار الجاف الذي لن يصل إلى نتيجة مرجوة لكلينا، إنما سئمت من تلك الفتاة التي أشعر بها تتحدث بكل هذا الصلف والجفاء، كنت أريد أن أغادر، فليس جيدًا أن يشاهد المرء نفسه ينزلق وينزلق إلى قاع بئر مظلمة.

يندهش حسين ويشد قوامه قائلًا:

- رفضك لحبي.. من الحسنات؟!

لم أجد ما أجيبه به، قررتُ ترك المكان، فوجئت مرة أخرى بيد مجهولة تمسكني وتثبتني في مكاني، وكأن هاتفًا أسمع كلماته يأمرني بألا أترك المكان، أنا أنتصر علي رجل يقف أمامى ذليلًا، فلماذا أرحل؟ ليرحل هو إن شاء، على المهزوم الانسحاب، تحدثتُ بنفس القوة:

- الحسنات هي النتائج.

- سوسن.. أنت..

بتلعثم نطق كلماته الأخيرة، توقعت ما يريده، إنه يرغب في إثارة مشاعرى، سوف يمتدح جمالى، قاطعته سريعا وكنتُ أود ألا أقاطعه:

- لو سمحت.. يجب أن ترحل.. ما عندي ذكرته لك بلا مواربة.

سـقط ذراعيه على جانبيه، تهدلت كتفاه، تقوس ظهره قليلًا، يمتص الهـواء بصعوبـة، يتفحصنـي كثيرًا وعلـى ملامحة علامات أسـى، أثار بعضها شفقتي، قال بهدوء كسير تواريه ابتسامة فاقد الأمل:

- لن أنساكي بسهولة يا سوسن.

- المهم أن تنسى.

خرجـت جملتـي الأخيـرة بتلقائيـة مـع ابتسـامة، الغريب جـدًا أن كلماتـي كانت تحمل رنة سـعادة، كيـف وأنا المتألمة مـن جفائي؟! لا أعلـم.. لكننـي بالفعـل وجدتنـي مبتسـمة وبداخلي قدر ولو يسـير من سعادة، كان منبعها قدرتي على الرد المباشر الذي يحمل قوة الانتصار. لم يهتم كثيرًا بما أشعر أو أفكر، إنما يكمل قائلًا :

- كل مـا أطلبه أن تعلمـي أن هناك من أحبك لذاتـك.. صدقيني يا سوسن.. كنتُ سأجعلك أسعد إنسانه.. لم أكن لـــ..

قاطعته كي لا يسترسل في أمر أنا أنهيته بالفعل :

- أنت من أحسن الناس..

يبتسم وكأن الروح عادت إليه وهو يقول :

- أحسن الناس؟!

سؤال يحمل معني لماذا إذن ترفضين حبي وقلبي الذي أحمله إليك كهديـة؟! أجبته بصمتي.. شـخصتُ ببصري في اتجـاه آخر، يدرك أنها النهاية، يقول :

- عمومًا.. ورغم كل هذا.. إلا أني سعيد.



- السعادة الحقيقية يا حسين عندما تجد قلبًا مثل قلبك.

- وجدته.. لا تفصلني عنه غير خطوة واحدة.. لكنه يرفض.

- لا فائدة.. انتهينا.

تمر لحظات شعرت بها ثقيلة، يجب أن أعود للحياة، أشعر بالهوان، ليس من السهل على فتاة في مثل عمرى أو مستوى جمالى أن تقف بليدة هكذا، فكما أن الحب بمشاعره الفياضة يعطى الروح ألقها، فعدمه يمتص من تلك الروح حياتها.

أتابع حسين بطرف عيني بدون أن أدور برأسى نحوه، أراه ينسحب إلى الخلف خطوات وهو يتفحصني، أشعر بنظراته تحوط جسدي كله، ارتبكتُ لحظات، لا أدرى لماذا مستني نظراته الأخيرة بهذا الشكل؟! وكأنه يعلم ما يدور في داخلى، كنت أتألم رفضى له غير المبرر، أنا نفسى في دهشة يا حسين لا تقل عن دهشتك، لا أجد سببًا منطقيًا لتصرفاتى الأخيرة، فقط أنا لا أريد..

فقط أريد أن..

أن أشعر بلذة خضوعه وانتصارى.. لكن هل كانت تلك اللحظة تعني لى أنني انتصرتُ بالفعل.. أم انكسر شيء ما بداخلى.. فقد ارتبكت من نظراته التي شقت عن قلبي.. عن مشاعرى.. عني كليةً.. وكأنه يراني.. عارية.

يهتز بداخلى وتر، ألتفت ناحية شجرة الفيكس، تجذبني الورقة التي تركت الجمع وسقطت، لا تزال ملقاة ذابلة، يسودها اللون الأصفر

الشـاحب مختلطـا باللـون البنـي وقـد انكمشـت وتقوسـت.. لم يكن بداخلـى تفكيـر واحد وإنما خليـط من الأفكار، شـعرتُ بأن ما يحدث غريبٌ بالفعل..

ولكـن.. هـذا ما حدث وقتها وقد رأيته أمرًا عاديًا، وها أنا أراه اليوم هبـة قدمتهـا لى يد القدر، قدمتهـا لى بيد حانية رحيمـة، ماء حياة لقلب جـاف يحترق ألمًـا.. لكنني رفضتها بأنفة الواثق، أمـا الحقيقة فلم تكن أنفة واثق بقدر ما كانت جهلًا.

* * *

«لا وقت للتردد.. حول كل فريسة ألف صياد..»



(5)

الخائن

في لحظة واحدة ترسـل الشمس أشـعتها فتنقشع غيمة ثقيلة، تخرج الطيـور مـن أوكارها، حتى السـلحفاة ترنو من صدفتها، أسـراب النمل تغادر كي تحصل على طعام يكفي الشتاء القادم، هرة تموء تبحث عن ذكر تطفيء عبره نشـوتها تحت أشعة الشمس الحانية.. الحياة تنطلق بلا توقف..

لم تنته قصتي مع حسين بعد، فقد روادتني كلماته خلال الأيام التالية لرفضي عرضه، فكرتُ في الأمر بعمق، لم يكن لحسين أن يعرض عليّ مشـاعره بهذا الشكل وفي نهايات حياتنا الدراسية إلا إذا كان يريد حياة استقرار، رابطة زواج شرعية تربط بيننا مدي الحياة، مؤكد هو لا يلهو.

رغم رفضي لطلب حسـين تمامًا، إلا أنني ألفيتُ كلماته الأخيرة قد سـيطرت على تفكيري تمامًا، لا أدرى لماذا احتوتني رغبة محمومة في التفكير فـي كل تفاصيل لقاءاتي به، منذ بداية حياتنا في المعهد، أبحث

عـن نظراته المتلصصة ثـم أمر برحلتنا إلى حدائق أنشـاص حتى أنتهي بعرضه الأخير ورفضي له.

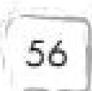
أهو الحب؟!

ضحكتُ بسـخرية من نفسـي ومما طـرأ على تفكيـري لحظتها، لم أكلف نفسي حتى بالبحث عن إجابة أو عن مبرر لسخريتي.

خرجتُ من منزلي في قريتنا التي تقع على ضفاف نهر النيل، شاطئ النهـر مرتفع عن سـطح المـاء بدرجة كبيـرة، يقال أنه الجسـر الحقيقي للنهـر قبل إنشـاء السـد العالي، يـا له من منظـر مهيب الـذي جمع بين النهر والجسـر، النهر الآن غاية في الروعة بصفحة ماءه الشـديدة الزرقة حد السـمرة اللامعة، المحاطة بأشـجار وأعشـاب بريـة تتفاوت درجة خضرتها في تدرج رائع.

ماذا كان يا ترى منظره في السابق، عندما كانت المياه تعلو حتى هذا الارتفاع الذي أسـير عليـه الأن؟ لابد أن صفحته كانـت رائعة، لابد أن الطيـور التي تحلق منتشـية فوقه الأن كانت أكثر هناءة ونشـوة، لابد أن الأسماك في قلب النهر كانت تجد من الرحابة ما يسعدها، الأن هو رائع أيضًـا، تخيلت ولـو أن الله لم ينعم علينا بهذا النهر العظيم الذي يمنحنا الحياة على مر العصور..!!

الله عادل.. أعطانا نهر النيل وأعطى دولًا أخرى البترول وثالثة قدرة على استخدام ثروتها البشرية و.. و..



وأعود فأجدني أتذكر حسين بكلماته، لم تخرجني نزهتي على ضفاف النيل من أسر كلماته الأخيرة.

ملأتُ صدرى بالهواء النقى، حبستُ شدو العصافير بداخلى، تمنيتُ لو أضم الكون إلى صدرى. انحدر عبر الممر الضيق الذي يصل حتى صفحة الماء، أهبط المنحدر مدفوعة بقوة فجريت خشية السقوط، ضحكتُ وأنا أجري مثل طفلة، أتذكر أيامى طفولتى ولهوى على ضفاف النهر حينما كانت تصطحبني أمى عندما كانت تأتى لغسل ملابسنا في ماءه العذب، لم تكن في قريتنا مرافق من مياه وصرف صحى تساعد السيدات في ممارسة أعمالهن بيسر، كنتُ آتى معها إلى هذا المكان الذي كان ملتقى لنساء وأطفال قريتنا، هنا على هذه الضفة.. فوق تلك القطع الصخرية كانت تُحكى الحكايات وتسكب الدموع وتجلجل في الأفاق الضحكات، بالقرب كنا نلهو ونلعب، وتتعاظم سعادتنا حينما نُمسك بقطعة قماش طويلة مثل شبكة صياد لنصطاد بها أسماك البلطى الصغيرة التي تتوافد لتنهل من بقايا الطعام المتخلفة عن عملية الغسيل.

وقفت أبحر مع النهر في ذكريات الماضى، يمر طائر العندليب ذو القلادة الأرجوانية بالقرب، يتأملني لحظة قبل أن يغادر إلى قلب الأعشاب القريبة، ابتسمتُ في سعادة، وددتُ لو أدليتُ قدميّ في الماء.

على صخرة أعدها أحدهم سابقًا للجلوس بجوار شجرة صفصاف، جلستُ مسترخية تمامًا، جعلتُ من الصخرة مقعدي، ومن جذع الصفصافة مسندي، ومن صفحة الماء الرائعة ورقة كبرى أخط عليها

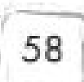
همومي التي انتصرت على روعة المكان وسيطرت على تفكيرى، تتدلى حولي أهداب الصفصافة حتى تمس أطرافها أديم الماء وكأنها أقلام تخط عليها نقوش لاتبقى لحظة، تهمس لها بكلمات من حروف الصمت، ليتني أسمع وشوشتها، ليتني أستطيع أن أهمس أنا الأخرى بما لدي، وما لدي كثير، لكني لا أجيد صياغته.

ندت عني آهة صغيرة، المكان رغم صمته، إلا من شدو الطيور ورقرقة الماء ومداعبتها طينة الشاطئ وشجيراته، ملأني وشوشات وصخبًا، لا.. لا.. ليس المكان هو الذي أزعجني.. لقد كان داخلى هو الصاخب، الذي لا يدرى ماذا يريد وإلى أى شيء يستكين، آه منك يا حسين، لقد كنت هادئة لا أهتم بشيء، لا أعى عن ذلك الشرود شيئًا، لماذا أخرجتني من عزلتى يا هذا؟! زفرتُ.. شعرتُ نحوه بشيء من الكراهية، لماذا اقتحم حياتى بهذا الشكل؟ ولماذا لم يقاتل جنود رفضى حتى ينتزعني من بينها ليهرب بي؟!

فجأة سمعت كحة تأتى من قلب الماء، رجعت بجذعى إلى الخلف وجلة وأنا أنظر ناحية الصوت، فإذا به قارب صغير يقوده شاب، ينظر نحوى مترددًا وكانه يسألني المغفرة عن اقتحامه خلوتى، غفرت وإن لم يسألني، من ملامحه وابتسامته الساكنة ذهب عني خوفي، عادت الطمأنينة في لحظات، يبتسم، تخرج كلماته متقطعة وهو يعتذر :

- أسف لو اقتحمت خلوتك.. لكني بـ... بصراحة...

ثم يصمت لحظات نتبادل فيها النظرات، كنت أنظر نحوه أحثه على استكمال حديثه، ومن ناحية أخرى أحاول أن أراه بشكل أفضل. يرسو



قاربه على الشـاطئ تمامًا، يُمسك بيده بعض أهداب شجرة الصفصاف كى لا ينجرف القارب مع التيار، تفوح منه رائحة العشـق، العشـاق لهم هالة تميزهم.

أتأملـه بينما داخلى مندهش من تفاصيـل القدر، هل تفوح أو تصدر منـي رائحة تجـذب المحبين؟! لماذا اليوم يا هذا وأنا أتقلب على نيران حسـين وموقفي معه؟! لماذا حسـين من الأصل.. ثم أنت.. لا أعلم ما يدخره لى القدر؟! وأين هذا كله من قبل؟!

يكمل حديثه فيقول:

- بصراحـه لم أسـتطع تمالك نفسـى التـي قادت القـارب نحوك، لحظـة أن شـاهدتُكِ فـي ثوبـك الأحمـر والإيشـارب الأزرق ووجهـك الأبيض بين خضرة الأشـجار وصفحة مـاء النيل، لقد أذهلتني الصورة كاملة، فوجدتني أمامك هكذا.

لـم أكن لأرى الصورة كاملة كما صورها لى، تأملتُ ثيابي فوجدتها بالفعـل، بألوانهـا مـع الألـوان المحيطـة كانت رائعـة، رؤيتـه تفاصيل الصورة كشـفت لى عن سـعة أفقه، عن رقة مشـاعرة، لن يرى تفاصيل صورة جميلة صاحب قلب أصم.

تنهدتُ بلا كلمات، أشـحتُ بوجهي إلى الناحية الأخرى، يجب أن يرحل، فلا طاقة لى بطارق آخر، لكنه لم يرحل.. يسترسـل في كلماته، أخبرنـي أنه شـاب من تلـك القرية التي تقع على الجانـب الآخر للنهر، يدرس في الجامعة، السـنة الثالثة بكلية التجـارة، يتنزه بهذا القارب كل فترة قبيل الغروب، أخبرني عن اسـمه "فؤاد" ثم سـألني عن اسمى،..

أخبرتــه.. أخبرته بعد أن علمت أنه يصغرني بعام، أخبرته لأني في تلك اللحظة شـاهدتُه وكأنه شـقيق أصغر لا حبيب قادم، لماذا تبحث الأنثى دائمـا عن الأكبر والأقوى.. وأحيانا عن الأكثر عنادًا؟! لماذا أفكر اليوم في حسين بعدما رحل ولا أرى هذا الشاب الذي أتى؟!

تبادلـتُ معـه أطـراف الحديـث بعدمـا أنسـت منـه صدقًـا وطيبـة ورومانسـية لصيقة بطبيعتـه، يعترف بأن طيفي وصورتـى هما ما جذباه نحـوى. وكـى أقطع عليه طريق آماله أخبرته بأننـي مخطوبة وما هي إلا شهور وتنتهي الدراسة ويتم الزواج، يتمني لى التوفيق وحياة سعيدة ثم يعتدل في جلسـته ويمسـك بمجدافي القارب.. قبل رحيله يطيل النظر نحوى وهو يقول :

- خسارة.

ابتسـمتُ وأنـا أعلم مقصده تمامًـا ولكني تخابثتُ بينما أهز رأسـى مستفسرة وأهمس برقة، ولا أدرى لماذا جعلت نبراتى رقيقة :

- أى خسارة؟!

- أننا لم نلتق قبل اليوم.

تأملنـي أكثـر، بدت علـى وجهه علامـات حزينـة، الأن أدركت لما جعلت كلماتى رقيقة، وكأنني أود لو يتحسر أمام عينيَّ عليَّ، زدتُ ناره اشـتعالًا بابتسـامتى التي جعلتها عريضـة ثم أتنهد قليلًا، قبل أن أرسـم ملامح الجدية على وجهي وأنا أقول:



- لا توجد خسارة.. سوف تجد الأفضل.. وقد وجدتُ فيك أخى.. الأصغر.

يصمت قليلًا وقد فهم ما أرمى إليه، بينما تعبث يديه بمجدافي القارب، يبتسم قائلًا:

- سوف أكون نعم الأخ.. لو تسمحين.. سوف آتى إلى هنا دومًا لعلنا نتبادل بعض الحديث مثل اليوم.

- لا آتى إلى هنا كثيرًا.. عموما المكان متاح للجميع.. وإذا شاء القدر أن يجمعنا مستقبلًا كما جمعنا اليوم.. فأهلًا به وسهلًا..

وقفتُ وأنا أنفض يدي ببعضها كى أزيل عنها أثر تراب توهمت أنه علق بها، ثم استأذنت ورحلت أبداخلى شيء جعلني أفضل أن أتركه وأرحل لا أن يتركني هو ويرحل.

تذكرتُ حديثى له بأنني مخطوبة، لماذا أخبرته بذلك.. وأى خطيب؟!

حسين..

حسين هو مَن ورد على خاطرى في تلك اللحظات، لقد خرجتُ من منزلى وأنا أفكر في حسين وما حدث بيننا مؤخرًا، كنتُ أبحث عن لحظات صفاء كى أستقر على رأى، لكني وللأسف أجد مَن يخرجني من شرودي إلى شرود جديد ومن هم إلى هم.

أيأتى الحب كما الهموم جمعًا لا فرادي؟

الحب..؟!!

أى حب هذا الذي أتحدث عنه!! أحسب أن الحب يأتى من قلبي.. يجب أن يصحو هذا القابع في صدرى من نفسه، ينتفض.. يئن.. لا بد أن يرفرف بجناحيه حينما يتذكر حبيبه ولا يهدأ قبل أن يرتمى على صدره، لا يجب أن يصحو بطرقِ آخرين.. لا.. لا.. ليس هو الحب على الإطلاق.. أى حب وأى خزعبلات تهمسين به يا نفسى.. أنا فقط متأثرة بحديث حسين ويجب أن أزن الأمور بعين العقل، تلك حصافة يجب ألا أجهلها، يجب ألا أضيّع فرصة ما، قد أندم عليها مستقبلًا.. هذا كل ما في الأمر.. ليس حبًا على الإطلاق.

أتسلق الطريق إلى أعلى، ببطء أصعد، تذكرتُ هرولتى لحظة هبوطى، دائما السقوط أسرع من الصعود، تسارعت أنفاسى وأنا أصل أعلى الجسر، أتأمل المكان.. ألحظ فؤاد في منتصف النهر بقاربه الصغير في طريقة إلى الشاطئ الآخر، أوشكت الشمس على المغيب، تودع الكون باكية حتى احمرت عينيها، أسراب الطيور تهرول في اتجاهات شتى عائدة إلى أوكارها، نسمة خفيفة داعبت أوراق الأشجار المتناثرة على جسر النهر العلوى التي تحيط ضفتى الطريق الذي يحتويني حتى يسلمني باب بيتى.

رجعتُ إلى منزلى.. إلى غرفتى.. صامتة شاردة.. ما زلت أتأرجح على أرجوحة صغيرة تتقاذفني يدا الرفض والقبول.

نظرتُ حولى فإذا بي في غرفتى المتواضعة الأثاث، بل قديمة الأثاث جدًا، تشاركني فيها أختى الصغيرة، ويزاحمني فيها دولاب

ملابس ضخم يضم معظم ملابس عائلتنا، حتى أسـفل السرير يستخدم كحافظة خزين من أرز وسكر وخلافة.

إن كنتُ لا أبـادل حسـين نفس مشـاعره فيكفيني أنـه يرغبني، بل يرغبني بقوة، الارتباط بفرد يحبني، سـوف يسـاعدني في تكوين أسـرة مسـتقبلية يكون لـي فيها اليد العليا. مـاذا أريد أكثر من شـاب يرغب.. يمتلك إمكانيات المعيشة؟

ماذا أنتظر غير هذا؟!

لـم أنم ليلتـي من كثرة التفكير في حسـين وموقفـه، رتبت الأمر في ذهنـي على أكثر من شـكل، أخيـرًا وبعد كثرة فكر مضطـرب قررتُ أن أحدثه غدًا، سـوف أشير نحوه بإيماءة مع إبتسامة، سوف يأتى وأحدثه، بخجلٍ، عن أنني فكرت في كلامه كثيرًا ويبدو أن البذور نبتت بداخلى، سـوف يفرح، بل سينتشـى كثيـرًا وإن لم نكن في المعهـد لعانقني، ولو كنا في أنشـاص بيـن أغصان الشـجر لحملني على رجليـه، يحتويني.. يضمنـي بذراعيه، يُقبلنـي طويلًا، ليتنا نذهب إلى أنشـاص.. أوه.. ماذا قلـت؟! تدفقت الدماء إلى وجهي، شـعرتُ بحرارتهـا على وجنتى، ما هذه الكلمات الأخيرة؟!

لا.. لا.. يبـدو أنهـا جملـة شـاذة خرجت عن سـياق تفكيـرى، لقد شـهقت فزعـة ممـا جمـح إليه خيالـى، وقتمـا أهدأ ممـا أنا فيه سـوف أحاسـب نفسـى وأوبخها كثيرًا على تلك الجملة التـي ما كان يجب أن أهمس بها أبدا.

سـوف أخبر حسـين غدًا فـي المعهد وبيـن الزملاء كـي يتحكم في عواطفـه، لن أكون يومًا مثل هبه، ولن يكون هو مثل وائل، سـوف تُبني علاقتنـا علـى احترام متبادل، أنـا فتاة من أصل محتـرم محافظ، ملتزمة بتعاليـم ديني وأصلي كل الفروض، يجب أن تكـون علاقتنا في الإطار الشرعي وأن يحدد موعدًا لمقابلة والدي وموعد الزواج وإن لم يوافقني على ذلك غدًا سوف أخبره برفضي للعلاقة ونعود إلى نقطة الصفر، إلى نقطة قلبي الأصم، لن أخسر شيئًا لأنه لا عاطفة بداخلي نحوه، هو فقط عرض استقرار.

فـي الصباح صحـوت على يد أمـي الحانية توقظني كـي أذهب إلى دراسـتي، فقد نمت كثيرًا اليوم، لم تعلم أمي أنني لم أغف إلا قليلًا بعد أن صليت الفجر.

كنتُ أشعر بالاعياء، قاومتُ رغبة داخلية تريد النوم، ترفض الذهاب إلى المعهد، ترفض مقابلة حسـين، ليكن اللقاء في الغد أو في الأسبوع القادم.. لينتظر حسين.. لينتظر العالم كله..

تناديـني أمـي من بعيد خشـية أن أكون سـقطتُ أسـيرة للنـوم ثانية، أجيبهـا بصـوت متقطـع مثـل قطرات مـاء من صنبـور مريـض. وكأني نـداء أمي أمر واجب الانصياع له، خرجتُ من سـريري متذمرة، أنهيتُ عـادات الصباح، لو أخبرتُ أمي بأن لا دراسـة اليوم لتركتني، سـعيدة، أنام حتى انتصاف النهار.

ارتديـتُ ملابسـي، تأنقـت قـدر المسـتطاع، لـم أجمـع أطـراف الإيشـارب على رقبتي كما هـي عادتي، أبرزت هذا الجـزء الصغير من



رقبتـي، أسـفل ذقني، فعلت ذلـك بعد أن خرجتُ من قريتي، لو شـاهد أحدهـم ذلك الجزء الصغير من رقبتي وأعلى صدري لأطلقوا لخيالهم العنان، وقبل أن يأتي الليل تكون هناك ألف حكاية نُسجت عن سوسن، تلك عاداتنا في الريف، ليتهم لا يرهقون أنفسهم في نسج تلك القصص التي تنال من الآخر، لكن.. للأسف.. أصبحت هذه العادة من تفاصيل الحيـاة اليومية، أحاديث لا تنتهي طالما كان هناك لقاءات، يلتقون على النواصـي، عند بائعة الخضروات، في جلسـات السـمر أمـام المنازل، حتى في أوقات الثرثرة التي لا نهاية لها عبر التليفونات، تفاصيل حياتنا فـي الأريـاف منتهكة، لا خصوصية على الإطـلاق، والأكثر مرارة تلك الإضافات التي تروق لهم حينما يتناقلون التفاصيل، يتضاعف الحدث الواحـد عشـرات المـرات كلما انتقل من لسـان إلـى آخر، ويـا لها من إضافات.. هي دائمًا في الاتجاه السـلبي.. لو تحدثوا عن ملاك في أول اللقاء.. لجعلوه شيطانًا في آخره.

أصـلُ إلـى المعهد، خلسـة عـن العيـون، في الحمـام، أمـام المرآة وقفـت بعض الوقـت وقد أخرجت أصبـع روج من حقيبـة يدي، على اسـتحياء وضعتُ منه غلالة رقيقة على شـفتيَّ، رسمت ابتسامة عريضة على وجهي وأنا أغادر الحمام، تخيلتُ مسـتقبلنا معًا ونحن نبدأ أسرتنا الصغيـرة، سـوف أقنع حسـين بضـرورة عملي فـي وظيفة مناسـبة وأن أقتطـع جـزءًا مـن راتبي أعطيـه لوالدي شـهريًا، إنه ينتظر يـوم تخرجي وعملي بفارغ صبر كي أساعده على تربية أخوتي الصغار.

تحركتُ ببطء وخفة، كأني عصفور صغير يتعلم الطيران، يرفرف قليلًا ويخشى السقوط فيتوقف، حلقتُ بعيني أبحث عن حسين في مكانه المعتاد، هناك بين مجموعة الأصدقاء شاهدتُه يقف، أراه من ظهره بجسده المميز، رأيتُه اليوم بشكل مختلف، طويل.. يتأنق بعضلاته البارزة أسفل قميصه الأبيض. الأصدقاء يلتفون في دائرة وعلى وجوههم ابتسامات، يضحك بعضهم بصوت مسموع، تلمحني سعاد التي كانت في مواجهتي تمامًا، تغمز بطرف عينيها نحو حسين ثم ناحيتي، وكأنها تقول له لقد ظهرت سوسن يا حسين، يبدو أنه كان يتحدث معهم بشأني، فقد استدار بجذعه ناحيتي، غمرني بنظراته، كانت في بدايتها صامتة تحمل لمسة من حزن مثل سحابة خفيفة تحجب أشعة الشمس ما تلبث أن تتحرك تاركة المجال لها كي تغمر المكان بفيضها الذهبي، يبتسم، بادلته الابتسامة، يلتفت نحوي بجسده كله، يتركهم جميعًا، يتحرك ناحيتي، أرنو بعيني خجلًا، أحاول ألا تتقابل نظراتنا لتفضح رغبتي، تهبط عيني إلى مستوى يديه المدلاة إلى جانبية، ألحظ في يده اليمني علبة لونها بني قاتم مربعة الشكل، ترى ماذا يحمل معه؟

لابد أنها هدية لي.

هل حام حوله طائري وأخبره بما أنا مقدمة عليه؟! يا له من شخص يحمل مشاعر عظيمة وقلب كبير، مؤكد ستكون حياتنا معًا هادئة مستقرة، نظرتُ نحوه أحثه على الاقتراب أكثر، لماذا تمر اللحظات ثقيلة، سألتُ نفسي: هل أبدأ أنا الحديث أم أنتظره يبثني مشاعره من

جديـد؟ اقترب كثيرًا، لم تعد تفصلني عنه سـوى خطوة واحدة، رفعت عينـي لأشـاهد نظراته، عميقة كانـت، عيناه تحمل الكثيـر من المعاني، من المشـاعر، كان شـامخًا بطوله وجسـده الممشـوق، تمنيـتُ لو يمد يـده لتعانق يدي، تمنيتُ لو يختفي الجميع من حولنا، لم أكن أعلم بأن اللقـاء سيشـعل بداخلى كل تلك الحـرارة، مؤكد هي لحظـة مهمة أمرُ بها للمرة الأولى في حياتى، ابتسـمتُ له بشوق، ولَمَا لم يبدأ الحديث، هممتُ بأن أتحدث.. اسـتجمعت قوتى التـي لم أفقدها بالطبع.. وقبل أن أقـول له بأنني أتيتُ اليوم من أجله، من أجل مسـتقبلنا، قبل أن أقول أنني اقتنعت بكلماته وبمشـاعره، قبل أن أقول له أنني أريده أن ينتشلني مما أعيش فيه، شـريطة أن يترك لى فرصة مساعدة أسرتى، قبل أن أقول لـه لقـد قبلتُ عرضك يا حسـين.. قبل كل ذلك.. رفع يـده التي تحمل العلبـة البنية اللون المربعة، نظـرتُ نحوها، يمده يده الأخرى عبر فتحة ضيقـة في أعلاهـا.. ببطء شـديد تعلقت عينـاى بأصابعه التـي اختفت لحظـات في قلب العلبة قبل أن تخرج، أخرجها أخيرًا وقد قبضت على شيء صغير.. ترى ماذا يحمل لى في يده؟

تأملنـي كثيـرًا وهو يرفع يده ببطء شـديد لتسـتوى أمامـي وما زالت مغلقـة على مـا فيها، على وجهه ترتسـم علامات حزن حتـى إن وجهه احمر وكأنه يعاني من صراع داخلى.

أخيـرًا.. أخيرًا فتح قبضة يده.. وكم كانـت المفاجأة.. وجدت فيها قطعة شـيكولاته.. شيكولاته يا حسين؟! آخر شيء يخطر على بالى أن أجد في يده قطعة شيكولاته.. والآن..!!

لا أعلـم كيف قادتنـي أفكاري إلـى زاوية الرؤية تلك.. ابتسـمتُ.. لقـد قـرر أن يبدأ حديثه معي بشـيء لذيـذ الطعم.. حلو المـذاق.. مَن يا ترى الذي أخبره بأنني أعشق الشيكولاته؟! هيا يا حسين.. تحدث.. ما دمتَ بدأت بهذا، فلتكمل إذن يا.. حسين.. هيا.. خفف عني عبء هذا اللقاء.. يزفر بشدة لا تتناسب مطلقًا مع ما نحن فيه، ثم يقول:

- تفضلي يا سوسن..

مددتُ يدي لآخذ قطعة الشـيكولاته وأنا أبتسم لأشجعه كي يُكمل، للمرة الثانية يزفر وكأنه يخرج ما بداخله من نيران، لم يكن مرتبكًا هكذا في المرات السابقة.

رغم محاولاته المستميتة لرسم الابتسامة على وجهه إلا أنها تخرج باهتة، يتغلب عليها بأن يشيح بيده في الهواء إلى لا شيء، ثم يقول:

- شيكولاتة خطبتي أنا و.. عـ.. عزة.

وكأن جبلًا كاملًا سـقط فوق رأسـي، تسـمرت قدماي في الأرض، يبدو أن أشباحًا مرعبة سيطرت على خلايا وجهي حتى إن حسين ارتاع قليلًا وهو يرتد إلى الخلف خطوة، يتأملني وأنا أضغط بيدي على قطعة الشيكولاته بمنتهي الشدة، شعرتُ بها تذوب من حرارتي وتتسرب من ورقتها، يهبط حسـين بعينيه نحو يدي وبشـكل لا إرادي يشير نحو يدي والشيكولاته، أخفيتُ يدي خلف ظهري وأنا أعود إلى الخلف خطوة.. ثم خطوة أخرى، قدماي كأنها جبال، طنين رهيب في رأسي، دقات مثل دقـات طبول الحروب في صـدري، تداخلت الأصوات من حولي مثل فرقة موسيقية قبيحة تعزف لحنًا دمويًا يصلح لأحد أفلام الرعب.

لماذا لم أسقط فاقدة الوعى؟! لماذا لم أصرخ فيه بشدة؟! لماذا لم أسرع الخطى نحو عزة، التي تقف هناك بين المجموعة وتنظر نحوى بتشفي وشماتة، كى أجرها من شعرها أمام الجميع؟!

لم أفعل أى شيء من هذا أو ذاك..

بعد لحظة تماسكتُ فيها، حاولتُ الابتسام، بينما أشعر بخواء رهيب، قدماى غير قادرة على حملى، تذكرت أحلام ليلتى السابقة، تذكرت خيالات وأوهام المستقبل المزعوم، نعم هو مستقبل وهمى!! ماذا فعل حسين من قبل؟! اقترب يثني خزعبلات وما أن رفضتُها حتى بحث عن بديل، أين الحب الذي زعمته يا هذا؟!

بقدر الإمكان كتمت بداخلى حسرتى، وأدتُ انفعالاتى، قتلتها في مهدها، بل قتلتُ بداية قناعة وليدة بأن أرضى قد تنبت الزرع، فلتمت البذور قبل أن تنبت، لتمت أى مشاعر، ابتسمت.. نعم ابتسمت وإن خرجت الابتسامة باهته وأنا أشيح بوجهي عن حسين لئلا يقرأ ملامحى التي أحسبها فاضحة لقلبي وما يعتمل في نفسى:

- مـ.. مبروك.. يا.. حـ.. حسين.

نطقتُ بكلمات المباركة والتهنئة بحنق رهيب، فشلتُ في كبت انفعالى، دُهش حسين من رد فعلى، صعدّني بنظراته وقبل أن يصدر أى رد فعل تحركت أنا، تركته وتركت المكان كله.

بحثتُ عن مكان آمن، فها هي كل العيون تخترقني، تكشفني، ترى ما في قلبي، وصلتُ إلى جوار شجرة الفيكس، لمحتُ الورقة وقد ذبُلت تمامًا، العدم يُذيب أطرافها. رفعتُ عينيى عنها لأشاهد صورتى

فـي زجـاج الباب أمامـي، مبهمة، تأملتهـا.. كانت جميلـة منذ لحظات وهـا هي الآن مثل طيف.. أو وهـم.. أمعن النظر أكثر لأتأمل ملامحي، أبحث عن ذاتي، إنها بالفعل صورتي، جسدي المتناسق، ملامح وجهي الجميلة، شـفتاي المضمومتان على شيء مبهم، تلك النظرات الحالمة التي تزين وجهي، بشرتي البيضاء، لكن هناك جزء متسخ يظهر بوضوح علـى صفحة الزجاج، بالتحديد على جانب صورة وجهي، فكانت كأثر داكن لكدمة تعرضتُ لها منذ أيام.

حاولـتُ بقدر الإمكان التعرف على ما يدور بداخلي من تضاربات، عجزتُ عن ذلك بشـكل نهائي، ابتسمتُ في محاولة للتقليل من أهمية الموقف، لكنها خرجت إلى الوجود ابتسـامة مثقلة بالدموع المتحجرة في عيني تأبي الانفراط، كُسـر بداخلي حلم وليد. أذابت حرارتي قطعة الشـيكولاتة التي لا تزال حبيسة يدي، أضغط عليها بشدة ولا أعلم أني أعتصرها إلا وأنا أشعر بها تسيل من بين أصابعي قطرات مثل دم أسود.

أيـا هذا.. ألا تعلم أن متحجرة مثلـي إن تفتت قلبها الصلد لن تعيده الأيـام إلى سـابق عهده؟! ألا تعلـم أن ممتنعة مثلـي إن أحبت وأعطت قلبها لن تقف حدود العالم حائلًا أمام عطائها؟!

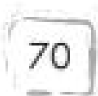
ليتك تعلم.

ليتك تعلم ما كنتُ قد أعددته لك، ليتك تعلم أنك فقدت الكثير بتسرعك..

بل.. بخيانتك.

أيها الرجل.. الخائن.





«بداخل كل منا ألف كهف.. سعيد مَن يدرك بعضها»



(6)

الكهف

الأيـام تنقضي حاملة معها من أعمارنا الكثير، بمعولها الأسـطوري تقضـي على أحلامنا مرة تلـو مرة، نرتضي بخنوع كسـير، لا قدرة على الرفض، وإن ملك أحد رفضًا، سـوف تدهسـة الأيام بأقدامها، تسـحقه حتى لا يبقى منه أثر، وكثيرًا فعلت، نحتال على أنفسـنا بالنسيان ونبدي سعادة.

لكنـي لـم أنـس ما فعلـه حسـين « الخائن » معـي، لا يزال يترسـب بداخلي قطعًا صلبةً مثل مخلفات حفر أرض صخرية ألقيت في الطريق العام. خيانته مزقتْ شيئًا بداخلي.

في لحظات اسـتقرار أفكر فيها ببعض الهـدوء، أجدني مخطئة، فأنا مـن أغلقـت كل الأبواب في وجهه، قتلتُ آماله، لـم أترك له مجالًا كي يحلم بي.

لكنه لـم يحاول أكثـر.. كان عليه الاسـتماته.. المحاربة من أجلي، أن ينتشـلني مـن ذاتي الرافضة، أن يقبض بيديـه الحانية على قلبي ويبثه

حبه.. لا.. لا.. لم يكن يحبني.. فعل خيرًا برحيله وارتباطه بأخرى.. لو أحبني ما تركني وإن رفضتُه، يقدم كل ما يستطيع كي يتقرب مني، كي يتسلل إلى قلبي عبر أفعاله وكلماته الرقيقة التي يجب أن تدغدغ مشاعري وتسلب فؤادي.

كيف أرتضي بمشاعر تأتي عبر الكلمات؟! الكلمات هواء يذوب في الهواء.. لو أحبني حقيقة لكنتُ شعرت بخفقان قلبي.. انقباض صدري.. لهفي وشوقي لرؤيته.. سهري الليل سابحة في بحر عينيه على لحن كلماته الشجية.

لم يكن يحبني ولم أكن لأبادله الحب بهذه الطريقة الخالية من المشاعر الحقيقية وإن ادعى هو ذلك.

إذن لماذا حزني؟! لماذا أصفه بالخائن؟! دُهشت من ذلك كثيرًا.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تأكدتُ فيها من أن هناك جزءًا من نفسي غامضًا لم أتعرف عليه بعد. كنت لا أشك في معرفتي لسرائر نفسي ونزعاتها، لكني بعد هذا الموقف أحسستُ بأنني أمام كهف مظلم.. يجب أن أبحث عن ذاتي الحقيقية بداخلة كي أصل إلى سلام نفسي.

طبيعي أن يأكل الجائع.. لكن أن يتزايد شعوره بالجوع ويرفض تناول الطعام ثم يحزن بعد رفع الطعام من أمامه!!.. لا شك أنه هناك مشكلة ما لديه. يأتي الحب وأرفضه ثم أحزن !! أحسب أن ذلك أمر غير طبيعي.



بعد طول بحث في داخلي المظلم، تأكدت من وجود باب للكهف، حاولت الدخول لاكتشافه.. عانيتُ كثيرًا في الخطوة الأولى، استحال العثور على مقبض الباب في هذا الظلام المريع، بحثتُ كثيرًا، آلمني شعور الفشل، إحساس الضعف قاتل، الأمر جد صعب.. آثرت السكينة.. قلت لنفسي مواسية:

- كفي تخاريف.. فلتنسيْ يا سوسن.

ابتسمت لأهزم ضعفي.. لم أنتبه وقتها إلى تفاصيل هذا الضعف.. لم أعِ أنني كنتُ قد بدأت سَلك طريق أخرى، إنها طريق الهروب.

تلاحظ أمي شرودي، تسألني أكثر من مرة عن أسباب ذلك وفي عينيها شكوك وخوف، أبتسم من مخاوفها، تخشى الخطيئة الكبرى، كل أم مرعوبة من أجل عذرية ابنتها حتى يوم زواجها، وما أن تشاهد لون الدم الأحمر على قطعة بيضاء حتى تتنهد بارتياح ملقية عن كاهلها هموم مثل جبل.

أحتضن أمي وعلى وجهي سعادة كي أبعد عنها الشكوك، أخبرها بأن اقتراب الامتحانات فقط هي سبب ما أنا فيه من اضطراب، تصدقني أمي، وكل الأمهات تفعل ذلك، توفر لي كل ما يساعدني على التركيز ومذاكرة دروسي.

خجلي أمام طيبة أمي ورقة قلبها جعلني أؤكد ما ذكرتُه لها، بذلتُ الكثير في مراجعة مواد الدراسة، مواد كثيرة، حشو لا هدف له غير صناعة كتاب لجني المال.

عمومًـا.. هربتُ إلى دراسـتى، اقتربتُ أكثر من عائلتـى، فقد قللتُ مـن ذهابي إلـى المعهد بقـدر الإمكان، شـاهدتُ أبي عن قـرب، ذلك الرجـل الصامـت، لا يطلـب.. أمى باسـتمرار تقدم له ما يريـده قبل أن يطلبه، حَفِظت طباعه عبر تلك السـنوات. تعجبتُ حينما تذكرتُ أنه لم يجمعني حوار ذات يوم مع أبي، أقصد حديث مليئ بالعاطفة والشـجن حـول الذكريـات، عن مشـاعر أحدنـا نحو الآخـر، حقيقة كنـا بعيدين تمامًـا، وكأنني ابنته بالتبني، لكنني لـم أكن أشـعر بذلـك بالفعل.. أحبه وأقدر ما يبذله من جهد كي تسـتطيع أسـرتنا الصمـود في مواجهة تلك الأعبـاء الطاحنـة، تفانيه من أجل توفيـر حياة طبيعية لـى ولأخوتى أمر يضعه في مكانة عظيمة في قلبي.

اخوتى الصغار ينظرون نحوى بسـعادة دائمـة، كنتُ مثلهم الأعلى، لم يتذمر أحدهم ذات يوم لأني أنال أولًا ثم يحصلون على ما يتبقى.

***

الثمار الجيدة تنتظر من يصعد ليقطفها..
أما الثمرة الرديئة فهي التي تسقط أرضًا..



(7)

السقوط

تمر الامتحانات..

تنتهي الدراسة..

نجحت..

توارى أمر الكهف في أعماق الذاكرة.

قليلًا ما أذكر حسـين أو عزه أو المعهد. غير أن لحظات ضيق كانت ترافق تذكرى ارتباط «حسين» بـ«عزة». أمر مثل هذا وغيره الكثير، من أحلام قُتلت وتُقتل بداخلى، توارت أمام همى الأول في ذلك التوقيت، البحث عن وظيفة.

أصبح ذلك جل ما يشغل تفكيرى ليل نهار، معاناة والدي الذي يَكد بلا كلل كى يوفر لنا أساسيات الحياة، صحته تتلاشى وجسده يذوب مع الأيام. يكفيني ما أرهقتهم به حتى اليوم، مصروفات تعليم، حياة كاملة.

الحقيقـة أن والـدي لـم يشـعرني، ولو للحظـة، بأى ضيـق من كثرة مصروفاتى التي كانت تتزايد مع بداية كل عام دراسـى، حيث الملابس الجديدة، الأحذية، الكتب وخلافة. يعتز ببنوتى ويفتخر بها كمن يحمل في يده زهرة جميلة يحافظ عليها ويود لو يراها الجميع.

إن كان قـد فعل المسـتحيل ليوفـر لزهرته مصدر الحيـاة طوال هذا العمـر المنصرم حتـى أنهيتُ تعليمـى، فعلىَّ أن أعمل، يجـب أن أوفر مصروفاتى.. لا.. بل يجب أن أسـاهم في توفير جزء من المال لوالدي كى أساعده في مصروفات أسرتنا.

تتزايـد الأعباء مع ذهاب صحته، وكأنهـا تكفاءه على ما قدم فتلهب ظهره بسـياط قاسية، نرى مَن حولنا وقد تحسنت أحوالهم مع مر الزمن وجنحت نحوهم سـبل الراحة. يبدو أن سُـبل الراحة إن مالت إلى أحد انتبـذت الأخـر، اتخذت منه عـدوًا لدودًا بقدر ما اتخـذت من صاحبها صديقًا أو عشيقًا لا تفارقه وإن أهملها.

تمر الأيام متثاقلة وأنا أبحث عن عمل، وكأن مآسى الحياة تتجاذب لتتحـد مع بعضها البعض، ضعف غير مسـبوق في دخـل والدي، حتى إن أمـى ذهبت لتبيع آخر قطعة ذهبية كانت تمتلكها وهي «حلق» يتدلى على شكل ورقة شجر، هي الأخيرة في مصاغها، وها هي تسقط.

يأتى صيف هذا العام قائظًا يقذف بحمم تشوى الوجوه، مع عقبات لا تعد ولا تحصى في طرق بحثى عن وظيفة.

تعانقت الهموم في هذا الصيف لتقتل بسمتى.

أوشكت على رفض الواقع الذي يجعل مَن لا يستحق يتقلد الوظيفة وتستقيم حياته، بينما أمثالى ممن يحتاجون إلى العمل ويمتلكون مؤهلاته، لا يجدون أدني فرصة، لا بارقة أمل في نهاية الطريق.

يحتويني شعور داخلى بأنه من الواجب على هذا المجتمع أن يوفر لى « أنا بالذات » وظيفة مريحة، دونما بحث أو عناء.. وهذا ما لم يحدث حتى الأن.

عبر صفحتيهما على الفيسبوك، كنت أتابعهما ولا أدرى لماذا، أعلم أن حسين سوف يتزوج بعزة خلال أيام، فقد انتهيا من كافة التجهيزات، فتسقط أخر حصوني، أطلق آهة فزع.. الأكثر إيلاما أنهما حصلا على وظائف وعملا منذ شهور.. إنهما يمثلان بجثتى بعد قتلى، يمزقانني إربًا، يستخرجان أعضائي ليلتهماها وهي لا تزال تقطر دمًا، أى بشاعة تلك التي ينتهجها ذلك العالم ضدي؟! أى سخرية تلك؟! ألم أقل لكم إن المصائب تتجاذب.. إنني محور جذب لمصائب الكون على ما يبدو.

يزداد ذلك الشيء الموجود بداخلى، يكبر حتى شعرتُ به كجسد أخر داخل جسدي، لكن ما هو.. أو ما هي تفاصيله؟ لا أعلم، كل ما أعلمه أن هذا الشيء الموجود بداخلى قد ازداد ضيقًا وحنقًا وكراهية من أثر ما أمر به من أحداث حتى إنه يؤلمني.

في أوقات الضيق الشديد كنت أغلق علىّ باب غرفتى ولا أجد غير دموعى سبيلًا ألطف بها حرارة قلبي المشتعل، قلبي ليس مشتعلًا على فقد حسين.. أنا لم أكن أمتلكه لأفقده، إنما مشتعلا على فقدي الحياة

بكل تفاصيلها، أبكى حتى تنتفخ جفوني وتتورم وجنتاى بعد تشـربهما نهر دموعى.

أمـا في الأوقات التي أسـتطيع فيها التماسـك وحجـب دموعى عن الانهمار، أخرج لأسير نحو جسر النهر، أتمشى قليلًا بين أشجاره وأبث ماء النيل الرقراقة همومى، فينصت لى الطير فوق الأغصان.

بدون أن أشـعر أجد نفسـى أجلس فوق الصخـرة، أرتكن إلى جذع شـجرة الصفصـاف التـي ما تـزال تنقـش بأهدابهـا على صفحـة الماء مذكـرات لا تنتهي، أتأمـل صفحة الماء ثم أبحث بناظـريَّ حتى الضفة الأخـرى وأنـا أعب من ذلك الهواء النقى المشـبع بطعـم الماء وروائح النباتات المحيطة..

ترى.. عن ماذا أبحث؟! لماذا أشعر بأني أنتظر شيئًا.. أو أحدًا..!!

ماذا كان يُدعى فتى القارب الصغير؟!

آه.. فـؤاد.. أين هو؟! ألم يخبرني بأنه سـوف يأتـى إلى هذا المكان كثيرًا..؟!

خونه..

كنتُ أعتقد أن ماء النهر وذلك الهواء الذي يحتوى المنطقة بأكملها قد رقق مشاعر هذا الفؤاد، جعله يدرك قيمة قلب مثل قلبي، ليأتى ألف مرة، وينتظر ألف يوم.. هل ذلك كثير على أن يحظى في النهاية بقلبي؟! فليذهب إلى الجحيم هو وأمثاله.. مَن أراد فليحارب حتى النصر..

أترك المكان وأرحل حاملة فوق رأسـي حزني وألمي، أترك صفحة النهـر وأصعـد حتى الطريق العلـوي، ولو كنتُ انتظـرتُ دقيقة واحدة، ولـو كنـتُ التفتُ إلى الخلف ولـو للحظة واحدة لشـاهدتُ ما كان من شأنه أن يغير مسار حياتي.. لكني لم أفعل.

***



للضعف رائحة تجذب كل طامع..



(8)

الشاردة

كما ريم شاردة في بيداء، فريسة مهددة بالضياع، يطمع فيها كل ذاهب وآيب، دائما متوترة، مترقبة، أفزعُ من أى صوت مرتفع، من صرخة طفل، من ريح تدق الأبواب وتصفق النوافذ. قبل أن أصل إلى مرحلة القلق مما أمر به، بررتُ لنفسى أن كل ما يحدث نتيجة حتمية لرقة مشاعرى ونفاذ بصيرتى.

بديهي أن يتقدم لخطبتى أكثر من شخص، حتى إن بعضهم كان يحمل شهادة متوسطة، وبعضهم لا يحمل شهادة على الإطلاق، مع كل متقدم أتذكر حسين بكلماته الأولى، ثم بفعلته الشنعاء وقتما تركني وارتبط بعزة، أصبُّ غضبي الشديد وكراهيتى على ذلك الشخص الجديد وأنهره بشده. يضاف إلى ما يعتمل بداخلى من غضب، أني لم أجد في أحدهم الصفات المناسبة التي تتوافق مع ذاتى.

لقد وضح للجميع أني أرفض مجرد الفكرة، وهذا أمر قوبل بدهشة من أفراد أسرتى مما زاد الوضع سوءً، لكني بما أمتلك من لباقة،

استطعتُ إقناع الجميع بأن ما هي إلا أيام وأعثر على الوظيفة المناسبة، وحينئذ أكون قد امتلكتُ المؤهلات الكافية لاختيار الزوج المناسب. الزواج مشروع له مقوماته ومواده الخام، والوظيفة بالنسبة لى أحد هذه المواد.

ما كنت أعتقده في ذلك التوقيت بالذات، لأن عقيدتى تلك تغيرت مستقبلًا، أن الزواج هو تتويج حقيقى لعثور القلب على نصفه الأخر، نصفه الحقيقى، فلا هذا ولا ذاك تكتمل دورة حياته إلا به. مثل الماء، كما كنا ندرس في مادة الكيمياء، فهو مكون من أوكسچين وهيدروجين، يجتمعان فيكونان الماء، أما إذا بقى كل منهما على حده فيظل عبارة عن غاز غير مرئي يتطاير.

يجتمعان معًا فينتج الماء.. سبب الحياة.

يبذل المحب كل شيء من أجل الوصول إلى شقه الأخر، وإلا فلا معني أبدا للارتباط بآخر لا يتفق معه، يكون سببًا في تعاسته، أما وكانت تلك قناعتى وقتها فقد رفضتُ الكثير ممن تقدموا لخطبتى، فلم أجد ذلك الشخص الذي أقف أمامه مبهورة، يرتجف قلبي، يكاد يسقط من بين ضلوعى، الشخص الذي إن رأيته، زينت وجهي ابتسامة عذبة، بلل حلقى رضاب كما الحليب، تنفستُ روائح زهور العالم، شاهدتُ الأفق بلا نهاية وإن كنتُ حبيسة غرفتى.

أكثر المواقف التي عذبتني في تلك الفترة رفضى الارتباط بابن عمى، لم أجده يومًا فتاى الذي أحلم به، أو بالأدق لم يكن هو فتى

تحلـم بـه أي فتـاة، كل مقوماته أنـه رجـل..» رجل ملو هدومـه « تلك الجملة المقيتة التي لا تجد الفتيات أمامها أسبابًا مقنعة للرفض.

أبي.. أمي.. أيها الناس.. أيها العالم.. ألا تعلمون أنني لا أرغب في رجـل يملأ ثيابه.. إننـي أود رجلًا يملأ قلبي، ما أكثر الأشـياء الضخمة التي تملأ ثيابها، أريد قلبًا.. روحًا..

رفضـتُ ابـن عمي بلا أسـباب مقنعـة غير رغبتـي في العمـل أولًا، شـعرتُ برفض أبي أيضًا لكنه خشـى الإفصاح عن رفضه وألقى بالأمر كله عليَّ، فتشـجعت وأبديت إصـرارًا لـم تجد معه أمي بد من الخضوع وإخبار زوجة عمي بأنه لا نصيب.

مـن بين كل هؤلاء لـم أجد هذا الشـخص الـذي ينتفض أمامه قلبي، ولـم أكن أعلم أنني سـوف أقابل قريبًا، وقريبًا جدا ذلك الشـخص الذي سيجعل من حياتي جـ...

لن أخبركم الأن.

* * *

متعلقة بأهداب الأمل،تُمسك بأشعته الضالة..
لا تعلم أن هناك ألف متربص.



(9)

الفريسية

مر عام مذ انهيتُ دراستى. ما زلتُ أبحث، باستماتة، عن الوظيفة. بدأ اليأس يتسرب إلى نفسى، تفارقني الابتسامة، طموحاتى تنضب مع مرور الأيام مثل بئر تجف، حتى بانت قاعها.

تأكدتُ من استحالة الالتحاق بعمل حكومى، بدون العمولة المالية الضخمة، ذاك أمر معروف ومعمول به في كافة القطاعات، حتى تعيين أئمة المساجد أصبح يتم عن طريق العمولات، وأيضا قضاة العدالة. هناك شبه تسعيرة للوظائف. من أين لى بآلاف الجنيهات أدفعها رشوة للحصول على الوظيفة التي سوف تدر عدة مئات شهريا؟!

لما وصلت في ذلك الاتجاه إلى طريق مغلق بحائط خرساني مرتفع إلى ما لا نهاية، عدت أدراجى إلى نقطة الصفر، ثم بحثتُ في اتجاه آخر وهو العمل في القطاع الخاص.

تقدمتُ للعمل بوظيفة سكرتيرة بإحدي شركات الكمبيوتر المنتشرة، شأن أى جديد متاح. صاحب الشركة شاب في مقتبل العمر،

يتفحصني بنظراته، بشـهية يلحس شفتيه بلسـانه، يهمس لنفسه باشتهاء الجائع:

- معقولة..؟!

ثـم يبدأ فـي مرحلة الاسـتعراض التي تنتاب أصحـاب الأعمال في بلدنا. علمتُ أن والده الذي يشغل أحد المناصب المهمة في المحافظة، أنشأ له هذا المشروع بعد أن رفض الوظيفة الحكومية رفضًا تامًا.

دُهشت.. سألته:

- معقولة.. أتكون الفرصة موجودة وترفضها؟!

يحاول أن يبتسـم، تظهر أسـنانه غيـر المنتظمة التي كانـت، على ما أعتقد، تجعله قليل الابتسام. يقول:

- لا أتحمل متطلبات الوظيفة الحكومية.

يقـف من خلـف مكتبه ليتمشـى قليلًا، بينمـا أتابعه وأنا جالسـة في مكانـي، تأملـتُ حركتـه التـي يحـاول فيهـا أن يجعل مـن نفسـه كبيرًا أو عظيمًـا، لقـد بـدا لـي أنه يقلـد مشـهدًا تمثيليًا رسـخ فـي ذاكرته من المسلسـلات المصريـة، حيـث يتـرك دائما البطـل مكتبـه ويتحرك في الغرفـة ثـم يعود ليجلـس بلا داعـي، فعلًا.. عـاد إلى مقعده بلا سـبب واضح لتحركه، يكمل بهدوء وهو يتأملني:

- أنا أعتقد أن الوظيفة الحكومية لكبار السن..



يصمت لحظات يتأملني فيها بشدة حتى إنني تململتُ قليلًا، وبشكل لا إرادي رفعت يدي اليسرى على صدرى وكأني أصد نظراته، يفيق من شروده قائلًا:

- هل تريدين وظيفة حكومية؟

في البداية نظرتُ نحوه صامته، لم أستوعب الموقف مرة واحدة، تلك من مشكلاتى بطبيعة الحال، آخذ وقتًا حتى أدرك الهدف الحقيقى خلف العبارات، لم أفهم لحظتها أن ذلك الطعم الذي يلقيه ليصطاد به فريسته، ومثل فريسات الكرة الأرضية، التقمتُ الطعم بسهولة، بل متعجلة، لم أتمالك نفسى وعلت الدهشة ملامحى، سألته :

- كيف؟

- عن طريق والدي.

ألجمت المفاجأة لساني وشلت عقلى عن التفكير تمامًا، لقد كنتُ مثل غريقة تبحث عمن ينقذها، أموت عطشًا وسوف أتناول أول جرعة ماء تصادفني وإن كانت من قلب بركة موحلة.

لم يفصح عن أى تفاصيل، ولم أجد بداخلى أى كلمات أعبر بها عن رغبتى غير إيماءة مضطربة من رأسى، إيماءة تعني الموافقة، تعني أنني أرغب في الحصول على الوظيفة، لم أعلن عن رغبتى تلك بالكلمات، الكلمة لها ثمن، وبالآلاف، من أين لى بهذه العمولة؟! يبتسم في هدوء وينهي اللقاء.

فـي طريق عودتي تذكرتُ والده، ومـا يثار حوله في الأونة الأخيرة، هو صاحب منصب وصفقات مشـبوهة أيضًا، سرقة مال عام، عمولات يحصل عليها مقابل تعيينات أمثالي.

دُهشت.. كيف لثرى مثله، أتخمه المال، يطمع فيما لا نمتلكه.. في ما نحلم بتوفير بعضه كي نستطيع الصمود أمام نكبات الدهر؟!

لا.. لا.. ليس طمعًا.. بل سـرقة علانية، بجاحة لا توصف، يطلبون المـال ليزيـد ثراؤهـم، بينمـا نتجرع مـرارة الفقر وأشـواكه التـي تمزق صدورنا.

كنـتُ في حيـرة من أمرى، بين ثلاث، أولها البقـاء بلا عمل، وثانيها العمـل في شـركة الكمبيوتر الخاصـة، وهو عمل غيـر مأمون ويحتوى علـى الكثير مـن المضايقات، وثالثًا العمل الحكومى المشـروط بمبلغ خرافي لا تمتلكه أسرتى.

عموما الأثرياء كُثر في أيامنا هذه، أساليب الفهلوة والنصب جعلت من نكرات نجومًا لامعة، فئة من البشـر يحملون أرواحهم على أكفهم، إمـا المـرور بصفقاتهم ومن ثم الثراء، وإما السـقوط المـدوى، وبقليل من الرشـاوى تنطلق الصفقات، يمـرون عبر الفتحات الضيقة إلى عالم أرحب من الثراء.. الثراء الفاسـد، لكنهم في نهاية الأمر يمتلكون المال وبـه يحققون مكاسـب لا نحلـم بها يومًـا.. وظائف.. أراضى.. شـقق سـكنيه، في أى مجال تحدث المزايدة ومَن يدفع أكثر ينل مراده، ترتفع الأسـعار ما دامت الأمـوال موجودة، بينما نبحـث بمعاولنا في الأرض الصلبة من أسفلنا لنجهز لحودنا.



يزدادون رفعة ونزداد قهرًا.

غرقتُ في عذاباتي يومين متتاليين.

أحيانًا ينصفنا العجز، يريحنا من عناء البحث ومن قلق الضياع. العجز يُلجم الفكر. فلو كنا نمتلك جزء من المبلغ المطلوب لسعينا لاستكماله عن طريق الاستدانة، أو بيع جزء مما نمتلكه وإن كان أثاث منزلنا المتواضع، أما ونحن لا نملك أي شيء فقد نسينا الأمر برمته، لكن في اليوم الثالث حدث أمر غريب.

ألفيتُ رفعت صاحب شركة الكمبيوتر موجود في منزلنا، يجلس مع والدي، جاء يتقدم لخطبتي.. هكذا..؟!

***

قد يرتدي القرد ملابس السادة..

لكنه في النهاية.. قرد.

(10)

الصياد

صمت كصمت القبور يشـمل المكان، حتى شـارعنا الذي لا يخلو من صخب الأطفال شَمِلَه ذلك الصمت القاتل، لا أعلم لماذا يضطرب داخلى!! أين ذهبت العصافير التي تسـكن الأشجار؟! لماذا ينبح كلب بهذا الصوت المتألم؟!

عمومـا.. قبل تلـك اللحظة، لم يكـن «رفعت» هـذا، بالأهمية التي تجعلنـي أذكـر انطباعى نحوه، لكـن وقد وصلنا إلى تلـك اللحظة التي يجلـس فيها مع والـدي يطلب يدي للزواج، هنا يجب أن أسـجل رأيى فيه، كما كونته من اللحظة الأولى.

عندما شاهدتُه لحظة دخولى غرفة مكتبه، تذكرت دون مبالغة القرد الوحيد الموجود بحديقة الحيوان بالمنصورة، صاحب أنف أفطس، فم عريض، جبهة ينكشح الشعر عنها.

مـن الأمور التي تأتـى مصادفة وقلما تجتمع، أن ما ذكرته من عيوب يجتمـع مع ثقل فـي النطق، يتعثر في بدايات الجمـل فقط ثم ينطلق في

بقيتها كأنـه يقرأ مـن كتاب. رفعـت في طولـى تقريبًـا، وإن كان طولى يناسبني، كفتاة، فهو في الرجال يعد قصرًا ملحوظًا، جسده عريض، لذا بدا كمسـتطيل له أرجل ويخرج من أعلاه رأس نبت أعلى رقبة قصيرة، ويتدلى على الجانبين ذراعان قصيران.

أعجب بي عند رؤيته لى في مكتبه وقتما تقدمت للوظيفة، لقد طلب مـن والـده أن يوافقه على الارتبـاط بي، ولأنه الفتى الأوحـد لوالده لم يكن ليقف أمام إحدي رغباته، فقد أرسـل والده مَن يسـأل عن عائلتى، وها هو اليوم هنا.

لحظـة أن أخبرنا بـأن والده قد أرسـل مَن يتقصـى أوضاعنا ألفيتني ارتبك، لم أدرك في لحظتها أنه يجلس معنا، وهذا يعني أن السـؤال عنا أتى لصالحنا، إذن لماذا ارتبكت ولو حتى للحظة؟! أحسب أن خشيتى من اكتشافهم فقرنا وعوزنا قد سببت لى هذه الارتباكة السريعة.

تركتُ هذه الجزئية وانتقلت إلى أخرى أهم، إذا كانوا بحثوا تفاصيل حياتنـا، وعرفـوا ما عرفوه عن فقرنا وحالتنا الماديـة المتدنية، لماذا أتى ليتقدم بطلب الـزواج؟! ما هي المميزات التي أمتلكها وقد جذبته بهذه السـرعة؟! لا أعتقـد أن نسـبة الجمال التـي أتميز بها وحدهـا هي التي أقنعتـه الاقتنـاع الكامل بتلـك الخطـوة المصيرية، مؤكد هناك أسـباب أخـرى تقف خلف طلبه هذا، وإن كانت خفية عني اليوم فسـوف تظهر لى مسـتقبلًا بدون أى عناء، وللأسـف.. سوف تكون من بعض أسباب عذاباتى التي كادت تودي بحياتى أكثر من مرة.



لم أع كثيرًا مما تحدث به رفعت أمام والدي حتى أستفيق على أبي يحدثني بصوت مرتفع، يبدو أنه حدثني مرة ولما لم أجبه رفع صوته يسألني عن رأييّ.. تأملتهم جميعًا كثيرًا، عم الصمت، وعلت وجوههم لحظات ترقب، خاصة أمي التي كانت ملامحها تتأرجح بين رغبتها في ستر ابنتها وتخفيف عبء ثقيل عن كاهل أسرة تحارب جيوش حياة قاسية، وبين إشمئزازها من العريس « قرد حديقة الحيوان ».

كان من الصعب عليّ اتخاذ قرار مصيرى مثل هذا مباشرة، لكن هكذا تبرم الصفقات. طلبتُ من والدي أن يسمح لى بالتحدث إلى رفعت، كي أتعرف عليه أكثر. يوافقني والدي حتى إنه يترك الحجرة، هو وأمي، ويخرجان.. يثقان بي.

ألحظ أمي وهي تجذب خلفها باب الحجرة لتغلقه، جذبته بشكل يوحى بأنها تود إغلاقه، لكنها لم تجذبه بالقوة الكافية، أرادت أن تتركه مواربًا، تترك لنفسها فرصة الإنصات.

ماذا يا أمي؟! ماذا يا مَن تتألمين على نيران العوز؟ هل لدينا رفاهية الاختيار؟! هل نملك أدني قدرة على إعلاء صالح قلوبنا.. لا يا أمي..

قلوبنا لم تخلق إلا للعذاب..

لم تخلق للاختيار يا أمي.. وإنما خُلقت لقبول ما تفرضه علينا قلوب السادة، قلوب مَن يمتلكون القدرة على تسيير الدفة إلى حيث يرغبون، لكننا، نحن وأمثالنا، نقف مكتوفي الأيدي هناك.. أتعلمين أين؟ هناك في مؤخرة الركب.. في مكان سحيق.. لا علاقة لنا على

الإطـلاق بالمقدمـة وسـاداتها، نسـير وفقًا لهواهـم، لرغباتهـم، نحقق لهم.. أطماعهم.. نجاحهم.. سـعادتهم.. فقط علينا أن نظهر الاقتناع.. وأن يكون مغلفًا بابتسـامات الرضا، حتى يأتي علينا اليوم الذي نصدق فيه أنفسنا، نصدق كذبتنا يا أمي ونبتسم وكأننا أصبنا السعادة بالفعل.

يسـود الصمـت بيننـا لحظـات، لم أنظـر إلى أنفـه الأفطـس أو فمه العريض، كما أنني لم أولي إهتمامًا بثقل لسانه، فقد سمعته من قبل. ما رجوتـه الأن هو التعرف على جوانب شـخصيته من خلال حديثه الذي استرسل فيه بعد خروج والديَّ.

علت وجهي إبتسامة خفيفة، يفهم منها رفعت أنها قبول لما يتحدث بـه، فقـد بـدأ الاسـتعراض، يتنقل فـي خفة مـن موضوع لآخـر، وكأنه يتناول أطراف أغصان الأشجار لينتقل بينها مسرعًا كقرد، محاولًا بقدر الإمـكان أن يكـون خفيف الظل ليبعد الانتباه عـن عيوبه الظاهرة، حتى إنه يسـلك في سـبيل ذلك الغـوص في أموره الخاصة جـدا. ولكن هل تُثمر شجرة الحنظل زهرة الياسمين..؟!

حقيقة الابتسـامة التي علت وجهي منذ لحظات أنني كشفتُ نفسى، أمسكت بها وهي تبرر لنفسها أنها تسأله وتتعرف عليه كي تتخذ قرارها بالموافقـة او بالرفض، ابتسـمت لسـذاجة تلـك النفس.. يا نفسـى لقد قبلـتِ الوضع كامـلًا ولا داعى للتجمل، لا داعـى للتأنق، لقد أتى وهو يعلم جيدًا بأنه لن يعود خالى الأيدي، سوف يحظى بصيده، وأنا صيده وقد وافقته على الذهاب معه..



لكن ليس قبل أن أعقد الصفقة.

هناك سبب آخر لابتسامتي وخشيتُ أن أفصح عنه حتى لنفسي كي لا أنطلق في ضحكة لا نهاية لها، خشيت أن أفصح وقتها، لكني أقوله الأن بلا خجل.. لقد ابتسمت وأنا أتخيله يقفز بين أغصان الأشجار بخفة ومهارة بينما مؤخرته عارية تمامًا وبين الفينة وأختها يمد يده ليهرشها، ويا ليتني أفصحت عما شعرتُ به وضحكت وسخرت ورفضت الارتباط به.

إنه حقا صياد ماهر، علم نقطة ضعف فريسته « الوظيفة الحكومية » لذا بدأ يساوم بشكل خفي، كان يمسها من بعيد وبشكل رقيق مغلف. ينتهي من استعراضه، يترك الأشجار ويهبط إلى الأرض ليقف أمامي، لم يكن يلهث، ينظر نحوي منتظرًا كلماتي، أعود إلى الغرفة التي تحتوينا، تركت أفكاري وشرودي وأقنعتُ نفسي بالقدر اليسير الذي يتميز به رفعت وهو المال، يبقى أمامي جانب واحد يجب أن نتحدث فيه بشكل مباشر، تنهدتُ وأنا أضم يدي على صدري، قائلة:

- لن أستطيع الزواج قبل التعيين.. لكن.. لابد أن تعلم.. أو يعلم والدك أننا.. أننا لا نملك العمولة المطلوبة للوظيفة.

أنهيتُ جملتي الثقيلة على قلبي، بينما أضغط بيدي على صدري وكأني أعتصره، وأنا أتابعه بعينيَّ لعلي أستشف رأيه قبل أن يتفوه به، يضحك بثقة، وأيضًا يقف ليتجول في الحجرة لحظات قبل أن يقول :

- الوظيفة موجودة.. ومجانا.. أقصد هدية زواجنا يا سوسن.

- قبل الزواج.. أتسلم العمل قبل الزواج يا رفعت.

قلت ذلك بشدة وبسرعة ملحوظة، تأملني لحظات قبل أن يهز رأسه من أعلى إلى أسفل علامة الموافقة.

***

«ما بالنا لو كان المفقود «إنسانًا حيًا»..»



(11)

المقايضة

تتفق الطبيعة مع الحدث، فإن كان الحدث سعيدًا كانت الأجواء كلها سعادة.. مملوءة بروائح الزهر وزقزقات العصافير، وتعلن الطبيعة عن استياءها.. بل وغضبها إن كان الحدث غير منطقي.

وافقتُ على الزواج برفعت بدون أن يظهر أى أثر للسعادة عليَّ أو على أفراد أسرتى أو على شيء من حولنا، وكأن الأفراح تتجاذب فيتزايد الفرح، وبما أن موافقتى على الزواج بهذا الشخص لم يكن بها أى فرح، فلم تجتذب شيئًا، لذا بقيت وحيده، وكأنه لم يكن حدث زواج سوسن الجميلة برجل ثرى.

في داخلي يهتز ذلك الشيء وكأنه يسألني: هل تمت عملية المقايضة؟! لا أمتلك إجابة.

كبحتُ داخلى، ثم تغلبتُ عليه، أقنعتُ نفسى بأن الأمر لا يعدو أن يكون ترتيبًا من القدر لا يد لنا فيه.. تعجبت.. بل اندهشت من فكرة أن

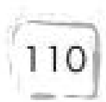
يكـون رفعت هو حامل مفتاح قلبي؟! أن يكون هو الشـق الآخر لى في حياتى!!

يا له من قدر.. لكن الأيام قادرة على خلق ما لا أتخيله..

هـدأتُ قليـلًا، وأنا أفكر في زملاء الدراسـة، تزوج منهـم مَن تزوج وينتظـر مَـن ينتظر، حتـى توقفتُ أمام صورة حسـين وعـزة.. الخونة.. أحسـبهم تزوجـوا الأن، انقطعـت بيننـا الاتصالات منذ زمـن، الصدفة وحدهـا تلعـب دورها في نقـل الأخبار بيننـا، ليتني أقابل أحـد الزملاء ليخبرني كيف هما الأن.. كيف حسـين؟ أيشعر معها بالسعادة التي كان يحلـم بهـا معى؟! أعتقد أنـه لا ينعم بذلـك ولن ينعـم.. ليتهم يعلمون بزواجـى برجـل ثـرى وأني سـوف أحصـل علـى الوظيفة التـي طالما حلمت بها.

تمت المراسـم الأولى لإعلان الخطبة، يتزامـن معها تقديم أوراقى لوظيفة اخصائية إجتماعية بمستشـفي حكومى جديد، أنشـئ كنوع من المزج بين المستشـفي الحكومى والمستشفي الاستثماري وهو نموذج لتجربـة جديدة قررت الدولة الخـوض فيها وتعميمها إن ثبت نجاحها، لذا كانت المستشفي تابعة للوزارة مباشرة وبذا كانت الامتيازات المالية فيها أكثر، وبذلك تعد الوظيفة بها فرصة عظيمة.

فـي لحظـة.. بذلـت فيهـا مجهود كبيـر كـى أجعلها لحظـة صفاء.. أخبـرتُ رفعـت بما كان يسـتقر في يقينـي ويؤرقني باسـتمرار، ما كنتُ أنتوى أن أتحدث به إلى حسين يوم اللقاء الأخير، تحدثتُ بأنني سوف



أقتص من مرتبي جزء لوالديّ كنوع من المساعدة في تربية أخوتى الصغار، يبتسم بهدوء موافقًا ومؤكدا بأنني يمكنني أن أقدم راتبي كله لوالدي، الحقيقة أن موقفه كان كريمًا في هذه الجزئية لكني رأيته عطف وشفقة منه، رأيته تعاليًا كريهًا يؤكد فيه على فقرنا وحاجتنا إلى المال الذي هو سبب حصولي عليه. تألمتُ بشدة وكدتُ أفصح عما بداخلى وأنهره بشدة لكني تماسكت.

كنتُ كما المسحورة، لا شيء يشغل تفكيرى غير عملى الجديد، هل الأمر حقيقى أم هي خدعة يحيكها بمهارة وإتقان حتى يحقق ما يريد؟!

يشعر بترددي ويدرك حرصى الشديد في التأكد من تعييني أولًا قبل الارتباط به، ينطلق معى انطلاق الواثق المقتدر.. وهذا ما كان يؤلمني جدًا.. من أين لك بتلك الثقة يا رفعت؟

أيعطى المال قوة تصل إلى درجة الثقة تلك؟!

أذهب بصحبته، في سيارته الخاصة، إلى مكاتب المسئولين عن قبول أوراق تعييني، يقابلونه بابتسامة وترحيب، يذكرون والده وأفضاله عليهم بسعادة لا توصف، يبدو أنهم يتشاركون في أمور كثيرة، بعد ذلك بكثير أدرك أنهم كانوا يتشاركون مائدة طعام واحدة، ينهل كل منهم ما يريد ووقتما يشاء.

أى مائدة تلك التي تحمل كل صنوف الطعام حتى التخمة..؟!



أحصل على صورة من كل ورقة أتقدم بها في ملف خاص بي، أحصل على الأوراق الممهورة بتوقيعات وأختام رسمية، تحتويني رغبة في بروزتها ووضعها في إطار لأعلقها أمام الجميع، لكني أحجمت ولم أتحدث بأى شيء إلى أن أتى اليوم الذي أخبر فيه الجميع بأنني سوف أتسلم وظيفتى غدًا.

ليلة لم تمر بسهولة، خاصة وأنا ألملم الفرحة من على وجوه أفراد أسرتى، أجلس بينهم وهم يتناولون قطع الجاتوه التي حملها «رفعت» معنا ونحن في طريق عودتنا، وقدمها لأمى على سبيل الهدية بانتهاء إجراءات التعيين. أخوتى يلتهمون قطع الجاتوه بالكريمة والشيكولاته بسعادة، أمى ما تذوقتها مثلى، وكأنها لا تود أن تتذوق أى مقابل لى، لكنها ألحت على والدي كى يتناول قطعتها بدلًا منها، وأعدت له كوب شاى إضافي ليتناوله مع قطعتها. لم يكن والدي أقل منها شرودًا، لكنه شرود المجبر. خرجتُ من أفكارى وعشت فرحتى بالوظيفة بشكل كامل، ولن أنسى تفاصيل فرحتى حتى تنقلب كل الموازين وتتغير حياتى.

تنتقل سعادتى، كعدوى، إلى أمى وأخوتى وإلى أبي أيضًا، سهرنا نتسامر، استعرضتُ ملابسى التي سوف أرتديها غدًا، أرتديها كاملة في غرفتى وأخرج عليهم بها، يتأملوني لحظات، يوافق أخوتى مباشرة، بينما تقترح أمى بلوزة أخرى ويناقشها أبي في تناسق الألوان، وترفض أمى في إصرار وتعلوها الابتسامة، بينما يؤكد أبي على أن اقتراحه هو



الأفضل، ينتهيان إلى أن أرتدي ما يقترحه والدي، ثم أرتدي ما اقترحته أمي، والملابس التي تحصل على نسبة تصويت أعلى.. تكون هي ما سأرتديه في الغد.

أرتدي هذا مرة وذاك ثانية وأخلط بين هذا وذاك ثالثة، حتى انتهينا إلى طقم يغلب فيه اللون الزهري على باقي الألوان، وحذاء أسود لامع كان رفعت قد اشتراه لي مؤخرًا.

***



«حتى نسمات الهواء قد تخلق بداخلنا سعادة ما»



(12)

الميلاد

في الصباح ارتديتُ ما اتفقنا عليه وخرجتُ باكرًا، تنسمتُ للمرة الأولى نسمات الصباح الرقيقة النقية المشبعة بصفاء ليل طويل، شاهدتُ أسراب الطيور تخرج من أعشاشها لتبدأ يومًا جديدًا، أثر لذة لقيمات الفطور التي أصرت أمي على تناولها لا تزال في فمي، قطعة جبن أبيض مع نصف رغيف بلدي وبعض شرائح الطماطم مع قطعة خيار مخلل، فطور مكرر لكنه اليوم له مذاق آخر، لذيذ، حتى الماء الذي شربته بعدها كان غير ماء كل يوم.

على الوجوه في الشارع ألفيتُ ابتسامات يمزقها التثاؤب، كنتُ يقظة تمامًا، ألاحظ الكون من حولي بسعادة لا توصف، نشوتي خلقت بداخلي نشاطًا لم أعهده فيَّ من قبل، لدرجة تناسيت معها رفعت والزواج وحسين وعزه وكل شيء من المنغصات التي كانت تؤلمني باستمرار.



أمـام مقر عملـي الجديد وصلـتُ قبل أغلبيـة العاملين فيـه، وقفتُ فـي الشـارع أمام المبني أتأمله كلية قبل أن أدلـف إلى داخله، تمنيتُ لو أضع كل تفاصيله في داخلي حتى أتذكرها وأنا بعيدة عنه بعد انتهاء يوم العمل.

لا أعلـم لماذا راودتني الآن فكرة حال مَن يعمل في أي وظيفة.. لِمَ لا يسـعد فـي عمله هذا؟! كيف لا يدرك قيمة مـا هو فيه من نعيم يفتقده الملايين.. ممن كنت منهم حتى الأمس.

دلفتُ بهدوء، أود أن تسـجل ذاكرتي تلك اللحظات.. الخطوات.. قدمـاي تمـس أديـم الأرض.. ذرات الحصى تتلقفني لتسـجل أثري.. الأنفاس التي أتنفسـها، نظراتي تلتصق بالجدران.. بالأشـجار والزهور في كل مكان، الممشى المسفل بين أحواض الزرع ببلاطات سوداء من أحجـار بازلتية، أنحرف معها يسـارًا حتى الباب الداخلي للمستشـفي، باب زجاجي ضخم، أدفعه بهدوء فلا يستجيب، ماكينة التحكم في غلقه كانت قوية، دفعته بشـده حتى فُتـح وظللتُ أقاومه حتى دلفت ثم تركته فانغلق بهدوء، تقابلني رائحة نفادة تلك التي تتميز بها المستشفيات وإن كان يغلب عليها رائحة المطهرات، برودة التكييف المركزي تنتشـر في الأرجـاء تعطي للمكان ميزة خاصة، تلك التفاصيل تُنقش بداخلي الآن وسوف تذكرني بيومي الأول هذا على امتداد سنوات عملي هنا.

ألقيتُ التحية على الجميع، أبدأ كلماتي بشـكل هادئ قائلة جملتي ثم أرفق بها: حضرتك. أحاول أن أكون متزنة قدر الإمكان. أتعرف على الزمـلاء وأحدثهم بمدي سـعادتي بعملي معهم. سـاعدني في التقرب



منهم ما أتمتع به من قبول من ناحية، ومحاولة كل فريق منهم استقطابي نحوه من ناحية أخرى، وهذه الجزئية الأخيرة لم أدركها إلا بعد فترة من الزمن، حينما علمت بوجود تلك الفرق داخل مكان عملي، كل فريق له مصالحه الخاصة.

لما كان المستشفي قد أنشئ حديثًا فقد خُصصت لي حجرة منفصلة في الطابق الثاني، الغرفة واسعة، تصل مساحتها نصف مساحة منزلنا، لحجرة مكتبي واجهة عريضة زجاجية تطل على حديقة المستشفي، ترتفع بعض أشجار الحديقة حتى منتصف النافذة، ألوان الطلاء بين الأبيض والسيمون والأخضر الداكن في بعض الأركان والزوايا.

وجدت بالحجرة مكتبًا ضخمًا من الخشب مطليًا باللون الأسود المطعم بزخارف ذهبية، وخلفه كرسي من النوع الدوار، أما عن أمامه فقد وضع اثنان من المقاعد المبطنة بالإسفنج والجلد الأسود وبينهما منضدة صغيرة على شكل دائرة عليها لوح من الزجاج السميك، أما عن بقية الحجرة فقد كان خاليًا. في الأيام التالية سوف أشترى سجادة لتغطية بلاط أرض الحجرة.

مَضَّيُت الأيام الأولى في الاهتمام بمكتبي والتعرف على الزملاء وطبيعة العمل. علقتُ صورة زيتية، حصلتُ عليها مؤخرًا من أحد أقاربي، في مكان خلف مقعدي وهي لشجرة ضخمة من التوت على ضفة النهر، تحت الشجرة وفي الأرض المنبسطة نشاهد فلاحًا يعمل بنشاط، في النهر قارب به صياد يلقى بشبكة الصيد بينما تمسك زوجته بالمجدافين، أعلى الشجرة عش به فراخ صغيرة استطالت أعناقها في

الهـواء وفتحـت أفواهها فـي محاولة لمقابلـة عصفور يهبـط ومن فمه تتدلى أطراف جزء من طعام.

عندما شاهدتُ اللوحة الزيتية للمرة الأولى وشجرة التوت بالذات، شـعرتُ بانقباض في أحشـائي لا أدري سـببه، بعد طول بحث فشـلتُ فـي التعرف علـى العلاقة بين الانقبـاض بداخلى وبين شـجرة التوت، أرجعـتُ ذلك فـي النهايـة إلى أحـد الأسـرار الجمالية الموجـودة في اللوحة، يظل هذا الانقباض يلازمني فترة طويلة كلما شـاهدت شـجرة التوت حتى ألفتها، أو لنقل حتى نسـيتها. الأشـياء التي يشـاهدها المرء باستمرار يقل إحساسه بها حتى ينعدم.

تـم تحديد موعد الزفاف، بينمـا كان كل إهتمامي في تلك الفترة هو التفانـي في العمل لاثبات كفائتى منذ البدايـة، إنه المكان الوحيد الذي سوف يتيح لى فرصة إثبات الذات، وهذا هو الشئ الذي يسعدني كثيرًا.

لـم أتقدم بطلب أجازه الزواج إلا قبل الموعد بثلاثة أيام فقط، حيث تسـتغرق إجـراءات الموافقة عليها يومًا وأنفذ مـن اليوم التالى، وبذلك أنقطـع عـن العمل في اليوم السـابق للزواج، أقنعتُ الجميع بأن سـبب ذلك كى تكون الإجازة بعد الزواج لا قبله.

لا أدرى لمـاذا كنـت أبحـث بيـن رواد المستشـفي، وبالتحديد مَن أتعامل معهم بشـكل مباشـر، عن سـعاد زميلـة الدراسـة أو.. أو عزة.. أبحـث عـن حسـين على وجه الدقـة، تمنيتُ لـو أشـاهد ردة فعلة وهو يرانـي أجلس خلـف مكتبي وأتحكم فـي أمور لـم أكن أحلـم بها يومًا، وأحصل على راتب جيد بالنسـبة لشـاب حديث التعيين، ردة فعله وهو



يراني أستعد للزواج بعد ساعات قليلة، ليته يحضر حفل الزفاف الفخم الذي يُعد له رفعت منذ فترة، ويشـاهد عِلية القوم وهـم يحضرون زفافي ويباركون في سعادة، ليته يأتي هو وعزة ليشاهدا شقتي الجديدة التي تم تجهيزهـا بأفخم الأثـاث.. ليتني أخبرهم جميعًا بأنني سـعيدة بدونهم. لقد حالفني الحظ أخيرًا بعد طول عذاب.

لقد اسـتطعتُ بما أتميز به من لباقة، إقناع أسرة رفعت بي منذ اللقاء الأول، فعلـتُ ذلك بشـيء مـن الهدوء الممـزوج بالذكاء، أتسـلل إلى مشـاعرهم، أطرق أبواب غرفهم المغلقة، أطرقها بحنين وشـوق، تُفتح الأبواب أمامي بلا عناء، أجذبهم نحوي بأوتار رقيقة، في فترات وجيزة.

لكـن رغم كل ما أفعله أنا وأسـرتي، أو يفعله رفعت وأسـرته، كنتُ أشعر بشـيء ناقص، الصورة غير مكتملة، نفتقد جميعًا السعادة رغم أننا نبـذل جهـدًا كبيرًا كي نؤكـد، على الأقل لأنفسـنا، أنها موجـودة، لكن الحقيقـة هي لم تكن موجودة البتة، فهناك دلائل مبشـرة أو منفرة لكثير مـن الأمـور في حياتنـا، تلك الدلائل تسـبق الحدث كمؤشـر لنا، لكننا نتجاهل تلك الدلائل ونعمد إهمالها، هي مؤشـرات لنجاح أو لفشـل، لكن رغبتنا في الاحتواء تقف حائلًا بيننا وبينها فلا نراها على حقيقتها. لـم أدرك ذلك في حينها،فلم تكن هناك تلك السـعادة المنتظرة مع مثل هذا الحدث.

أكثـر مـا كان يؤثر فيّ، في تلك الأيام الأخيـرة قبل زواجي، هو ترك منزل والدي الذي عشـت فيه سني عمري الجميل، تمر أمامي ذكرياتي الجميلـة فـي لحظـات، أنظـر نحـو كل جزء فيـه، أتذكـر موقفًـا يرتبط

بالمكان، أبتسم، أملأ صدري بعطر المكان، تتوقف عيناى على أمى التي تُظهر سعادة أعلم أنها ظاهرية، داخلها مكشوف أمامى بحزنه، الابتعاد عن أمى على وجه الخصوص آلمني كثيرًا، فأنا أحبها بشدة.

شعرتُ بصداع في هذا اليوم ولكني نسيته بمجرد أن تعاطيت عقارا مسكنا وأعقبته بكوب من الشاى الثقيل، هكذا يفعل والدي وينتهي الصداع رغم أنهم سوف يمنعوني من الشاى في المستقبل لأنه سوف يكون سببًا مباشرًا في الصداع.

***

«إنه العشق الذي يحمل راقصة الباليه
لا أصابع قدميها»



(13)

طقس الموت

يُقـام حفل الزواج بتفاصيله المعروفة بين الأغلبية، لكن بالنسـبة لي ولأسرتي كان فيه الكثير مما لم نكن نتخيل أن يتم في حفل زفافي، فقد أصر رفعت ووالده على إقامة الحفل في قاعة كبيرة فاخرة تتناسـب مع معارفهم من عِلية القوم كما قالوا بشئ من الفخر.

فـي الحفل أتابع نظـرات عائلة رفعت نحو أفراد عائلتي على قلتهم، فقد اسـتطاع والدي بإحساسـة أن يتوقع مثل هذه النظرات فآثر أن يقلل مـن عـدد مَـن يدعوهـم، أبرزهم أقـارب الدرجـة الأولـى، كان يحمل دعوته لهم بكلمات سـاخرة، توحي لهم بأهمية أن يرتدوا ثيابًا تتناسـب مـع الحفل الفاخـر في المدينـة، وأن تكـون تلك الثياب على مسـتوى مـا سـيرتديه أقـارب رفعت، أمـا عن جوهرهـم فلا وقت فـي مثل هذه الحفلات لإظهار ما تخفيه قلوبهم.

شـعرتُ بنظـرات عائلة رفعـت تحمل قدرًا من السـخرية، شـعرتُ بذلـك وإن لم يكن هناك مبرر فعلي لمثل شـعوري هـذا، فمن الطبيعي

أن ينظر الأشـخاص نحو بعضهم البعض، خاصة نحو مَن لا يعرفونهم ولـم يقابلوهم من قبل.

بـدأ داخلـي يرتبـك قليلًا، حتـى إن السـعادة المنتظرة فـي مثل هذا الموقـف لـم تجـد طريقًا كي تتسـلل إلـى داخلي، بل تسرسـبت بعض لحظات الاسـتقرار التـي كانت قد ترسـخت بعد الوظيفة والأسـتقرار المهني واطمئنان والديَّ عليَّ، ذلك الاطمئنان المتولد من شعور الأباء بانتقال عبء الابنة من فوق كاهلهم إلى كاهل زوجها.

تركـتُ يدي ليحتويها رفعت لحظات قبـل أن يبدأ في وضع ذهبياته في أصابعي، ويدي، ثم يطوق بها عنقي.

بذلـتُ جهدًا كبيرًا كي أتحكم في مشـاعري المختلطة والمتضاربة، وأنا أتابع كل ما يحدث وكأني أجلس بعيدًا لأشـاهد أحد المشـاهد في فيلـم قديم، لا أدري لماذا كنتُ أنتظر الفاصل الإعلاني بفارغ صبر. لم أكن أعلم أنه سوف يتأخر كل هذا الوقت.

المسـرح الممتـد أمامـي أنـا ورفعـت لـم يخـلُ للحظة واحـدة من المغنيـن أو الراقصـات، فعلامـة الرفاهيـة عند أسـرة مثل أسـرة رفعت كانت في مغنيين وراقصات الحفل، حتى في الاستراحات القليلة كانت الفتيات، أقارب رفعت، تتباري في الرقص بأجسـادهن اللدنة والألوان الصارخة على وجوههن والحبيبات اللامعة تتخلل شعورهن، يمتلكن قـدرة رهيبـة علـى الرقـص، وكثيـرات يمتلكـن تلـك القـدرة، لكنهن زدن عـن الكثيـرات بالجـرأة، فقـد تفوقـت بعضهـن علـى الراقصات المحترفـات المؤجـرات، خاصة تلك الفتاة التـي كانت ترتدي بنطلون



من جينز الليكرا مع بلوزة تبرز ثنايا جسـدها وتغطى شـعرها بإيشـارب إسـبانش، الحقيقة كانت تمتلك قـدرات رهيبة لدرجة أنها كانت تحرك كل جـزء من جسـدها على حده في اتجاه غيـر الجزء الأخر، تحرك كل الأجزاء مع بعضها البعض، صدرها تؤرجحه يمنة ويسـرة، كتفيها أماما وخلفًـا، بطنهـا تجعل منها موجـات كموج البحر من اعلى إلى أسـفل، بينما شـقى مؤخرتها البارزتين عبر الليكرا الضيق يتنافسان رقصًا ما بين اليمين واليسار والأعلى والأسفل، وذراعيها يمتدان كأجنحة اليمام في تراقـص مَوجىّ سـلس، كل هذا وابتسـامتها لم تفارقها، كانت ابتسـامة سـعادة حقيقيـة، وحقًا كانت ابتسـامتها جميلة، لقد أذهلتنـي بقدراتها، فتاة جميلة ما تزال تحمل براءة غير عادية على ملامح وجهها الطفولى، علمـت أنها إحدي صديقات إبنة عم رفعت وهي في السـنة الأولى من دراستها الجامعية.

هـذه وغيرها من ضيوف الحفل شـغلوا تفكيرى عما سـيحدث بعد قليل بيني وبين رفعت، وكأن عقلى كان يبحث عما يشغله.

لـن أفيض في وصف مشـاعرى وأحاسيسـى خـلال حفل زواجى، أترك لكم تخيلها وانتم تعرفون حالتي في تلك اللحظات.

كان والـدي ينتحى جانبًا بجـوار أمى وأختى، قدم لهم والد رفعت بعـض الحلويات والمشـروبات كأنهم ضيوف، لا أعلم لمـاذا انتابتني غصة حقيقية في تلك اللحظات، رغم أنه موقف عادي، لقد شعر الرجل بخجل والديّ فتقدم إليهم.. لكن حنقى زاد ونظرتُ ناحية رفعت بغيظ، في البداية لم يهتم بنظراتى ولكنه بعد لحظات مال ناحيتى وابتسامته لم

تفارق وجهه وهو يسـألني عما يزعجني، بعد فترة صمت أشـحت فيها بوجهـي بعيدًا، ضغط بهـدوء على يدي طلبًا للإجابـة، الحقيقة أنني لم أجد بداخلي الجرأة كي أخبره بما أشعر به حيال تصرف والده، ثم إنني لـم أكن أمتلك من الحجة ما يؤكد على سـوء نيـة الرجل، وأخيرًا أجبته بأنه لا شيء، هو الإجهاد فقط.

ألمـح في عينـيَّ أمي، لحظـة أن صعدت على المسـرح كي تقبلني، دمعات متحجرة، يفسـرها الجميع على أنها دموع الفرحة، لكني رأيتها دموع مُرة على حالي وما أنا مقدمة عليه، دموع تمنعها أمي الآن، ولكنها لن تستطيع أن تمنع أنهار دموعها عليَّ مستقبلًا.

قبـل ختـام الحفل ووفقًـا للطقوس المعتـادة للفرقة والمـكان، كان يتوجب عليّ أنا ورفعت أن نرقص معًا على لحن هادئ وأضواء خفيفة جدًا، بينما يتابعنا كل ضيوف الحفل، ملتُ على أذن رفعت أخبره بأنني لن أستطيع الرقص، بسبب هذا الفستان الكبير ولسبب آخر.. أخبرته به على استحياء، إنني لا أجيد.. بل.. لا أعرف الرقص مطلقًا، ينظر نحوي بدهشـة ثم يدور بعينيه على الكثير من الفتيات اللائي رقصن على مدار السـاعات الماضية، وكأنه يسـألني بدهشـة كيف ذلك.. ألم تشـاهدين الفتيـات؟! ثم يقـف ويجذبني بهـدوء بنفس الابتسـامة المطبوعة على وجهـه، ثم يميل على أذني طالبًـا أن أكون لينة معه وأن أجاريه، فما هي إلا لحظـات وينتهـي الطقس، أخشـى أن أفقـد وعي أو حياتـي قبل أن ينتهي هذا الطقس.. إنه ليس طقس سعادة بل هو رقصة موت.



كـدتُ أتعثر في فسـتاني وكأنني مسـوقة إلى عقاب فـي ميدان عام، كل هـذه العيون تخترقني منتظرة اللحظة التي أسـقط فيها، وصلنا حتى منتصف القاعة، رفع رفعت يدي لأضعها على كتفه بينما أحاط خصرى بذراع الآخر.

لا أعـرف كيف مـرت اللحظـات.. لا أعرف ماذا فعلـت بالضبط.. لكنها مرت.. لقد غبت عن المكان تمامًا.. هل أخبركم أين ذهبت؟

تذكرت حوارى مع حسـين أيام الدراسـة.. يعرض مشـاعره ويضع قلبـه بيـن يدي.. تذكـرت كل كلمـة تحدث بهـا وكل كلمـة أجبته بها، تذكرت لحظة أن أعطاني قطعة الشـيكولاته، حتى وهي تسـيل من يدي بعد أن ذابت من حرارتى وشـدة ضغطى عليها.. تذكرت كل ذلك حتى أفقت على انتهاء المقطوعة الموسيقية وتصفيق الحضور.





«وإن نزعت عني ملابسي فلن تشاهدني عارية،
روحي ما تزال بعيدة»



(14)

العارية

انتقل إلى حياة جديدة، نترك الجميع خلفنا ونتوجه إلى شقتنا الجديدة، منزلي وحلم حياة أى فتاة، أصعد الدرجات الواحدة تلو الأخرى، أقدم قدمًا وأجر الأخرى.

أين السعادة والنشوة والاضطراب؟! أقنعتُ نفسي بأمر واحد عليّ القيام به في الفترة الحالية: الراحة والهدوء. خلعتُ روحي من جسدي، تركت لهم الجسد وتعاملتُ مع كل التفاصيل الجديدة من مقعدي بين جمهور المشاهدين.

بعد لحظات.. ليست دقائق.. يُغلق رفعت باب الحجرة علينا، يبدأ مباشرة بخلع ثيابه وابتسامته لا تفارقه، كانه يمارس طقسًا يوميًا، ينظر نحوي يحثني فيها على أن أفعل مثله، لكني غير قادرة على تحريك جسدي، إنه لا يعلم أنني لست هنا، أنا هناك في ركن ما.. في زاوية ما.. أشاهد فقط.. يقذف إلى فمه كميات من الطعام الموجود على المائدة بنهم، يمد يده بقطعة لحم نحوي، أرد يده من بعيد، لا يكرر عرضها

علـيّ.. لا يتقـدم بها نحوى ويصر على تناولها، إنمـا عادت يده بها إلى فمـه ليلتهمها مباشـرة، يتجرع من العصائر الكثير.. بينما يتشـقق حلقى عطشًا، لكني لـم أجد بداخلى رغبة لتناول أى شيء.. على الأقل الأن.. حتى تمر تلك الدقائق الأولى التي تحمل إلى ما أجهله.

يطـول صمتـى، يقتـرب، يتعامل مـع ملابسـى قطعة تلـو الأخرى، أشاهدني عارية تمامًا، يجف حلقى فأعجز عن الكلام، يتصبب عرقى، صراعات رهيبة تعتمل في داخلى، لـم أتخيل أن أكون هكذا أمام أحدهم يومًا ما، عارية تمامًا.. هكذا.. وفي لحظات..؟!!

مـن دقائـق قليلة كنت بين الكثيـر، بين أبي وأمـى، الأن.. أنا وحيدة تمامًا.. عارية تمامًا.. أمام شـخص واحد في الكون.. يخترقني بنظراته الجائعـة..!!.. يـا إلهـي.. أعندما يحدث لـى ذلك وللمـرة الأولى في حياتى، يحدث أمام رفعت؟!

لا.. لا.. لـن أتحدث عن تلك اللحظات.. فمهما امتلكت من قدرة على الوصف وسـرد مشـاعرى الحقيقيـة، لن أفلح فـي تصوير داخلى كمـا هـو.. لقد تحولـت إلى كتلة مـن اللهب والثلج معًـا، لهب متأجج كاره لكل شـيء وليس لهب عاطفة، وكتلة ثلجية لا تمتلك أى مشـاعر أو أحاسـيس وإلا كنتُ صاحبة ردود أفعال أخرى قد تبلغ حد قتل هذا الشخص الذي يقتحمني.

يمـر بيده على مناطق متفرقة في جسـدي، صدرى.. ثم.. ثم أماكني الحساسـة، في تلك اللحظة دُهشتُ جدًا، يبدو أنني فقدتُ الإحساس، كتلة الثلج انتصرت، جمدت مشـاعرى، قلبي، عقلى، لسـتُ أنا بطبيعة



الحال.. لستُ موجودة في المكان.. نسيتُ جوعى وعطشى، نسيتُ إرهاقى وضعفي.. لم أفر منه، تركتُ له الجسد.. يبتسم في سعادة وكأنة حقق أولى خطوات الانتصار، لا يعلم أنني غادرتُ المكان من فترة، لذا لم تغمرني نيران اللذة، فقط أتأمل، يضع يديه على كتفيَّ وبهدوء يدفعني إلى الخلف، أنام على ظهرى، يعتلني......

يمر أسبوع.. يلتهمني فيه رفعت ثلاث أو أربع مرات يوميا، تقريبًا مع كل وجبة طعام يتناولها، وهو شخص أكول.أحسب أن رفعت، كما أراه، لا يستطيع أن يقدم شيئًا يُسعدني به.

بعد تلك الأيام، وكنت في المطبخ أعد الشاى لرفعت بعد طعام الغذاء الذي تناوله بعدما تناولني، كنت أرتدي الروب الحرير الأحمر فوق قميص أبيض قصير أعلى الركبة، شعرى مدلى على كتفي في استرسال طبيعى، شعرى من الأصل طويل ناعم، أسود فاحم، شعيراته سميكة يصعب تشعثها، سوف أعد له الشاى ثم أدخل إلى الحمام.. ملاذى الذي أغسل فيه كل شيء. بينما انتظر غليان الماء كان داخلى يغلى، فما أفكر فيه غير طبيعى، يجب أن أتقبل رفعت.. إنه زوجى.. حياتى تغيرت تمامًا وأصبحت سيدة متزوجة.. لها زوج.. ومنزل.. وعمل.. وعن قريب سوف ترزق بالأولاد.. حياة كاملة يجب أن أستعد لها وأتقبل كل تفاصيلها.. ما أفعله الأن مع رفعت هو أنني اترك له جسدي وكأني أنتظر أن ينتهي.. أن تمر تلك الأيام وأعود إلى حياتى.. أى حياة يا سوسن التي تعودين إليها؟ سألت نفسى ذلك السؤال.. أجبت.. حياتك الماضية انتهت تمامًا.. لك~ الأن حياة جديدة.. لا

تمتلكيــن رفاهيــة الاختيار بين عــدة حيوات، أنــتِ الأن زوجة رفعت.. هذا هو التفكير الصواب.. لا يوجد أمامك غير التقبل والاندماج.

وكي أقر عينا، أقنعتُ نفسي بأن الكثيرات يرين أزواجهن كذلك في الأيام الأولى للزواج، ارتحتُ لهذا التفســير، تتوارى ريبتي في وضعي، فالأيـام قادرة على محو ذكرى البداية السـيئة هذه، فـالأرض لن تتذكر يوما أنها زُرعت الخشاش بدلًا من زهرة البنفسج، الحياة أكيد سائرة.

يغلــي الماء، يتصاعد بخــاره مع صفارة إنذار الغــلاي، ليتني أمتلك صافـرة إنــذار عندمــا يغلــي داخلي، أصــب المــاء المغلي فــي الكوب على الســكر والشــاي المغلف، ينتشــر اللون الأحمر من غلاف الشاي الرقيق، يتماوج في الماء وكأن يد رسام تمسك بريشة لتصنع منها لوحة سيريالية، حاولت أن أستشف من تداخل اللون الأحمر هذا صورة ما.. لم أفلح.. ماذا افعل؟! سألتُ نفسي.. أجبت.. أشغل نفسي بأي شيء..

حملت الشــاي وخرجت إلى الصالة، رفعت ممدًا على كنبة يشاهد فيلمًا مــن الأفلام الجديدة، الهابطة، ويضحك بســعادة، وضعت كوب الشاي وبينما ألتفت لأتوجه نحو الحمام فإذا به يمد يده ويجذبني بشدة من يدي ضاحكًا، وكأنه يداعبني، لكنني فزعت من المفاجأة فصرخت، لم أتمالك نفسي ولم أحفظ توازني فسقطت،.. أين؟

على فخذي رفعت.. لم يدع لي فرصة للتفكير.. أحاطني بذراعيه.. وانهــال يقبلنــي.. تذكرت وائل وهبة.. زملاء الدراســة.. في أنشــاص، أسفل شجرة البرتقال.. ترى.. هل كانا يشعران بما أشعر به الأن؟!.. لا أحســب ذلك أبدًا.. فقد كنت أســتغيث.. بينما كانت هبة تنتشي.. كنتُ



أبتعد برأسـي وجسـدي إلى الخلف عن رفعت، بينما كانت هبة تقترب مـن وائل.. لقد كانا يفعلان ذلك وبينهما شـيء آخر غير ذلك الموجود بيني وبين رفعت.. شـيء اسـمه الحب. الحب يخلق من نفس الأفعال مسميات أخرى، نفس الفعل بين المحبين يضفي روعة وجمالًا، يضفي حيوية وانتشـاءًا، يضفي شـفافية وسـعادة، أما نفس الفعل الذي يحدث بيننـا الأن.. لا.. إف.. ماذا يحدث؟! مـاذا يفعل رفعت وقد خرجنا من السرير من دقائق قليلة؟!

انتزعـتُ نفسـي مـن بيـن يديه وقد بذلـت جهـدًا كبير فـي ألا أُظهر امتعاضي الشـديد منه ومن أفعاله وأخفيت وجهي عنه بأن التفتُ ناحية الطرقة المؤدية للحمام وأنا أقول :

- سوف أدخل الحمام.

و قبـل أن أبتعد وجدتـه يضربني بيده على مؤخرتي، لم يقصد ضربًا بالمعنـي المعروف وإنمـا كانت مداعبة من وجهة نظـرة، لكنني تأذيتُ كثيـرًا من فعلته تلك، لا أعلم لماذا حسـبتها إهانة لى، في لحظة واحدة سـألتُ نفسـي : أى إهانة في ضربة خفيفة على مؤخرتي، بينما جسدي كله نال منه ما ناله ؟!

علـى أى حـال كنت أتأذى مـن معظم أفعالـه، ابتعدتُ خطـوة ثانية وثالثـة وأنا لا أريـده أن يرى تعبيرات وجهي لئلا يقـرأ بعض أفكارى.. فقط عقبت :

- ألم تشبع؟!!

اختفيتُ في الطرقة ومنها دلفت إلى الحمام وأغلقت بابه خلفي بسرعة ثم أرتمتُ بظهري عليه وكأني أحكم غلقه، أو أستريح من عناء شديد.. يأتيني صوته:

- لا.. ولن أشبع أبدًا..

تنهدتُ وزفرت وكدتُ أتقيأ وأنا أتخيل أن يستمر هذا الوضع مدي الحياة.

***

«تدوم لحظات السعادة ما إن تستشعرها أرواحنا»



(15)

سجينة

يتمدد الهواء حتى يلفظ كل شيء حولي، لا بدايات أو نهايات.. كل شـيء معلق.. لا مذاق لطعام ولا رائحة لزهر ولا رغبة في الإقدام على أي جديد.

بدأت أشعر بفراغ شديد، المدة التي قضيتها في العمل كانت قصيرة لكنهـا كانت كافية لأن تشـعرني بوجودي، ذلك الوجود الذي ينسـحق مع مرور الأيام وأنا حبيسـة مع رفعت في مكان واحد، لا أعلم لماذا لا يخـرج رفعت، يُنهـي معظم أعماله من خلال الاتصـالات التليفونية أو الإيميلات.

لـدي رغبـة جامحة فـي الذهاب إلـى العمـل حتى قبـل أن تنقضى الاجازة.. تماسـكت ولـم أخبر رفعت بشـأن رغبتى هذه، لا خوفًا وإنما كسلًا.. لـم أجد الرغبة في أن أجلس معه في حديث لنتسامر.

كلماتـى كانت قليله، وكانت قليلة منذ بداية تعارفنا، فاعتقد أن تلك طبيعتـى، حركتى في الشـقة كانت بيـن المطبخ الذي أقضـى فيه أطول

وقـت ممكن بحجـة إعداد الطعـام، تجهيـز العصائر، الشـاى، تنظيف الأطبـاق والأواني.. أى شـيء.. المهـم أن أنفرد بذاتـي.. أو بالأدق.. أكون بعيدة عنه.

أيضًا كنتُ أمضى أوقاتًا طويلة في الحمام، مرة بسـبب عسر الهضم والمغـص المصاحب، ومرات في الاسـتحمام، فلم أكـن أفضل البقاء بدون الاسـتحمام بعد ممارسـة الجنس، أدخل مباشرة الحمام، أغتسل وأغتسل وأغتسل من كل الأثار التي علقت بي خلال الدقائق الماضية، ثـم أخـرج أرتدي الإسـدال وأصلـى.. أصلـى الفروض.. حتـى أنتهي فأسـتمر بعدها في صلاة طويلة أدعو فيها ربـي بأن يهدأ قلبي ويجعلني أتقبل حياتى الجديدة. الحقيقة أنني لم أكن أصلى بقلب صافٍ بقدر ما كنتُ أتخذ من الصلاة سببًا للهروب منه أوقاتًا أخرى إضافية.

مـن البديهـي أن يعلم أى شـخص مهما كانت نسـبة ذكاءه منخفضة أن مـا أفعلـه في الأيـام الأولى من زواجـى يعد هروبًا، لكـن رفعت لم يلحـظ ذلـك.. صراحة.. أراحني.. سـواء لم يفهم، أم فهـم ولـم يناقش اسـتكبارًا.. أيهما كان.. فعدم حديثه معى في هـذا الأمر أراحني.. ترك لى حرية في الاستمرار.. والتمادي.

يبـدو أنـه نال مـا يبحث عنـه، الجمال الذي يسـتطيع أن يسـتمتع به ويتباهي. فقد خفت وتيرة لهفته علىَّ، لم يحاول أن يتغلغل إلى داخلي، يؤثر الابتعاد، في نفسـه شـيء من الكبرياء تجعله يأبي أن يبدأ الحديث أو يطلب المشاعـر، وذاك أمر أسعدني كما ذكرت.



الفرد يُشاهد النقص حوله بينما لا يشاهده في نفسه، يحسب أنه يخلو من العيوب، تصور له نفسه ذلك وتبرر له كل أفعاله، لكن نفس الفرد قد يغفر بعض العيوب التي يراها في الآخرين وذلك لأنه، بدون أن يشعر، يريد من الآخرين أن يغفروا له سقطاته وعيوبه وإن لم يعترف بها. هذا أمر ارتضيته من رفعت وارتضاه هو مني.

بدأ الصداع يعود مرة أخرى وبشكل مضاعف، لذا ضاعفت كمية المسكن، لم أعلم وقتها أن هذا الصداع هو البداية الحقيقية لكل المشاكل التي سوف أمر بها مستقبلًا.

في بداية مساء أحد الأيام، وكنتُ أرتدي ذلك القميص الحرير الأبيض القصير حتى أعلى الركبة، والذي يتعلق على كتفي بخيط رفيع ليترك نصف صدري عاريًا، كنت أرتدي هذا القميص لأنه رقيق، يشعرني بنعومة كلما مس جسدي، حتى إذا ما لمسني رفعت عبر هذا القميص كانت لمساته ناعمة، نوع من التلطيف والترطيب والتجميل كنت أبحث عنه، عامل مساعد لتقبل الأمر، ملعقة سكر تعطى طعما للمشروب المر، زهرة رقيقة في وسط مائدة طعام لتفتح الشهية.. أي شيء يخطر على بالى.. المهم ان أتقبل.

في هذه اللحظات، يبدو أن رفعت شعر ببوادر ضيقى في هذه اللحظات، سمعته يتحدث في التليفون وبعد قليل يقترب مني وو يحتويني من الخلف، كنتُ واقفة أتابع حركة الشارع من خلف شيش نافذة غرفة النوم في هذا التوقيت من بداية الليل، لم ألتفت إليه، إنما تركته يفعل ما يشاء، قبلني من أذني اليسرى من بين أنفاسه الساخنة التي شعرت بها على رقبتي، قال ويداي تضمان صدري في عنف:

- حجزت ثلاثة أيام في العين السخنة.. نسافر صباحًا.

لقـد أتـى هذا العـرض فـي موعده تمامًـا، فتـاة غيرى كانت تسـعد بخروجهـا مع زوجها في الأيام الأولى مـن الزواج في رحلات إلى أى مكان ليشـهد العالـم سـعادتهما، أما أنا فقد التفت ناحيته بسعادة، لكنها سعادة السجين الذي سمع للتو أنه سوف يخرج من سجنه ولو لساعات ليرى الشـارع.. الناس.. الشـمس.. خبر خروجى لعدة سـاعات خارج هـذا المكان يجب أن أسـعد بـه، لاحظ رفعـت سـعادتى وفهمها على الشكل الذي يروق له، لا يهمني. وددتُ لو يغير رحلتنا إلى مكان آخر، مكان تاقت له روحى وكأن ذلك النسيم الذي تنسمته هناك لا يزال يملأ أنفـي، إلى أنشـاص، لكني بالطبع لم أصرح بذلك، لأسـباب أهمها أنه سوف يسألني عن السبب ولن أستطيع الإجابة، وثاني أهم الأسباب هو أنني اسـتنكرتُ ذلك من نفسـى، فلم تكن رحلة أنشـاص من قبل تمثل أهميـة فـي حياتى، بل إنني أتذكر جيدًا أنني عدتُ منها ببعض الاسـتياء ممـا حدث، لكن الحقيقة التي لـم أدركها في ذلك الحين أو حتى اليوم ورفعت يخبرني بأننا سـوف نسافر غدا إلى العين السخنه، الحقيقة التي لم أدركها إلا مسـتقبلًا.. هي أن هذا اليوم في أنشـاص قد ترك بداخلى أثـرًا لن يمحـى مدي حياتى، وعشـقًا للجمـال و.. وبدايـة الطريق إلى الحب، لكن متى يأتى الحـ..؟!

لم يتركني رفعت أكمـل رحلتى في أعماق أفكارى، إنما احتواني.. ثم حملني إلى السرير.





هل تتلاشى أرواحنا بعد وفاتنا أم أنها تنتقل إلى كائنات أخرى.. أو تحوم حول ذويها إلى الأبد ؟



(16)

الدُمية

الأطفال فقط هم مَن يشعرون بالسعادة الحقيقية من أقل الأشياء، كما تحزنهم أقلها أيضا، كنتُ مثلهم لحظة عودتى إلى العمل.

علي باب حجرة مكتبي وقفتُ أتأمل في سعادة كل تفاصيلها، المكتب، المقعد الدوار، عاودني الانقباض عندما شاهدت شجرة التوت في اللوحة، نظرتُ سريعًا إلى أسفل ناحية السجادة التي تحملت ثمنها.

يتقبل الزملاء سروري ومرحى معهم معتقدين أن سببه هو الزواج، احتفلوا بعودتى بما يليق بي وأكثر، فالسعادة تأتى بالسعادة والسرور ينتشر كما ينتشر الحزن، وكنتُ سعيدة مسرورة بعودتى إلى عملى.

طلبت من أحد العمال أن يحضر لى من مشتل قريب شجرة « فيكس » مثل تلك التي تركتها في المعهد. انتظرته في شوق، كمن ينتظر حبيبًا غائبًا، ولا أدرى لماذا هذا الشوق لشجرة الفيكس؟! يبدو أنني اتوق إلى تلك اللحظات التي كنت أحدثها بما في نفسي، أعود

بذاكرتي، باستمرار، إلى تلك اللحظات التي أحسب أنني ولدت فيها، رغم رفضي وقتها لكل ما يحدث.

يعود العامل بعد قليل بشجرة الفيكس. كانت جميلة بالفعل، تصل في ارتفاعها مترًا ونصف المتر تقريبًا، وضعها في جانب الغرفة بالقرب من النافذة الزجاجية التي تطل على حديقة المستشفي، أقف إلى جوارها وكأنها رفيق أحدثه، وريقاتها رائعة الجمال في نضارتها وخضرتها، يطمئن داخلي للحظات.

أعود لأجلس خلف مكتبي، أرتد بظهري إلى مسند المقعد وأفرد ساقيَّ على طولهما وأملأ صدري بالهواء ثم أتركه ليخرج بهدوء، شعرت باسترخاء تام، ولما كنتُ مرهقة بالفعل من رفعت خلال الأيام الماضية، سرى في جسدي خدر لذيذ، والنوم سلطان كما يقولون.

لا أعلم هل نمت بالفعل.. أم لا.. لكني فزعت على صوت دقات على الباب.. أفقت وأنا أسمح للطارق بالدخول بينما أعتدل على مقعدي، كان العامل قد أتى بالماء ليروي شجرة الفيكس، لقد طلب منه صاحب المشتل أن يقوم بذلك الآن ثم مرة كل أسبوع، أخبرته بأن يترك ذلك الأمر لي، فأنا أحب أن أرعاها من الآن فصاعدا. تذكرتُ الآن أنني كنت قد نمت بالفعل، فقد عاودني جزء من الحلم الذي يدق بابي منذ الصغر ولكن العامل لم يترك لي الفرصة لاستكماله، وصلت فيه حتى تلك اللحظة التي تخرج فيها السيدة من خلف الرجل وهي تعدل من وضع ثيابها وتبتسم في ميوعه وتسبه بألفاظ خارجة.. أحاول أن أتذكر



تلك الألفاظ التي كانت تسبه بها... أفشل.. وأتعجب من نفسى.. لماذا أود التعرف على تلك الكلمات؟!

اعتدلت وجذبت الملفات من فوق جانب المكتب، أمامى أكثر من عمل متأخر بسبب الإجازة، بالإضافة إلى العمل الطبيعى، بذلك التراكم انشغلتُ خلال الأيام التالية، فلا رفيق لى في عملى، سعدتُ بذلك، فأنا أريد العمل، خصوصًا وأني درست علم الاجتماع حبًا، لذا كان حب العمل شيئًا أساسيًا نابعًا من أعماقى.. هذا ما كنت أشعر به وقتها..!!

في بداية الأسبوع الثاني من عودتى إلى عملى، ذهبتُ إلى معمل التحاليل بالمستشفي، لأجري اختبار حمل.

بعد لحظات أخبرتني الطبيبة وعلى وجهها علامات أسى، أعلم أنها مصطنعة :

- للأسف يا سوسن.. لم يحدث الحمل بعد.

شكرتها وعدتُ إلى مكتبي، عدت وفي قلبي تتراقص آلاف الأشياء، وكأن قطرات دمى تحولت إلى دُمى صغيرة ترقص في حفل جماعى وعلى وجوهها ضحكات طفولية وصرخات ماجنة، أصوات متداخلة في طرب تقول : لم يحدث الحمل بعد.. أنا لستُ.. لست حاملًا.. أيها العالم.. لست حاملًا.. ضحكت في سعادة.. ضحكت حتى خشيتُ أن يسمعني أحد، فأسرعت لأغلق باب مكتبي وابتعد عنه لأقف إلى جوار شجرة الفيكس وأخبرها بأنني لست حاملًا، مرت الأسابيع الماضية ولم يحدث الحمل بعد.

في تلك اللحظات لم أكن لأدرك ما بداخلي، لماذا غمرتني كل هذه السـعادة لأنني علمـت أن الحمل لم يحدث بعـد..؟! لا أعلم تفاصيل ذاتـي.. لكني كنت فرحـة مثل دمية صغيرة على وجهها إبتسـامة ثابتة.. سعيدة.. منتشية ولـم أخبر أحدًا.

***

لو استطاع كل فرد أن يعبر عن مشاعره بدقة..

لتحول الكون إلى جنة..

أو جحيم.



(17)

السر

وكأني عدتُ إلى الوجود فجأة، كفاقدة وعى في الطريق العام عادت إلى الوجود لتشاهد عشرات الوجوه الغريبة يصنعون حولها دائرة بشرية مفرغة من أعلى لتظهر صفحة السماء رمادية. تحتويني تلك مشاعر، تعتليني الدهشة، مع انقضاء الأيام الأولى من الشهر الثاني من الزواج، كنت أتوقع أن تتغير الأوضاع وآلفُ رفعت، لكن هذا ما لم يحدث، بل ساءت الأحوال أكثر. تساءلتُ في شيء من الحسرة والفزع:

- أين أنا.. وماذا فعلت؟!

لم أجتهد في البحث عن إجابة، فلم أكن أمتلك لا الوقت ولا المجهود للبحث عن إجابات.. أو في الحقيقة خشيتُ الإجابات، هربتُ إلى عملى أُفرغ فيه طاقاتى، تسيطر علىَّ تفاصيل العمل، تبدو تلك السيطرة أمرًا عاديًا ومقبولًا في ذلك الوقت، لكنها بعد ذلك بدت أمرًا خطيرًا.

لم أتحدث مع أحد بشأن الإفاقة التي حدثت لى، كما لم أخبر أحدًا بأن « الحمل لم يحدث بعد » ولم أخبر أحدًا بأني أصبحت أتناول أقراص منع الحمل يوميًا. جعلتُ من إفاقتى تلك مثل كبسولة وابتلعتها لأخفيها في داخلى، واريتها في ركن بعيد، هي سرى الخاص.

تمر أيام وأنا أخفي سرى الخاص، بل وأنكر وجوده في بعض الأحيان، أُظهر ما كنتُ عليه خلال الأيام الماضية، بل أبذل مجهودًا مضاعفًا للحفاظ على حالتي تلك، حاولتُ جاهدة تقبل الأمر الواقع، لكنَّ صراعًا داخلى بين كبسولة الإفاقة تلك، وكبسولة أخرى تحتوى على مزيج من مشاعر وخيالات، تختص بمعرفة مسبقة بأن الأزواج الجدد، حتى وإن لم يكن بينهما حب متبادل يعيشون سكارى، لا يعلمون من أمر الوجود حولهما إلا شيئًا واحدًا وهو المتعة التي طال انتظارها، روعة اللحظة الوردية، لحظة الذوبان والتفاني.. لحظة يفتقدها قلبي الحائر، لن اقول أن قلبي يفتقدها بعد مرور هذه الأيام على الزواج، وإنما يفتقدها منذ اللحظة الأولى التي تقدم فيها رفعت لخطبتى، لكنني تجاهلت كل مشاعرى، خنقتها بيدي حتى تلفظ انفاسها الأخيرة، لأعيش وفقا لما فرضته علىَّ ظروف أسرتى، يبدو أن مشاعرى التي خنقت لم تمت، إنما ذهبتَ في إغماءة استمرت تلك الفترة حتى لحظة الإفاقة.

يبدو أن رفعت لم يكن ذاك الشخص الذي يحمل المفتاح!! فهل يحمل لى غدي حامل المفتاح الحقيقى؟! أم...



يهتز داخلى بشـدة بعـد خواطرى تلـك.. بل يرتعب داخلـى.. ماذا أقـول..؟! كيف أفكـر بهذه الطريقة؟! يجب أن أكف عـن التفكير بهذه الصـورة، إنـه تفكيـر غير سـوى، الزوجات يجـب عليهـن أن يرين في أزواجهـن الرفيق الذي لا رفيق غيره. فكيـف لى أن أتحدث، ولو حتى إلى نفسـى، بأن هنـاك آخرًا حقيقيًـا يحمل المفتاح الـذي يحتوى على الشفرة الحقيقية لمغاليق قلبي!!

تناسـيتُ مشـاعرى التي تحبو بداخلى. في الأيام التالية أحرز تقدمًا ملموسًا، لكنه تقدم في العمل.

طبيعـة عملـى هي بحـث الجوانـب الاجتماعية سـواء للمرضى أو للموظفين، فالمريض الـذي يتطلب مزيدًا من الرعاية الصحية، يتطلب فحصًا إجتماعيًا، بعده يتم توزيعه، وفقًا لظروفه، إلى القسم الاقتصادي أو القسم المجاني.

يجـب علـى أن ألتـزم الدقة. الشـائع بيـن زملائي مـن الإخصائيين الإجتماعييـن فـي المؤسسـات الأخـرى هـو طلـب أوراق بعينها، من السـهل جـدا توفيرها في وقتنا الحالى مقابل جنيهـات قليلة، ولا يوجد وقـت أو تقنيـة للتأكد من مدي صحتها، بعدها تسـتحق الحالة الدخول تحـت مظلة الرعايـة الاجتماعية. بالنسـبة لـى كان الأمـر مختلفًا، فقد صادفتني في بداية عملى أحداث جعلتني أتوخى الحذر دائما.

كان ذلك يوم دخل إلى مكتبي رجل وبيده أوراق، من قبيل الأشـعة والتقاريـر الطبية وخلافه، يبـدو عليه أنه من أصحـاب الأعمال الحرة،

يرتـدي جلبابًـا نظيفًا مكويًـا، نظرتُ إلى وجهه الطويـل الذي يميل إلى السمرة، شعره القصير الخشن، وجهه النحيف الذي ينتهي بذقن مدببة.

أشرتُ له بالجلوس، يتحدث بأسلوب غير المتعلمين المتحذلقين، يُخرج علبة السـجائر المسـتوردة مع قداحة ذهبية اللون ليضعهما على طـرف المكتـب، بينمـا يتابعني بنظـرات عينيه التـي يحـاول أن يغلفها بمسحة تكبر، يفشل في جعلها حقيقية، أعرف هذه النوعية من الرجال، الذيـن لا يمتلكون أى مقومات، ويتحسـرون باسـتمرار على أنفسـهم، أمثالهم لا يليق بهم سـوى أحد المناصب المهمة.. أقله مدير عام إن لم يكن وزيرًا، ذلك لو أن المجتمع يقدر أمثالهم.

يمد يده بورقة أتناولها منه وهو يقول :

- يرفضون مساعدتى.. ليس أمامى غيرك.
- أهلًا وسهلًا.. خيرًا؟
- الحالة سوداء والجيوب خاوية.. والحظ قليل..

تأملـتُ جيبـه الذي أخـرج منه علبة السـجائر المسـتوردة والولاعة الذهبية وهو يسترسل دون أن يلحظ نظرتى :

- زوجتى سـت صاحبـة مرض بعيد عنك. والمستشـفي لا تشـعر بالغلابة أمثالنا.

كتمـت زفرة ضيقـى من تلك المقدمـات التي نسـتهلك فيها نصف أعمارنا، سألته :

- كيف ذلك؟



- يـا آبله « قال ذلك واستمر كأنه أمر طبيعى » الدكاترة في القسم الاقتصادي يطلبون أدوية وكأنهم، (صمت)
- و كأنهم ماذا؟!
- أتكلم براحتى..؟
- طبعا..
- أقصد كأنهم يأخذون عموله من الأجزاخانات.. خصوًا الموجودة بجوار المستشفي.

للأسف.. كنت أشك في أمر مثل هذا من قبل، لكن أحدًا لم يشكُ منه بشكل رسمى أمامى، ولكن ها هو يتقدم ليؤكد شكوكى، وكى أتأكد سألته:

- ليتك تركز جيدًا فيما تقول.. لأن ذلك يعد اتهامًا خطيرًا.

يصمت لحظة يعود بجسده فيها للخلف متأملًا في خشية، تخالط صوته رعشة الاضطراب، يقول متلعثمًا :

- الله.. ألم تعطيني الأمان؟!
- لا أقصد المقاطعة.. إنما التأكيد.. أكمل حضرتك.

يصمت فترة ثم يُكمل :

- هناك أدوية موجودة ويطلبونها مرة ثانية وثالثة مستغلين.. جهلى.. أقصد جهلى بالأدوية.. لكنى أستطيع معرفتها.. بل أى فرد يستطيع.. وهناك أصناف أدوية يكون لها بدائل رخيصة الثمن، لكنهم يصممون على الأصناف باهظة الثمن.. يبدو أنه

كلما ارتفع سعر الدواء كلما ارتفعت عمولاتهم.. لهذا أتقدم لحضرتك بطلب لتحويل زوجتى إلى القسم المجاني بدلا من الاقتصادي.

- ماذا تعمل يا سيد عبد المحسن؟

علمت اسمه من الطلب الذي وضعه أمامى لحظة دخوله، يُجيب قائلًا :

- كهربائي في السعودية (صمت).. على فكرة أنا إنسان مثقف ودائما أسمع الراديو.. وعندي صفحة على الفيس بوك.

ابتسمتُ، طلبت منه ما يحمل من أوراق لفحصها، عرفتُ أن زوجته مريضة بمرض عضال يحتاج إلي وقت طويل وعلاج دائم حتى تشفي منه، إن كتب لها الشفاء،بالفعل تحتاج إلى أدوية كثيرة تنهك كاهل رب أسرة مثله، تذكرتُ والدي وكيف سيكون حال أسرتنا لو تعرضت أمى لمرض مثل هذا، والدي يوفر بالكاد ما تقتات به أسرته، فكيف بالمرض؟! لقد أعطيته الجزء الأكبر من راتبي منذ تم تعييني، كنت ألحظ نظراته المنكسره في البداية ثم اعتاد هو أن يمد يده ليأخذ مني واعتدتُ أنا نظراته.

هززت رأسى وعدتُ إلى مكتبي، أغلقت الملف على الأوراق وتأملته قبل أن أحدثه ببعض العبارات الروتينية :

- المستشفي يقدم كل ما يملك خصوصًا في القسم المجاني، يتحمل مصروفات الأطباء والأدوية وإقامة ورعاية المرضى،



تخيل لو أن ذلك في إحدي المستشفيات الخاصة، كم ستكون التكلفة.. أرقام خرافية بالطبع.

فهتف وكأنه يدفع عنه اتهامًا :

- تُشكر طبعًا..

ثم يرفع كفه نصف مفتوحة ويضعها إلى جانب رأسه، ثم يعيدها إلى وضعها بدون أن يعقب بكلمة واحدة.. أكملتُ حديثي:

- و القسم الخاص بالرعاية المجانية الكاملة مفتوح للحالات الأشد احتياجًا. ومَن يستطيع تحمل النفقات عليه من نفسه ترك القسم المجاني ودخول القسم الاقتصادي.

يفكر لحظة قبل أن يجيب :

- أنا حاليًا بلا عمل.. وعندي في البيت بدل الابن نصف دستة.

- اترك لى صور الأوراق.. سوف أدرس الحالة.. بعد ثلاثة أيام، وإذا كانت الحالة تستدعى، سوف أصدر التعليمات بتحويل زوجتك إلى قسم الرعاية المجانية الكاملة.

يترك ما طلبت وينصرف. طلبت كوب شاى من العاملة، ثم بدأتُ عملى في دراسة ملف زوجة السيد عبدالمحسن، الأوراق لا تقدم أدلة حقيقية، يتحتم عليَّ أن أتوجه إلى منزله لمعاينة حالته على الطبيعة.

أغلق الملف، أعود بظهرى على مسند المقعد وأفرد ساقيَّ على طولهما، أملأ صدرى بالهواء، أدور قليلا بالمقعد كى اواجه النافذة وأطل على أطراف أشجار الحديقة، أشرد قليلًا في جملة الرجل

الأخيـرة، نصف دسـتة مـن الأولاد، مـاذا لـو أنجبت نصف دسـتة من الأولاد؟! تخيلت نفسى وقد انتفخت بطني، أحمل في أحشائي طفلًا.. ولد.. الأطباء في المستشـفي أخبروني بذلك من خلال أجهزتهم، تأتى لحظة المخاض، أصرخ.. أتألم بشدة.. فها هي روح تخرج مني.. أفيق وقد غرقت في عرقى من شدة الإجهاد، أين طفلى، يأتوني به.. من هذا الـذي يحملـه، إنه رفعت، يمد يده ويكشـف عن وجه الطفـل، أتأمله.. فجـأة أصرخ.. إنـه رفعت.. نعم رفعـت آخر ولكنه رضيـع ملفوف في قطعـة قمـاش بيضـاء، أصـرخ.. لكـن صرخاتى مكتومـة، تـكاد تُفجر صـدرى، أتنفـس بصعوبـة وعرقى يسـيل بغـزارة وأنا أبعـد وجهي عن الطفل.. عن رفعت.. عن الجميع.. أشـهق بشـده وأنـا أدفع بيدي تلك الأشـباح التي تقترب وتقترب ويدها ممـدودة لتخنقني وعلى وجوهها ابتسـامات شرسـة.. فجأة أنتفض.. أنتفض.. وإذا بـي على مقعدي في غرفـة مكتبي أتنفس بصعوبة شـديدة وقطرات الماء تسـيل على وجهي بالفعـل، إنـه حلـم.. لابـد أنني نمت وشـاهدتُ هـذا الكابـوس.. بعد لحظات ابتسـمت.. نعم ابتسمت لأنني أحرص على تناول حبوب منع الحمل.. لن أنجب أطفالًا.. لن أنجب رفعت آخر.

***



«الكلمات الأخيرة لجسد يفارق الحياة كما نقشٌ على صخر»



(18)

المريضة

منـزل مكـون من ثلاثة طوابـق. تأملتُه قليـلًا فإذا به مبنـي قد تكلف الكثيـر، يبدو ذلك من واجهته الأنيقة وشـرفاته المرسـومة على شـكل نصـف دائـرة، تطابقها فـي الأدوار الثلاثة أعطـى منظرًا رائعًـا، يبدو أن السـيد عبد المحسـن قد أنفق الكثير على هذا المبني، أستطيع أن أدرك قيمة منزل كهذا لأن أسرتي افتقدت حتى جزء منه.

فـي مثل هذه الأماكـن التي يعرف أهلها بعضهم البعض، تنتشـر من الغرباء أمثالي رائحة تجتذبهم باسـتمرار، حتى إن بعضهم قد لا يشـعر براحـة مطلقـا إلا إذا عَلِمَ لمـاذا أتى هذا الغريب إلى هـذا المكان، وقد يقدم في سـبيل ذلـك الكثير مـن المعلومات، ويصل الأمـر إلى الرغبة فـي توطيد أواصـر الصداقة مع هـذا الغريب كي يكون هـو الوحيد في المنطقة الذي يعرفه ويعرف طبيعة عمله التي قد يسـتفيد منها مستقبلًا.

هذه الفئة وفرت لي معلومات كثيرة دُهشت منها.

السيد عبد المحسن يمتلك هذا المنزل، ويمتلك ما يكفي لإنشاء مستشفي خاص لزوجته إن أراد، كان معدما عندما تزوج تلك السيدة التي ترقد اليوم في المشفي الذي أعمل فيه، لم يكن يمتلك غير قوته وحرفته، وافقت على الزواج به، ولم لا وهي الابنة الوحيده لأرملة، بعدها يسافر إلى السعودية ليعود بعد سنوات قليلة محملًا، كان الأمر في بداية سفر العمالة المصرية إلى الدول العربية، يعود ليهدم منزله القديم ويقيم مكانه هذا المبني، تنقضي سنوات العمر وتختلف معاملته لزوجته إلى أسوأ ما يكون، تزيد معاناتها، يرتفع ضغطها وتنهار أجهزة جسدها العضو خلف الآخر حيث تستأصل الرحم ثم المرارة وإحدي الغدد، وها هي اليوم تعاني مرضًا عضالًا ترقد على إثره، يُدخلها المستشفي الحكومى كى لا يتحمل تكلفة علاجها ولرغبته في الزواج بأخرى.

لم أكن أتعامل مع عملى كموظفة تتقاضى أجرًا وينتهي دورها مع أوراق تقوم بتستيفها وترحل عند نهاية ساعات العمل، لا.. أنا أشعر بأمانة مهمتى ودورى في المجتمع، هذا ما كنت أشعر به وقتها، لذا لم أترك هذه الحادثة تمر بهدوء، لذا وجب عليَّ التمهل في اتخاذ القرار والتقصى خلف الحقائق، وها أنا أفعل.

في المستشفي أكدت لى زوجة السيد عبد المحسن صدق المعلومات التي حصلتُ عليها من خلال بحثى الميداني، أوصيتها بأنه يحق لها أن تطلب من زوجها الرعاية الكاملة، القانون يكفل لها ذلك، ثم تركتها بعد أن تمنيت لها الشفاء العاجل، ولم أتجاهل ذلك الكلام



الـذي يُكرر في مثل هذه المناسـبات، فأخبرتها بأن صحتها هي الأصل ويجب ألا تحترق من أجل أخرين يتجاهلون حتى مرضها.

بعدها حاولت بقدر المستطاع شرح الأمور أمام السيد عبد المحسن، أخبرتـه بأنـه الواجـب ولا مفر مـن تحمله، يجـب تدعيـم الأخلاق لا الغرائز، أطال النظر نحوي وقد كشـف عن أسنانه، تذكرتُ أسنان رجل الحلـم المحفور فـي ذاكرتي، رفضي لطلبه أظهر مـا كان يخفيه من كم رهيب من الشراسة.

قبـل أن يرحل " الرجل " نظرتُ إليه باشـمئزاز كي أرد على نظراته، لكني حقيقة لم أسـتطع المواجهة، حاولتُ أن أخفي نظرتي، اسـتدرتُ بالمقعـد، أشـاهد الصـورة الزيتيـة، شـعرتُ بانقباض وأنا أرى شـجرة التوت.



«جسد بلا ضمير .. هو بلا شك جسد بلا روح»



(19)

مواجهة

ضمير مثل الجنين مخلـوق على الفطرة، يخنقه صاحبة بيد حديدية حتى يلفظ أنفاسـه الأخيرة، يرحل تاركًا جسـدًا لا يـدرك للحياة معني، يستحل كل ما يحقق شهوانيته، يحرمها إن صدت عنه متعته، صراع دائم يزداد فيه القوى قوة والضعيف ضعفًا.

شـغلني في تلك الفترة بشكل لم يترك لى مجالًا للتأمل في تفاصيل حياتـى الجديدة، تذاكر الشـراء للموظفين العاملين بالمستشـفي، تلك التذاكـر تقضى بتخفيض نصف ثمن المشـتريات مـن بعض المحلات التي تتعاقد معها إدارة المستشفي، حيث يتحمل الموظف نصف السعر وإدارة المستشفي تتحمل النصف الآخر.

فـي الحقيقة تعاونت معى الظـروف، بعد النجاح الـذي أحرزته مع بحث الحالات المرضية دراسة ميدانية وصلت دقتها إلى المدير العام، كانـت صدمة حين قررت الشـركة التي تعاقدتَ معها إدارة المستشـفي أن ترفـع الأسـعار، علـى الموظفين حاملـى التذاكر، بنسـبة لا تقل عن

ثلاثين في المائة بدعوى الدمغات والضرائب وغيرها، وبالتالي تتحول نسبة الخصم الحقيقية إلى عشرين في المائة فقط بدلا من خمسين في المائة، تملكتني الدهشة، أي تجاوز هذا؟! لقد بلغ الفساد مداه، في كل شيء.. في أي مكان.. لدي أي فئة.. الفساد منتشر.. ضارب بجذوره في أعماق المجتمع، لا تجد مكان إلا وفيه فسدة مرتشون، يختلقون ألف وسيلة للتحايل على القوانين من أجل الحصول على مكاسب مادية، كان عليَّ أن أتصدي للفساد في محيط عملي، قررتُ التصدي والمواجهة. تقدمتُ بشكوى إلى مدير المستشفي، يتجاوب معي شكواي، يطلب انعقاد مجلس إدارة لتقصي الأمر.

في الاجتماع الذي كان يتكون من ثمانية أعضاء أبرزهم مدير المستشفي والدكتورة نائب المدير ورؤساء الأقسام، لاحظتُ أحد الأعضاء يتصدي لي بشيء من العنف لحظة شرحي بأن الموظف مضطر للحصول على العشرين في المائة فقط فهي أفضل من لا شيء.

بعد كثير من المناقشات، ترتفع حدة الحوار، يتبين في هذا الاجتماع، من خلال أحد الموجودين، أن هذا العضو على علاقة بصاحب الشركة ويحصل منه على عمولة خاصة، لذا أرسى العطاء على هذه الشركة.

أُثيرت هذه القضية أكثر من مرة قبل ذلك، لكن هذا العضو كان لديه القدرة على أن يمتصها ويخفيها، مثل قطعة من الإسفنج وضعت على ماء قليل، قبل أن تصل إلى أعضاء مجلس الإدارة، لكنه لم يفلح هذه المرة لأنني لم أعلن عن أي تفاصيل إلا في الاجتماع، صدمته المفاجأة وسرعة اتخاذ القرار.



تم اتخاذ عدة إجراءات من شـأنها أن تم إلغاء العقد مع هذه الشركة وإصدار قرار بطلب شركة أخرى بأسعار منافسة، تم الإجماع أيضا على أنني سـوف أكـون ضمن أعضاء اللجنة التي تختـص بفض المظاريف، وبذلـك نلتُ التقدير المعنوى علـى مجهوداتي، أيضا تم صرف مكافأة مرتب شـهر، اشتريت به هدايا لشـقيقاتى وذهبت لزيارتهم لأحصد من سـعادتهم قوة تنسـيني واقعى المرير الذي تعاودنـي مرارته كلما عدتُ إلى شقة رفعت ويُغلق بابها علينا وحدنا، نعم هي شقة رفعت، لم أشعر يومًا بأنها شقتى.. عشى.. دنيتى.. كما تشعر الكثيرات غيرى.

زادت زيارة الأطباء والعاملين بالمستشـفي لى في مكتبي، يأتنسون بحديثى، يستشـيرونني في كثير من الأمور، إدارة المستشـفي خصصت بعض قطع الأثاث، عدد من المقاعد الوثيرة، لتغطية الجزء الخاوى في حجرة مكتبي.

كانـت هـذه الحـوادث تعمـق شـيئا بداخلـى، وإن كنـتُ لا أعرف بالضبط ما هو؟

تتراكم طبقات الحياة يومًا بعد يوم، تتشابه الأحداث، روعة الجديد تتلاشـى علـى قلتهـا، تبقى ذكريـات الماضـى أليمة تنخر في جسـدي كسـوس ينخـر في جذع شـجرة عتيقة، ألـم الماضى لم يكـن لينبع من أحداثه بقدر ما نبع من رفضى لتلك الأحداث وقتها، ذلك الرفض الذي أتى بي إلى هنا، إلى شـقة رفعت، إلى رفعت نفسه. مجبرة على رؤيته.. بل مجبرة على الابتسـام لـه.. هل أفصح أكثر..؟.. مجبرة على تسـليم جسـدي له، مجبرة على تسـليم شفتى لشـفتيه، على تنفس أنفاسه على

تذوق لعابه.. كنتُ أود لو أميل لأبصق في جانب.. أود لو أهرب، لكني أضعف من ذلك، أحلق في خيالى وبمنتهي السرعة، ستارة قاتمة اللون، ثقيلة جدًا، ألقي بها فوق كل تلك الأحداث التي تؤلمني لأغطيها كي لا أراها، أعلم باستمرار أن هناك في إحدي زوايا الذاكرة كم رهيب مغطى بستارة ثقيلة قاتمة اللون، أغض عنها الطرف لأعيش.

يعود الصداع مرة أخرى، دبيب رهيب في رأسى، مطارق وهراوات تضـرب فـي كل الأركان، يتسـلل الألـم إلى جسـدي، كتفـاى مهدلان، ذراعاى يسـقطان وكأنني أحمل فيهما حقائب مملوءة بالحجارة. الألم يسـوق أمامه ألـف جندي بأسـلحتهم ينهكـون قوتـى، تناولت حبوب مسكنة للألم، لم تُجد، تعاطيت كمية أكبر.. دون جدوى.

تمـر أيام وأنا في انهيار مسـتمر، تحولتُ تدريجيا إلى أى شـيء غير سوسـن التي أعرفها، حالة النشاط التي كنت أصحو عليها طوال حياتى السـابقة اختفت. بعد مرور ثلاثة شـهور من الزواج تبـدل الحال تمامًا، أرجعت ذلـك إلى الصداع الذي يصيبني وكثرة الأحلام المجهدة ليلًا، وإن كنت غيـر مقتنعة بتلك التبريرات.. لكني لم أكن أمتلك من القدرة أو الرغبة في البحث عن الحقائق ومواجهتها.

في الأسـبوع الثاني لهذا الألـم الذي أصبح رفيقى قررتُ استشـارة طبيـب في المستشـفي الـذي أعمل بـه. بعد اسـتعراض قدراتـه الطبية أمامى، يوصى بنوع من الأدوية شديدة التركيز.

يختفي الصداع بعد سـاعات بعد تناول الكبسـولة ثـم يعود، أتناول كبسولة أخرى، يختفي الصداع ولكن لمدة أقل من السابقة، وهكذا مع



الوقت حتى وصلت في اليوم الثالث إلى عدم جدوى تلك الكبسولات، بينما الألم مستمر يدق بمعاوله على صخرتي ليفتتها.

و كأننـي انزلق في هوة عبر أنبوب معدني أملس، لا أجد ما أتشـبث بـه على الاطلاق، يتزايـد الانزلاق ويتزايد فزعي، أشـعر بيأس رهيب، يحتويني صمت العجز، أخشى الاعتراف بعجزي فأرسم على ملامحي علامات القبول لما أنا فيه، تلك كانت طبيعتي وقت مواجهة أية أزمة.

لَما عاودني الألـم.. لم أهتم..

لم أهتم به لأنه لم يعد وحده الذي يهاجمني، إنما كنت أشعر بإرهاق شـديد وخمول حالما أسـتيقظ من نومي، ثِقل في أطرافي حتى إنني في بعـض الأيام تخيلتني مشـلولة تمامـا، تمر أيام طويلة علـى هذا الوضع المؤلـم.. يبدو أنني ألفته، خصوصًا أنه كان يسـتمر لمدة سـاعتين على أكثر تقدير بعد يقظتي الفعلية ثم يتوارى، وتظهر حالة من اللامبالاة، أو هي حالة من عدم الشعور بطعم الأشياء.

بهذه التفاصيل الجديدة وقد أحكمت عليَّ قبضتها، نسيت الإرهاق والخمـول اللذيـن أصبحا جزءًا مـن حياتي لا ينفصلان، تركتهما يئسًـا ونظـرت في الأفـق لأرى ملامح غدي، لـم أشـاهد غير سـؤال يتأرجح بيـن سـحابات قاتمة اللون، علـى طرفيه معلق صورتـان الأولى صورة حسـين زميل الجامعة وفـي الطرف الآخر معلقة صـورة رفعت، بينهما تلك الكلمات :

- كيـف تـم ذلـك؟! كيـف أرفـض حسـين وقلبـه الفيـاض وأقبل الارتباط بـ رفعت؟!

قبـول الأمـور المفروضة يُضاعف من صعوبتهـا وإن كانت هينة، لا أجد في داخلي حتى القدرة على الإباحة لنفسي بذلك، فأنا من رفضتُ حسـين وأنا من وافقتُ على الارتبـاط برفعت.. إذن.. عليّ تحمل كافة النتائج.

هي أزمة وسـوف تمر.. أقنعتُ نفسـي بذلك وطلبـتُ من الحياة أن تسير وفقط.

***

«تنازل طفيف اليوم.. انهيار في الغد»



(20)

شذوذ

قـد تحدث أمـور عديدة فـي حياتنا ونحسـبها أمورًا تمـت من قبيل المصادفة، لكنها تمت بترتيب من القدر نفسـه، كأن يكون الاسـم صفة دالة على صاحبها. أو قد يحدث تطابق بين بعض الجزئيات الشـخصية والجسدية، فالشخص الذي قد يبدو وسيما مقبولًا، نجده يمتلك القدرة على إقامة علاقات، حيث يتقبله الآخرون بسـهولة. بينما شخص آخر، هـو غير مقبول لدي البعض لملامح جسـدية، فتجده منطويًا على ذاته، هو بذلك لا يُجهد الآخرين ويضطرهم لإقامة علاقات اجتماعية معه.

رفعـت كان من هذا النـوع الأخير، لا يحاول إجهـاد أحد في علاقة معـه حتى وإن كنت أنا، فكانت لحظـات قليلة تلك التي يحاول فيها أن يكون خفيف الظل، سريعا ما تتلاشى.

يفاجئني مرض جديد « الإمسـاك »، في البداية شـعرتُ به وحسـبته بسـبب صنف الطعام الـذي تناولته، لكن مع تكراره وارتباطه بشـيء من المعانـاة جعلني اتناول دواءًا للقضاء عليه، المفاجأة أن يحدث العكس



تمامًا، ويكاد المغص يمتص كل حيويتي، كما أن الذهاب للحمام بكثرة يُثير اشمئزازي، ثم أتحول إلى الدواء المضاد وهكذا، إلى أن سئمت ما يحدث.. لكني لم أجد ما أفعله.

أحيانًا يطيب للمرء أوضاع يسأم منها آخرون، فقد نرى فتاة يلذ لها العنف وإن وصل إلى الضرب والإهانة، مبررة ذلك أمام نفسها بلذة تستشعرها لحظات ثم تتلاشى، يبقى أثر الضرب والإهانة، لكنها تُفضل لحظات السعادة، على قلتها، على تلك الأوقات الطويلة التي تبقى فيها آثار الإهانة مسيطرة.

أخرى تبحث عن لحظات لذة خلال ممارسة غريبة للجنس، تغوص في قلب بحر الشذوذ، تتلهف إلى سماع ألفاظ بذيئة حتى إنها تصدر أصواتًا تشبه العواء، تُقدم على أفعال وتتلفظ بكلمات لا تتخيل مطلقًا أنها ستخرج من فمها ذات يوم، الأسوأ من ذلك أنها لا تعود إلى التفوه بها مرة ثانية وتخجل لحظة تذكر نفسها تقول ذلك، تفعل ما تخجل منه بحثًا عن لحظات لذة، وما أن تمر بنفس اللحظة الجنسية مرة ثانية حتى تتحدث بما تخجل من مجرد تذكره.... بل تُزيد عليه حركات أكثر إثارة.

يطيب لي غياب رفعت عن المنزل، في أحيان كنت أتمني أن يخرج من المنزل وألا يعود، أعلم أن ذلك يتنافي مع نظرتي السابقة لوضع الزوجة التي من المفروض أن تجعل من منزلها جنة لزوجها وتجعله يهوى البقاء في المنزل، هكذا علمتني أمي. بداخلي رغبات عظيمة بألا يعود، حتى لو خالفتُ أمي.



ابتسـمت وأنا أتذكر ذلك، بينما كان في داخلي نار مستعرة، دُهشت للتناقض بين ما يعبر عنه الوجه وما يعتمل بداخل النفس، شعرتُ بضيق شديد، تساءلت في حسرة :

- هل تنازلتُ عن مبادئي؟!

يطـول بحثـي عـن إجابة، يـدب اليأس فـي أوصالـي، بمنتهي الألـم والمعانـاة أجتهـد للتركيـز كـي أفكر ولو قليـلًا، بعد طـول تفكير تظهر أمامي إجابة مبتسرة :

- أعتقد أنني تنازلت فعلًا عن بعض مبادئي!!

بشـتى الطرق كنـت أحـاول مقاومة الانهيـار والتصـدي لتفاصيله، بسبب الصراع المرير داخلي، أصبحتُ باستمرار قلقة مضطربة.

مع مرور الوقت وحالة التشـتت التي أعيـش فيها، عدم قدرتي على صياغة أسـباب حقيقية لأسـباب تعاسـتي، بالإضافة إلى ضعفي وعدم قدرتي على المواجهة، أصبحت كشـيء هلامي، كأنني لسـتُ أنا، كأنني غيـر موجـودة، أصبحتُ فتاة تخشـى كل شـيء، تفزع مـن أي صوت، ترتعـب من الصمـت، يتملكني الخوف وكأنه وحش أسـطوري ضخم يرتـدي عباءة سـوداء يقتـرب ويقترب فاتحًـا ذراعيه ليغرقنـي في قلب عباءته المفزعة ذات اللون الأسود.

كنتُ أسـتعين على قضـاء أوقات فراغي، في المنزل، بدراسـة أمور من تلـك التي تواجهني في العمل، أحيانا أخـرى أتوجه إلى القراءة في

التخصص، وإن لم يتواجد هذا أو ذاك فإن التلفاز يكون هو السبيل الوحيد أمامى لقتل الوقت واغتيال الفراغ.

لم أكن أهتم بخروج رفعت، أقابله بصمتى الذي يعتقده صمت الرافض المتذمر، يقف أمامى وعلى وجهه ابتسامته المطبوعة معللاً خروجه بأن هناك أعمال مهمة،أشيح عنه بوجهي، يستمر في تقديم الأعذار والمبررات، حتى يأتى وقت يسأم فيه من تقديم مبرراته، فيكتفي بالسؤال عن الصحة بوجه عام.. ثم النوم.. بعدما يُشبع رغباته ويُطفئ لهيب شهوته.

بلا سبب يذكر.. كنتُ دائمة الخوف، افتقاد أسباب الألم أكثر إيلامًا من الألم ذاته، لم تستطع قضايا العمل لقلتها وعدم أهميتها، ولم تستطع الكتب لسكونها، ولم تستطع مادة التلفاز لسطحيتها وخبث الكثير منها، أن يخرجني من حالة الخوف والقلق، يزيد الأمر سوءًا عدم وجود رفعت، أو بالأدق عدم احتواءه لى، ذلك الاحتواء الذي تحلم به كل فتاه، يبدو أن ذلك سيظل حلمًا إلى الأبد.

في أحد الأيام، بينما رفعت لم يعد من الخارج بعد، أجلسُ في حجرة نومى صامتة شاردة، لا أعى شيئًا مما يدور في العالم الخارجي، أو حتى الداخلى.

بعد مرور وقت لا أعلم مقداره، بينما أغوص خلف أفكارى وما آلت إليه حياتى وما ينتظرني من مستقبل أشبه بصفحة الليل القاتمة التي لا تظهر فيها لحظة بريق واحدة، حتى نجوم السماء اختفت، وقهرت جيوش الظلام كل ومضات الأمل، لاحظتُ أنني ارتعد خوفًا وبداخلى



اضطراب وقلق شـديدان، تعبر أمامي سـنون حياتي الماضية،أشاهدها كئيبـة ممتلئـة بصمـت وحـزن، يلتهـب داخلـي رفـض. لِـمَ التـردي والانهيار؟! لِمَ خلقتُ في هذا البؤس؟!

شـعور الحـزن يعتصرنـي، رحيق عمـري يذهـب بلا متعـة. أيعقل أن أكـون خُلقـت مـن أجل هـذه الحياة الكئيبـة، من أجل ذلـك الحزن المستمر؟! لِمَ تجهل السعادة عنواني؟!

أكاد أسـقط في بئر سـحيق، تتردد بداخله آهاتي، يلمع الماء الأسود في قاعها، أصرخ وأصرخ خوفًا، أنظر باحثة عن يد تدفعني للسقوط كي أقاومها، لا أرى شيئًا.

نفضتُ رأسـي بشدة، عدتُ إلى غرفتي وسريري ينتفض أسفلي من أثـر رعداتي، لا تـزال صرخاتي تتردد في حجرتي، نعـم.. كنتُ أصرخ بشدة.

يتزايد اضطرابي، حتى إني أرهف السـمع.. صمت رهيب.. أرهف السـمع أكثـر وأكثـر.. لا.. لا.. ليـس الصمـت الرهيب.. هنـاك حركة خفيفـة، نعم هنـاك حركة، خربشـات وتزييق حذاء، أترقـب أكثر، أميل برأسي نحو باب غرفتي، يبدو أن أحدهم بالصالة، انكمشتُ في مكاني، تظهـر علـى أطـراف أصابعـي رعشـة خفيفة ترافـق اضطـرب داخلي، الصوت يقتـرب، صوت الخطوات يؤكد انه شـخص يقترب في حذر، يبـدو وكأنه يميل بجذعـه إلى الأمام ليفحص المـكان، الصوت يوحي بأنـه شـخص واحد، هل أتى رفعـت؟! مؤكد ليس رفعت.. فلم أسـمع

صوت فتح باب الشـقة. هو شـخص أتى من مكان آخر غير الباب، هل تركت نافذة الحمام مفتوحة، أم بلكونة المطبخ؟!

قـررتُ أن أستجمع ما تبقى لدي من شـجاعة أيـا كان حجمها وأن أخـرج للصالـة لاستكشـاف الأمـر. تركـت السـرير في صمـت، أكتم أنفاسـي المتلاحقـة، أخطو على أطراف أصابعى بأقـدام عارية، للحظة واحـدة تقـع عينـي على صورتى فـي المرآة، شـعرى ملقـى على كتفي بـلا عناية، دموعـى الغزيرة تركت آثار زحفها على وجنتى بلون أسـود، جفونـي منتفخة، أرنبـة أنفي حمـراء متورمة قليلًا، أرتـدي قميص نوم قصير أعلى الركبة ويكشـف عن نصف صـدرى، بينما ثدييَّ محمولان فـي صدارة حريرية بيضاء رقيقة، خوفي شـل تفكيرى عن ارتداء شـيء يسترني.

الحركـة في الصالـة في تزايد، يبـدو أنه لص يجول فـي المكان لما تأكـد مـن خلوه، الحركة تبتعد، في أى اتجاه يا تـرى؟ أنصت أكثر.. إنه يذهب نحو المطبخ، هل يبحث عن طعام؟!

يترسخ هذا الخاطر سريعا في خيالى، فتحتُ باب غرفتى، من فتحة صغيرة شـاهدتُ الصالـة التي كانت خالية بالفعـل، أفتح الباب لأخطو خطـوة واحدة ثم أتسـمر فـي مكاني، مـاذا أفعل؟ أجننـت؟ هل أواجه اللص وحدي؟! تلفني حيرة ورعب شديدان!!

بعـد صمـت لحظـات قـررتُ أن أتوجـه نحـو المطبـخ، تمـر على خاطـرى فكرة أن يكـون اللص مختبئًا فـي مكان ما، وسـوف يفاجأني مـن الخلف، يتملكنـي خوف رهيب، أرتعد في مكاني، تتحسـس يدي



جســدي بلا إرادة، تتفتح مسام الجلد لتنفر حبات العرق فتزيد من سوء وضعــي، أضع يــدي على فمى لأكتم صرخة تــكاد تفلت، يزداد داخلى اضطرابا، فجأة ســمعتُ هسيسًــا خلفي، أدور للخلف في حركة سريعة مليئة برعب حقيقى.

لم أجد شيئًا..

بدأتُ أنظر إلى الأمام نحو المطبخ، ثم إلى الخلف.. ثم إلى الأمام.. إلى الخلف.. إلى الأمام.. إلى.. تكررت تلك الحركة كثيرًا، في مسافة قصيرة، ومدة لا تزيد عن ثلاث دقائق، حتى شــعرتُ بدوار رهيب زاده اضطرابي، ترنحتُ مكاني وشــعرت بضعف رهيب في أقدامى، توارت الأشياء من أمامى، فتحتُ عيني بشدة وعلى اتساعهما لم أستطع تحديد ماهية الأشياء، يبدو أنني سأفقد الوعى.

المــرء أحيانا يحتــاج إلى أى شــيء يؤنس وحدته، أعلــم أن كثيرين ينامــون والراديــو إلى جوارهم ليأتنســوا به، حتى المســافر عبــر البيداء يأنــس بالدابة أو بإحصاء النجوم. أريد أي شــيء يؤنــس وحدتى، حتى وإن كان رفعت.

لم أستطع أن أخطو للأمام وأدخل إلى المطبخ، قررتُ أن أقدم على خطوة أخرى أكثر جرأة وإن كانت بالطبع أقل إيجابية.

التفــتُ بســرعة، هرولتُ بــكل ما أوتيت مــن قوة عائــدة إلى حجرة النــوم، أغلقــتُ الباب خلفي بشــدة وأعملــت المفتاح فيــه حتى رفض الاستمرار معلنا عن انتهاء مهمته.

جلستُ على حافة السرير مرهفة سمعي، ماذا سيفعل ذلك اللص بعدما سمع صفق بابي؟! مؤكد سيأتي مسرعًا، أعود في جلستي إلى الخلف فتتكوم الملاءة أسفل مني، عيناى مثبتتان على الباب، لا أستطيع الإمساك بأطراف تفكيرى، مشتتة بشكل غير عادي.

بعد لحظات تذكرتُ أني شاهدتُ في أحد أفلام مغامرات الأطفال أن اللص قد استطاع دخول الحجرة رغم أنها قد أغلقت بالمفتاح من الداخل، عن طريق قطعة رقيقة من المعدن يدفع بها المفتاح بهدوء ثم يتلقاه حال سقوطه فوق ورقة يسحبها وعليها المفتاح، بسرعة البرق قفزتُ نحو الباب، أخذتُ المفتاح وأخفيته داخل ثيابي.

وقفتُ أتأمل الباب، هل يمنع اللص حقًا من الوصول إليّ؟! هل أستطيع مقاومته إن حطم الباب ودخل الحجرة وحطم كل ما تبقى لدي من قوة وأضاعني أكثر مما أنا فيه من ضياع؟!

يا لـ حظى الأسود منك أيتها الحياة القاسية.. لديك أبواب مفتوحة على مصرعيها أمام البعض ومغلقة بأقفال من صلب أمام آخرين، وأنا من هؤلاء المغلقة أبواب الحياة أمامهم بأقفال من صلب لا مفاتيح لها.

قد يستطيع اللص كسر الباب بالفعل، يجب أن أفعل شيئًا، بما تبقى لدي من ضعف حركتُ مقعدًا ضخمًا من أحد الأركان لأضعه خلف الباب، لاقيتُ صعوبة شديدة كى أدير ظهر المقعد ناحية الباب وفي جعل أحد أجزاء المقعد تلامس طرف المنضدة التي تحمل المرآة حتى تقف المنضدة مدافعة أيضا في حال أى اقتحام.



جلسـتُ فوق حافة السـرير مـرة أخرى أنصت للحركـة في الخارج وسمعت صوت الثلاجة وهي تعمل، وإن كان هذا لا يعني شيئًا إلا أنني بـررت عمل الثلاجة بأنهـا فُتحت حتى فقدت برودتهـا وعادت للعمل مرة أخرى.

أعملـتُ الفكر قليلًا، بصعوبة جال في خاطرى فكرة أن اللص حال سماعه صوت إغلاق الباب، فإنه لابد أن يتوجه في أحد اتجاهين إما أن يهـرب، وإما أن يكون لصًا متهورا ويتجه ناحية مصدر الصوت هاجمًا، لكن ها هي دقائق تمر ولـم يهجم اللص.. إذًا هرب.. نعم هذا هو الرأي الأقـرب إلـى الصواب، فقد مـرت الدقائق ولـم يحطم بـاب غرفتى، ثم تمـر دقائق أخرى ولا أسـمع فيها أى حركة.. بدأت أهـدأ تدريجيا وقد ارتحت إلى هذه الفكرة.

جلسـة فتـاة مفزوعة ترتعـد خوفًا كانت جلسـتى، أضـم ركبتيّ إلى صـدري وقـد عقـدت يـديَّ حـول سـاقيَّ، أحمـى أجزائـي بأجزائـي، تدريجيًـا، مـع اختفاء صـوت الحركة في الخـارج، باعدتُ بين سـاقى وصدرى، تنفستُ.

أحيانـا يسـعد البعض بصفـة الجبن، خصوصًا إن ظهـر لهم أن تلك الصفـة قد أنقذتهم من خطر ما، نزل بشـجاع أمامهم. سـعدتُ بحسـن تصرفـي، مـا كان يجـب علـى أن أهجـم علـى اللص وحـدي وهو في المطبـخ، وإن لـم يكـن بالقوة التي تهزم جرأتى فلعله يسـتعين بسـكين مـن درج المطبخ الذي يحتوى على أنواع مختلفة من السـكاكين، وبها يستطيع أن ينتصر عليّ. أحسب أن الصواب رافقني فيما فعلت.

تمددتُ فوق السرير، جذبتُ طرف الغطاء، بدأتُ أفكر مرة أخرى بطريقة منتظمة،تشعبت طرق تفكيري في هذه اللحظة.

لم أشعر كم مر من الوقت، لكني شعرتُ بروحي تنزلق خارجة، تتخذ طريقها نحو تلك البئر المظلمة ذات المياه السوداء اللامعة، مرة ثانية، كدتُ أهوى فيها لكني صرختُ مستغيثة وأنا أجول بعينيَّ في المكان المحيط بحثًا عن يد منقذة، للمرة الأولى أشاهد المكان حول تلك البئر، أشجار بلا أوراق، أكوام بدت لوهلة أنها أكوام قمامة، لكنني لحظة تأملي فيها وجدتها أكوامًا من جماجم بشرية قد صُفت على شكل هرمي، صرخت وصرخت، فإذا برجل يقف على مقربة مبتسما كاشفًا عن أنياب صفراء مدببة ومن خلفه تولد سيدة نحيفة تعدل من ثيابها وتسبه بألفاظ ماجنة، أنظر خلفي فأجد الجماجم البشرية التي تنبعث منها روائح كريهة، فجأة أسمع صوتًا وكأنه قرع طبول حرب، أفزع وأفزع، لا أستطيع العودة إلى الخلف أو التقدم نحو الرجل صاحب الأنياب الصفراء المدببة، أصرخ.. أنادي.. أبحث عمن ينقذني.. أصرخ.. أصرخ..

دقات طبول الحرب ايقظتني فجأة.. لا.. إنها يد تطرق باب الحجرة، فزعتُ، أين أنا وماذا يحدث.. مَن يدق بابي بهذا الشكل.. تذكرتُ اللص.. هل عاد اللص؟!

ذهب الفزع سريعا مع سماعي صوت الطارق، كان « رفعت » الذي يناديني باسمي بصوت فزع، استغرقتُ لحظات حتى استوعبت الموقف كاملًا، تنفستُ بهدوء، أزحت طرف الغطاء، تعمدتُ أن أنزل



قدمي من فوق السرير الواحدة تلو الأخر ثم أقف بهدوء، تقدمت ناحية البـاب، وبنفـس الصعوبة التـي وضعتُ بهـا قطع الأثاث خلـف الباب حركتهـا إلـى مكانها مرة أخـرى، لا يزال رفعـت يدق البـاب، لـم أجبه مباشـرة كي لا يسأل عن سـبب تأخري في فتح الباب، تركته يعتقد أنني نائمة حتى أعيد المقعد إلى سـيرته الأولى. توجهتُ نحو الباب، رفعت يمسـك بالمقبـض مـن الناحية الأخرى فـي هذه اللحظـة ويحاول فتح الباب وينادي عليَّ بصوت مرتفع.

لم يسـتجب له الباب، تذكرتُ أنني كنتُ قد أغلقته بالمفتاح.. لكن أين المفتاح؟ وقفتُ أحاول تذكر المكان الذي وضعته فيه، لم اسـتطع. رفعـت يطـرق بابي بشـدة، صوته يوحي بقلق شـديد، يشـتعل الموقف فـي لحظـة ليزيد من توتري وارتباكي بشـكل قضى على تلك البقية من تفكيري المتزن، نسيتُ تماما موضع المفتاح، شعرتُ بالعجز والحيرة، لـم يكن أمامي فرصة فقد أوشك على كسر الباب، أجبته بهدوء :

ـ لن أفتح الباب يا رفعت..

تمـر فتـرة صمت، يبـدو أنه كان قـد تخيـل أن مكروهًا ألـم بي، أما وقد استـمع لكلماتـي التي جعلتها هادئة متماسـكة فقد شـعر بنوع من الاطمئنان، فمازلت حية على الأقل.

ارتبكـتُ وتوتـرت أكثر وأنا أسـأل نفسـي : لِمَ أفعل هـذا؟! لم أجد إجابة شـافية، ولـم يتركني رفعت لأبحث أكثر، فقد أخرجني من حيرتي وهو يسأل :

– لقد تأخرت بسبب العمل يا سوسن (ثم بعد فترة صمت) تعلمين مسئولياتى..!!

كأن هذه العبارة هي طوق النجاة لى، فقد فسر موقفي على أنه نوع من الاعتراض على تأخره، فليكن.. قلت بهدوء وكأني قد رتبت طويلاً لهذا الأمر:

ـ العشاء في الثلاجة، ولن تنام الليـ..

يقاطعني وقد شعر بشيء جديد في حياته، يتحدث بعجرفة لم يكن لها محل الآن بالذات:

ـ لا تكملى.. سوف أخرج.. (صمت)

لم أستمع إلى أى شيء يدل على حركته، أرهفت أكثر مقتربة من باب غرفتى، لحظات ويصك أذني صوت غلق باب الشقة عنيفًا. اندهشت من رد فعلى، فقد ظهرت على وجهي ابتسامة، نبعت من سريان راحة داخلية، ترتخى عضلات جسدي وخلفها أعصابي، أزفر وكأني أبعد حجرًا ثقيلًا من على صدرى، عدتُ إلى السرير، تمددتُ فاردة ذراعى على طولهما وأنا أنظر نحو سقف الحجرة، تذكرتُ مفتاح الغرفة.. دُهشت.. أين هو؟!

أوه.. وجدته.. كان في مكانه بصدارتى الحريرية، مددتُ يدي واستخرجته وأنا أتساءل:

ـ كيف لم أنتبه إليه؟!



يبدو أن القدر يساندني ويأنف معى من تواجد رفعت. فتحتُ الباب وتجولت في الشقة، كأني أتأكد من خلوها، وكأن حديثى مع رفعت كان قد ترك في المكان نبضًا من الحياة، أى شىء مهما كان ضئيلًا يمكن أن يعطى نوعًا من الاستمرارية، لقد تحرك الماء الراكد، علم رفعت أنني أمتلك موقفًا، لست نكرة على طول الطريق، لى رأى أيها الرفعت، لى شخصيتى.

ليس بهذا تتحدد الشخصية يا سوسن، وبختُ نفسى بذلك، ثم أجبت متلمسة تبريرًا يريح داخلى « شيء أفضل من لا شيء، قليل يحافظ على الاستمرار أفضل بطبيعة الحال»

تذكرتُ أني شاهدتُ في قريتنا ذات يوم كلبًا يأكل برسيمًا!! رأيتُ ذلك بعيني وإن حدثني به أحد لكان من الطبيعى ألا أصدقه.

أى شيء وإن قل يعطى طاقة للمواجهة، حديث رفعت أشعرني بالونس وإن كنتُ فظة غليظة القلب. « بعض ما عندكم يا سى رفعت» قلت ذلك بصوت مرتفع أخاطب به فضاء الصالة، سرت في جسدي راحة جديدة. سؤال لا أدرى سببه راودني فجأة :

- لما نتزوج؟

فغرتُ فاهي فجأة كمن فوجئت بهذا السؤال، ابتسمتُ ابتسامة نصف بلهاء، رفعتُ جانب وجهي الأيمن حتى اقتربت عيني اليمني من الانغلاق، وكأنها تهرب من مواجهة ذلك السؤال. نعم.. لماذا نتزوج؟ لابد من أن أعثر على إجابة شافية لهذا السؤال.. والآن يا سوسن.

لـن أسـتطيع أن أجيـب على مثل هـذا السـؤال بالنيابة عن البشـرية جمعـاء، لكـن متـاح لـى.. بـل هو حـق أصيل لـى أن أجيب علـى هذا السـؤال إذا وجهه أحدهم لى « لماذا تزوجتِ يا سوسن؟ » وقتها سوف أجيبه بأنني تزوجت لأكثر من سـبب، أول هذه الأسـباب أنني.... أنني مـاذا؟!.. نعـم.. أنني وصلتُ سـن الـزواج.. وأنني يجـب أن أتزوج.. وأنني يجب أن أخفف العبء عن كاهل والدي الفقير..

سوسن.. سوسن..

نعم..

كفاكِ هراء..

ويخـتُ نفسـى بهـذا.. بالفعل أى هـراء أتحدث بـه، تزوجت لأني وصلـتُ سـن الـزواج!! كثيرات يعشـن بـلا زواج ويكبرنني بسـنوات وسـنوات. تزوجتُ كى أخفف العبء عن والدي الفقير!! كان يكفيني العمـل ومسـاعدته، بـل والتواجد فـي المنزل لتخفيف عـبء الأعمال المنزلية وتربية أخوتى عن كاهل أمى.

إذن.. لماذا تزوجت؟! صرختُ بها..

و باتسامة بلهاء فيها دلال الأطفال أجبت : الناس لازم تتجوز.

فجأة تغيرت ملامحى، شـاهدتُ انعكاسـها في المرأة أمامى، يجب ان أعثر على إجابة لهذا السؤال المرير، كفي هروبًا.

أعتقـد.. لا.. ليـس إعتقـاد.. هـو أمـر حقيقى.. لـذا يجـب ألا أبدأ جملتـى بـ أعتقـد.. إنما يجب أن أقول : أحسـب أن الناس يتزوجون..



لا.. لا.. كلمة أحسب أيضا فيها شك واحتمال، أريد أن تكون إجابتي قاطعة حاسمة، لذا فأنا سوف أجيب بما يلي:

- الناس يتزوجون للحفاظ على السلالة..
- الحيوانات أيضا تتكاثر للحفاظ على السلالة.. يجب أن تكون هناك ميزة لبني البشر!!
- الناس يتزوجون كي يشبعوا تلك الرغبات الـ..
- أيضا الحيوانات تتكاثر لتشبع غريزتها!!
- أوف.. حاضر.. الناس يتزوجون لأنهم يمتلكون رسالة، ينجبون أجيالا أخرى تحمل تلك الرسالة عن كاهلهم.

لم يجادلني نصفي الآخر القابع في قلب المرآة، يبدو أنه اقتنع بإجابتي الأخيرة، سعدتُ بذلك كثيرًا، ها أنذا أعطي إجابة شافية، لكن أي رسالة يا سوسن تحملينها وتودين أن تلقي بها عن كاهلك لجيل جديد؟!

يجب ان أبحث عن رسالتي التي أحملها، لكن قبل أن أُعمل العقل بحثًا، راودني سؤال آخر أكثر إيلامًا: هل أستطيع صياغة رسالتي مع زوجي هذا؟!

رسالتي في قلبي.. وقلبي مغلق.. ولا يزال من يحمل شيفرة أقفاله في رحم المجهول. نعم لن تظهر رسالتي إلى الوجود إلا مع ذلك الشخص الوحيد في العالم الذي يحمل شيفرة قلبي، لكنه ليس زوجي هذا بطبيعة الحال، رفعت آخر شخص في العالم يحتمل أن يكون حاملًا

لتلك الشيفرة، آخر شخص في العالم يُحتمل أن يكون حاملًا لذلك المفتاح الوحيد الذي يفتح أبواب ذاتي، كي تنسال قدراتي ولذاتي ورسالتي، كي تنزلق من قلبي آهاتي، كي يخرج ذلك المارد الجبار، كي تخرج تلك الأنثى المتنمرة، كي تمتزج بالكون ذراتي. الزواج هو بداية كل تلك الأشياء، هو النور المنبثق من عنان السماء ليجمع بين قلبين.. بين عقلين.. بين جسدين.. يمزج بينهما.. يصهرهما.. لينتج إبنا.. خلاصة طاقة الجسدين الرائعين.. سيكون إبنا غاية في الروعة لأنه أتى نتاج لحظة ولا أروع.. لماذا يوجد إذن أبناء أغبياء.. بلهاء؟!! يبدو أنهم نتاج لحظات جماع أكثر غباءً.. يبدو أنهم نتاج تصادم أجساد حجرية ما زالت قلوبها مغلقة.. أو لا تدرك أنها تمتلك قلوبا من الأصل.



«ليس النوم للراحة بقدر ما هو متنفس
لكل ما نرفض البوح به»



(21)

نـــــزوة

يطـرق بابـي غريب ليخبرني بـأن زوجى قتل في حـادث، قطع عليه مسـلحون الطريـق، طلبـوا منه مغـادرة سيارته وتفريـغ كل جيوبه، في البدايـة يحـاول الرفـض متعاليًـا، لكنـه ينصاع مـع أول لكمـة.. يرتعد خوفًا.. قبل أن يرحلوا ويتركوه في العراء يخبر أحدهم زميله بأن رفعت قد تعرف على ملامحهم.. بدون تفكير.. يصوب أحدهم مسدسـه نحو رفعت ويقتله.. هكذا بمنتهي البساطة.

أسـتيقظ من نومى مأخوذة بتلك الأحداث التي خرجتُ من قلبها.. أجد رفعت يقف أمامى مبتسمًا.. أنظر حولى.. أبحث عن ذلك الكاذب الذي أخبرني أن رفعت قُتل.. أشـاهد السـاعة.. تشـير إلى موعد عودة رفعـت مـن عمله.. تشـير إلـى مرور سـاعات ذهبـتُ فيها إلـى أعماق رغباتى عبر نومى القريب من الموت.



رفعت لم يتأخر كعادته، يداعبني فأبعد يديه بعنف.. يبذل جهد كي يكـون أكثـر طرافة.. يتناول شـيئًا من المطبخ بسـرعة، ثم يقول بشـكل كوميدي يتنافي مع طبيعته وهو يتوجه نحو غرفة النوم :

- سـوف أدخـل حجرة نومنـا أولًا.. مـا دامت الأمـور متعلقة بمن يُسرع!!

شـعرتُ بأنه يمتلك ثِقل دم رهيـب، تماوجت على وجهي علامات أسـى وسخرية، يمضى إلى غرفة النوم ويغلقها خلفه، لم أهتم بما قاله، أنهيـتُ لـه طعامـه، ببطء توجهـت نحو الغرفـة، ألفيته قـد أغلقها خلفه بالمفتـاح، إنه يمتلك مفتاح باب غرفة النـوم الآن، ليتك تمتلك مفتاحًا آخر يا هذا، طرقتُ بابها، يُجيب مقهقهًا:

- لن أفتح.. أنا مَن أتيتُ أولًا.

نعـم أنـت من أتيت أولًا، ومعك شـيء مـن بريق المـال، مع وظيفة كانت سـببًا في إجهاض أنوثتى، ووأد روعاتـى، وقتل جانب عظيم من روحى، تلك الروح التي أتت إلى الوجود بنفخة من روح خالق الكون.. آه يـا قاتـل.. آه يا محتال.. يا مَن انتحلت شـخصية حامـل مفتاح قلبي، وددتُ لو صرختُ بها بأعلى صوت.. لكني تماسكتُ، قتلتُ أهاتى في قلبي الحزين، نعم قتلتُ أهاتى.. لقد تحولتُ إلى قاتلة أنا الأخرى، كل واحد منا قاتل أيها السـادة، ليس بالضرورة أن يكون المقتول شـخصًا، قد يكون معني.

النـاس يذهبون إلى الأطبـاء لمعالجة أمراضهم التي يشـكون منها، أما أمراضهم التي يشـكو منها غيرهم لـم ولن يهتم بها أحد.. الكذب..



الطمع.. الأنانية.. السـادية.. وغيرها أمراض كثيرة.. ضررها يؤذى مَن هـم حول أصحابها بقدر كبير، لا يشتكى صاحب هـذه الأمراض.. لا يئـن.. لذا لا يذهب إلـى الطبيب لعلاج مرضه.. لـن يذهب رفعت إلى طبيـب كى يطلب عـلاج لبلادة مشـاعره.. أصحاب هـذه الأمراض لا يدركون أنهم مرضى، وإن أدركوا.. لن يتحركوا خطوة واحدة في طريق العـلاج.. أمـا إن أصيـب أحدهم بمغـص أو صداع أو عـدم انتصاب.. يهرول مفزوعًا بحثًا عن علاج لمرضه!!

أخبـرتُ رفعت بأنني أنتهيتُ من إعـداد الطعام، حمّلتُ نبرة صوتى الهـدوء والثبـات، وأن الوقت ليس وقـت هذر. طريقة إلقـاء الكلمات قد تحمل من المعاني أكثر مما تحمله الكلمات نفسـها، يستشـعر مدي جديتى، يخرج.

تناولنا الطعام في صمت، لسـتُ أكولة بطبيعـة الحال، كنت أداعب قطـع الطعام في الأطباق، أتناول القليل، ألوكه في فمى طويلًا، أختلس النظـر نحـوه فأجـده يأكل بنهـم، لا يكاد يمضـغ طعامه حتـى يلقى في فيـه بكميات أخـرى، راقبتُه دَهِشـة، لم ألحظ عينيّ وهمـا تفتحان على اتسـاعهما وأنا أرقبه، طالت المدة، يستمر أطول مما ينبغى، الغريب في الأمـر أنه يتنـاول الطعام على طـول الوقت بنفس النهـم، للمرة الأولى التـي ألحـظ فيها هـذا، الطبيعى وإن كان الفرد يشـعر بجوع شـديد فهو يُقبـل علـى الطعام بشـدة ثم تتراخـى عضلاتـه ويهدأ مـع الوقت، يقل منحنـي الإقبـال، لكـن رفعت ظل علـى نفـس الوتيرة حتـى ينتهي من طعامه فجأة، ينظر نحوى بسـعادة الممتلئ، يتأملني لحظات مستفسـرًا

عـن عـدم إقبالي على الطعام، لم يلحظ دهشـتي من سـلوكه، لم يلحظ اتساع حدقتي عيني دهشة، يمط شفتيه، يتوجه نحو الحمام ليغتسل.

وقفتُ لأحمل الأطباق وأنظف المائدة، يأتي من خلفي ويحتضنني بقـوة الممتلئ، يبدو أنـه يمتلك طاقة كبرى، بعد هـذا الكم من الطعام، ويود لو يتخلص منها. انتظرت لحظة حتى يتركني كي أكمل ما أقوم به، لكنه لم يتركني، لقد جذبني نحوه بشـده، شـعرت به شبقًا خلفي، فجأة يحملني، نعم حملني منتشـيًا إلى السـرير، رغم شعوري بالاشمئزاز إلا أنني لم أعترض، بحثتُ عن مشـاعر المحمولة المدللة!! لا شـيء.. بل شعرتُ بضغط يديه تمسكاني بقوة فتألمتُ.

تركتـه يلتهمني وأنا أضع على ملامحي علامات النشـوة التي أغطي بهـا ما يعتمل في داخلـي، الحقيقة أني كنتُ أفعل ذلك رغبة في سـرقة بعـض تفاصيل الطبيعة، أحـاول أن أثبت أنني إمـرأة تعيش مثل غيرها، تستمع وهي في أحضان زوجها.

بعد دقائق ولـم أكن أشعر بلذة حقيقية جراء ممارسة الجنس، حاولتُ أن أفعل أمرًا جديدًا، طلبت من رفعت الخروج ثم الاستلقاء على ظهره، جلس لحظة يستوعب ما طلبته منه، ينفذ منتظرًا مثل تلميذ.. اعتليته في البدايـة بهدوء وهو يتابعني بدهشـة، ثم بدأت أتحـرك فوقه أمامًا وخلفًا بقوة. لـم أكن أعلم طبيعة داخلي في تلك اللحظة، هل أبحث عن سلوك طبيعي، لذة مفتقدة، أم أمارس إنتقامًا منه فأضعه أسفلي لأسحقه. يبدو أن الرغبـة الأخيرة هي التي سـيطرت على تفكيـري، فقد وقفت وكنت عارية تمامًا، بينما ينام رفعت عاريا أسفل مني، بين ساقيّ الذين يمثلان



رقم (8)، مددتُ يدي واستندتُ إلى الحائط أمامي كي أحافظ على توازني، بهدوء حركتُ قدمي اليمني لأداعب بأصابعي أذن رفعت، أمس بها وجهه ثم شفتيه، في اللحظة التي وددتُ فيها أن أدهس وجهه بقدمي، يتناول أصابع قدمي بشفتيه ليمتصها إصبعًا إصبعًا، بدأتُ أشعر بشيء من النشوة، تركتُ أصابعي له، كانت يده الأخرى تتحسسني من أسفل، لم أتمالك هزات اللذة فجلستُ فوقه مرة أخرى ألتهمه ملتذة.. منتقمة.





«الروعة التي تنثرها ثمرة التفاح.. أروع بكثير من طعمها»



(22)

خمول

هـل ممارسـة الغرائز تقـى من الأمـراض؟! يبدو ذلـك، فقد عادت الحيـاة إلـى طبيعتها ليـوم أو يومين علـى الأكثر، كنت أشـعر خلالهما بأني إنسـانة طبيعيـة.. لا أعاني من أى توترات، بـل وصل بي الأمر في البدايـة إلى مرحلة تكسـو فيها البسـمة وجهي. تذكـرتُ ذلك الحديث الذي وصلني مصادفـة، حديث بين عدد من الموظفين، لا يعلمون أني خلـف الحاجـز المجاور لهم، كنـت قد توقفتُ للحظة كـى أنظم ثيابي قبـل الدخول إلـى مكتبهم لقضاء بعض الأمور الوظيفية المشـتركة بين إدارتـى وإدارتهم، مـا إن وصلتني تلك الجملة الصادمة حتى تسـمرتُ في مكاني، قال أحدهم:

- سعادتها نابعة من حالة الشبع الجنسى.

أجابها آخر ضاحكًا:

- سعيد زوجها.. ينعم بمفاتنها الرائعة كل ليلة.. أناس لها بخت..



لـم أسـمع أكثر مـن ذلـك، خلعـتُ أقدامـي مـن الأرض ورجعتُ إلـى مكتبي في هـدوء كي لا ألفـتُ الأنظار. كيف يتم تـداول مثل هذه الأحاديث في أماكن العمل؟! ترى.. مَن تلك السعيدة بشبعها الجنسي؟ حاولـت البحث عنها بين العاملات في المستشـفي.. أخيرًا توقعتُ أن تكون طبيبة أربعينية جميلة حقًا.. تدير قسم تنظيم الأسرة.

أتذكر حالة الهدوء التي عشتها بعد ممارستي الجنس الشره مؤخرًا.. لكن القلق والخوف ظهرا مجددًا ولم يتركاني، وإن كنت أحيانًا أتحلى بشـجاعة ولكنها كانت شـجاعة واهنة. كيف تحولـت قوتي وصمودي إلى ضعف؟ لا أدرى!

يبـدو أن أسـباب الهـلاك سـريعة ولا نسـتطيع ردهـا، والمصائـب كالأمـراض، إن تُركـت تضخمـت وصعـب علاجهـا، فلم أعـد أقاوم الصـداع أو الإمسـاك أو الخـوف المزعـج. يتحـول الأمـر إلـى نفـس المسميات ولكن بكثافة أعلى، أوشكت على الدخول في منطقة أخرى لا أسـتطـيع أن أسميها. لكن من أعراضها أنني لم أعد أتحمل الآخرين كما كنتُ من قبل، حتى في العمل نفسه، تهدأ شعلة النشاط مرة واحدة، وكأن لا ريـاح تجعـل الأوراق تهتز فكنت أؤدي عملي بشـكل روتيني ممل، أشـعر بضيق شـديد إذا دخل إلى مكتبي أحد المرضى أو ذويهم، لا أريد رؤية أحد ولا أريد أن أعمل. أعمالنا تتأثر بمشـاعرنا، ويبدو أننا جميعًا فشلنا في إدراك مشاعرنا الحقيقية، لأننا لا نعمل بشكل حقيقي.



رفعت نفسه بدأ يشعر بذلك، الحقيقة أني لم أكن أعطيه الحب، وإن كان ما يستشعره وقت ممارسة الجنس حبًا، فعليه أن يقنع بما يستشعره، أما أنا فلم أجد فيما أقدمه حبًا على الإطلاق.

كيف يكون الحب إذن؟ سألت نفسي هذا السؤال، بحثتُ عن الإجابة بداخلي، الحب بمعناه الكامل هو أكثر بكثير من مجرد ممارسة الجنس لدقائق، إنني إن قدمتُ حبًا، بلا شك أقدم جسدًا وروحًا، أجعل من نفسي وسادة من آهات العشق والهوى، أعانق حبيبي بكل خلايا جسدي، لن يكون الاحتواء بما بين فخذي أو شفتي، إنما سوف أضمه بكل خلايا جسدي، أذيبه لأمتصه، ثم أذوب ليمتصني بداخله، سوف تفرز مسام جلدي كلها مواد جنسية، سوف أتكور بين ثناياه ليحتويني، ويضمني أكثر وأكثر، أكون قطعة إسفنجية بيضاء هشة، أكون زهرة مخملية تفوح بعطور العالم، أكون أخف من ريشة، شفافة كسحابة صيف، رقيقة كما نسيم شمالية، سأجعل جسد حبيبي في حالة نشوة كاملة، وأجعل روحه تفارق جسده لتعانقني هي الأخرى مع جسده، سوف نحرك معًا كل آيات العشق المجهولة الكامنة في الجماد من حولنا، ستشهد علينا الوسائد والأغطية والمرآة وقطع الأثاث وجدران غرفتنا، سوف تمتزج أرواحنا بالجماد من حولنا فتجعله يمارس الجنس مثلنا، سوف تفرز تلك الجدران سائل العشق الأبدي، وتهب نسمات عبر النافذة لتستقى من رحيقنا وتخرج به إلى العالم من حولنا لتبلغه أن سوسن تقدم إلى مَن تُحب كل ما تملك، تقدم عشقًا أسطوريًا، تلتذ بممارسة الجنس مع حبيبها حتى إن قلبها يكاد يتوقف من فرط اللذة.

هــذا هــو الجنس الذي ســأقدمه لمن أحــب، أما رفعت فلــم أقدم له إلا جســدًا بلا مشــاعر حقيقية، رغم ذلك كنتُ أنتظر أن يعطيني جنسًــا كاملًا.. ولم لا وأنا أتركه ينال حقوقه الزوجية.. وإن كانت جافه.

مــع مرور الأيام ســئمتُ مــن الكذب على ذاتى، امتنعــتُ عن تقديم هذه الحقوق، أثور إن هو طلبها.

الحقيقــة أن ثورتــى كانت دائمة، مثلًا أثور فــي حال طلب كوب من الشــاى بعد طعام الظهيرة، رغم أن إعدادي لشيء كهذا أمر طبيعى، بعد أن أمضيــتُ فــي المطبخ وقتًا طويلًا فــي إعداد الطعــام، لكن أن يطلب هو، فهذا لـم يكن الطبيعى من وجهة نظرى أنا، ساءلتُ نفسى ذات مرة، إنه أمر طبيعى يا سوسن، خاصة أنه لـم يطلب إلا بعد تقصير من ناحيتي أنا. أغيب في دهاليز فكرى المظلمة لحظات بحثًا عن تبرير منطقى لما أفكــر فيه، أعود بفكرة: لماذا لا يســاعدني أو حتى يخدم نفســه في أمر تافــه مثل تحضير كوب من الشــاى، ألا يكفيه أنني أقــوم بكافة الأعمال المنزلية، فلم لا يشــاركني في تحقيق أقل الأمور، هو مُقصر ومذنب بلا ريب.

أصبحتُ أثور وأصرخ في وجه رفعت، أثور لاعنة كل شىء حــولى، الظروف، المعيشــة، حتى نفسى، فأنا التي سلكت هذا الدرب الشائك، فلأتحمل النتائج.

***

«كثيرة هي الشروح.. قليلة هي المعاني التي تصل»

(23)

جنون

أشبه بالناقهةُ الخارجةُ من مرض شديد، وردة ذابلة، كوب ملوث يحتوى على بقايا جافة يحتاج لغسيل جيد. لما طالت مدة انقطاعي عن زيارة والديَّ، أتيا يعوداني، تخف أمى لتنفرد بي للاطمئنان.

حاولتُ جاهدة التماسك والظهور بشيء من سابق العهد، لحظات ثقيلة تمر ببطء السلحفاة، كيف أشرح لأمى أمر أجهل تفاصيله، لو أدركته لما عانيت، قررتُ المحاولة، تبعثرت الكلمات في جوفي وعلى أطراف لساني، تحول رأسى إلى غابة أفريقية، فشلتُ ولم أخرج من المحاولة إلا بتمزق داخلى يكاد يقضى على ما تبقى لدي من هدوء. انفعلتُ بشدة، اشتعل صدرى وعلا لهيبه، ينتفض قلبي، صببتُ جام غضبي على أمي، ألقيتُ عليها وعلى والدي أسباب تعاستى، يزداد بكائي فينحشر صوتى، تغالب أمى دموعها وتحتضنني، احتميتُ بصدرها أبكى بشدة.



تخرج مُسـرعة، ترتعد من شـدة الخـوف عليّ، تتوجه إلـى رفعتُ، يـدور بينهما حوار بسـيط، يسـتطيع خلاله رفعت أن يحتـوى غضبتها، شعرتُ بعجرفته تصلني حجرتى، زادت حالتي سوءًا.

بعـد ضغط رهيب على أعصابي تمكنتُ منها فجمحتُها، يلفني قليل مـن الهدوء، أجفف دموعى، أخـرج إليهم في الصالة، آأنف أن تسـقط نظراتـى على رفعـت، أتوجـه بحديثى مباشـرة إلى أمـى، متجاهلة أبي أيضًا:

- أمى.. رفعت لم يفعل شيئًا.

تتأملني دَهِشـة لحظات وهي تنقل عينيها بيننا ثم تزم شـفتيها بشـدة قبل أن تقول :

- أنا أمك وأعرفك جيدًا يا سوسن.

أجبتها بشـدة تتنافي مع حالة الهدوء التي أعلنتها لحظة خروجى من الحجرة :

- أنا أدرى بذاتى يا أمى.

كنتُ أشعر برفعت يراقب ما يحدث وقد فغر فاهه، بدا ذلك في نبرة صوته حينما قال:

- لابد من تقديم تفسير حالا يا سوسن؟!

- تفسير عن أيه..؟؟

- عن أفعالك غير الطبيعية في أيامنا الأخيرة؟!



ارتبكتُ لحظة، شعرتُ بألم شديد في جانبي الأيسر، على وجه الدقة في مكان صغير يقترب في حجمه من حجم العملة المعدنية، استمر الألم وأنا أستشعره في داخلي بينما أتابعهم بنظراتي، بعد لحظات ينتقل الألم إلى مكان آخر، تبعته حتى أحدد مكانه، ينطلق بداخلي كثعبان يتلوى، إن سألني الطبيب عن ألمي، فلن أستطيع أن أسميه باسم أو أصفه بصفة ولكنه آلمني كثيرًا.

في اللحظة التي سأل فيها رفعت طالبًا تفسير ما حدث من أفعال في الأيام الأخيرة، انتفض هذا الجزء المؤلم بشدة، مرت فترة صمت طويلة والجميع يسلطون لحظهم نحوي، ينتظرون إجابتي التي لم تزد عن:

- لا شيء.

هنا يعتدل والدي في جلسته فيترك ظهره مسند المقعد الوثير الذي كان يرتكن إليه مستشعرًا لذة ثمنه الباهظ، ثم يسأل منفعلًا:

- ماذا؟! ترى ما وصلتِ إليه يا بنيتي.. جسدك يضيع وتقولين بمنتهى الهدوء: لا شيء!!

لم أجد إجابة، لم تنبس شفتاي بحرف واحد، اكتفيتُ بالنظر إلى ثلاثتهم بهدوء، أتجول على وجوههم، أنصت إلى هسيس أنفاسهم، يصل أذني دقات قلوبهم المتوترة، ينتظرون مني حديثًا طويلًا. مطلوب مني تقديم تبريرات عن تصرفاتي، هكذا يريد حضرته، يضعني في زاوية كفأر صغير ويشهر فردة شبشب كي ينهال فوقي بضرباته الموجعة، يحتاج إلى مَن يعاونه، يستعين بوالديّ!! يا لها من بغيضة المنظر تلك

الفئران، هل أبدو مثلها الآن بغيضة المنظر؟ بدون أن أشعر رفعت أنفي إلى أعلى وكأني أتشمم المكان مثل فأر ضل طريقه.

شعرتُ بتوتر يملأ المكان، أحسست بأن هذا الشيء الموجود بداخلي لم يعد يؤلمني، وإن كان لا يزال موجودًا، بل يوحي إليّ برفضه التام لهذا التوتر، وتساءلت في دهشة صامتة :

- لِمَ كل هذا الحزن على وجوههم؟!

هممتُ بأن أتحدث إليهم، لكني توقفت قبل أن تخرج الكلمات من فمي، ففي هذه اللحظة راودتني فكرة غريبة نوعًا ما، حتى إن دهشة عظيمة تملكتني، فقد أردتُ أن أسمع " نكتة " حتى وإن كانت قبيحة، آه لو وقف رفعت وتوسطنا ثم ألقى على مسامعنا نكتة قبيحة، لو فعل ذلك لتغيرت حياتي كلها وما مررت بكل ذلك الجحيم الذي ينتظرني، لكنه لم يتحرك، لم يخرجنا من هذا الجو المتوتر، المشحون، البشع الذي يحطم الأعصاب، لم أجد الكلمات التي تعبر عن داخلي، زاغت عينايّ لحظات ولا أزل أتأملهم دَهِشة.

فجأة أقدمت على فعل بدا لي في هذه اللحظة بالذات أنه أفضل شيء يجب القيام به، بدا أنه أطرف فعل سوف أقدم عليه في حياتي بأكملها، ولم أفكر في عواقبه ولكني فعلته مباشرة.

أخرجتُ " لساني " لهم.

قبل أن ألحظ تعبيرات وجوههم، طار هذا الشيء الصغير بداخلي جذلًا، فرحًا، منتشيًا، ثم ضحكتُ، ضحك طفوليًا جميلًا، تملكتني



رغبـة أن أقـف فـوق المقعـد الوثير الذي يجلـس عليه والـدي في هذه اللحظـة، كـي « أتنطط » فوقـه كما الأطفال، ولكن الثلاثـة قابلوا حركة إخـراج لسـاني بالدهشـة والاسـتهجان، حتـى إن أمـي انكمشـت فـي جلسـتها، وأطاح أبي بيده في الـهواء مشـيحًا بوجـهه إلى الجدار الذي يفصل حجرة نومي عن الصالة وأعتقد أنه لم يلحظ سـاعة الحائط التي أخبرنـي رفعت عن كونها باهظة الثمن، فهو مولع بإظهار قدراته المالية أمـام الآخريـن، رفعـت في هذه اللحظة قال نصـف كلمة ولم يكمل (مجنـ. .)

ثلاثـة حـروف نطـق بها رفعـت، نصف كلمـة، ولكنها كانـت كافية لأن ينقلب كل شـيء بداخلى فجأة، تحولت سـعادة الطفل إلى شراسة حيوان مفترس، تصعد الدماء إلى رأسـي، أشـعر بالسـخونة تسـرى في أذني وأكاد أراها تحمر تدريجيا كقطعة دجاج تُشوى على الفحم.

كـدتُ أحرقهـم بنظراتى الوحشـية، وددتُ لو قمتُ بأشـياء عديدة، لكني صارعتُ رغبتى، فأسرعتُ إلى غرفتى وأغلقتها خلفي.

توقعتُ أن تتبعني أمى منهارة شَفِقَة، أن يقف أبي ليهجم على رفعت الـذي أوصلني إلى هذه الدرجة، أن يقف رفعت ليمتص غضبتهم ويعد بنقلى إلى عالم خيالى من المتعة والسـعادة، لكن لم يحدث أى شـيء، آلمني ذلك كثيرًا، آلمني ذلك لا لأنهم لم ينقذوني من السـقوط في بئر مظلمـة جافة، بل لأنهم لم يعطوني الفرصة كى أنتقم من ثلاثتهم، كنتُ قـد أعددتُ لهم رد فعل شـديد ضد طبيعتي. لـم لا وقد أثاروا حفيظتى واشـمئزازي، كنـتُ علـى أتـم الاسـتعداد لأن أهجـم بوحشـية عليهم

لأضربهم، سـوف أغرس أظفـارى في وجه رفعت حتـى تخرج بلحمه صانعة شـلالات من الدماء، فيتقدم والدي ليجذبني فأدفعه بشـدة عني وأكتم صراخ أمي المنهارة.

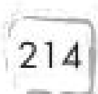
لكن أحدًا لم يجرؤ على مواجهتي، خيرًا فعلوا..

جلسـتُ فوق حافة السـرير أترقب الانفعال الطبيعي الذي يجب أن يصدر عني، لكنه لم يصدر، لابد لي أن أنفعل وأثور، أبكي بشدة. لكني لم أفعل ما كنت أراه ضروريا، فزاد حنقي.

الأسـوأ أنني ألفيـتُ داخلـي هادئـا تمامًا، حتـى إني ابتسـمتُ، بل ضحكـت لحظـة تذكرى « إخـراج لسـاني للجميع مع بحلقـة بالعينين ». نعـم.. تذكرتُ الآن أنني أوسـعت عينيّ كالمجنونـة، لا أعلم لماذا التصقـت صورة إتسـاع العينيـن مع إخراج اللسـان بالجنـون! تذكرت ثلاثتهـم في الصالـة، كان يجب أن يضحكوا، لا يجـب أن يعيش المرء جاد على الدوام.

أرى ضـرورة وجـود أوقات تتسـم فيها الشـخصيات الجـادة بخفة الدم، يُطعم الحديث الجاد بالحيوية، ارتحت لذلك التفسير، لستُ بفتاة مجنونة تخرج لسانها بلا مبرر، إنما أردتُ أن أخفف من حدة انفعالهم.

أحيانـا تمـر بالإنسـان لحظات يرغـب فيهـا أن يكون بليـد الحس، فالبلادة ورسـم الابتسـامة رغم صعوبة المواقف، تجعل كل شيء يمر. هذا ما فعلتُه في هذه اللحظات، رسمتُ ابتسامة بليدة على وجهي وكأن شيئا لم يكن.



بعـد دقائق، مرت ثقيلـة، يصلني صوتهم، رغم خفوتـه، يقررون أن هناك شـيئًا غير عادي يحدث، ويجب أن نسـافر، أنـا ورفعت، للتغيير، فالحياة على وتيرة واحدة تتيح الفرصة لتسلل الملل ومن ثم المرض.

هنا لم أسـتطع تمالك نفسـي، ألفيتي مثل سـمكة حية وضعها شرير على النار، انتفضتُ مكاني متألمة نيران الغضب. خرجتُ لهم مسـرعة حتـى إنهم فزعوا، تعجبت من فزعهم!! هل شـاهدوا عفريتًا؟! ما الذي يفزعهم هكذا؟ يعلمون بوجودي في الشقة ومن الطبيعي أن أعود إليهم لأنني ببسـاطة تركتهم من دقائق، ومَن يترك المكان يسهل عليه أن يعود إليه، فلماذا الفزع؟!

لـم أجد مـا أتحدث به مباشـرة، يطبق علينا الصمـتُ إلا من صوت تنفسي الذي بدا مرتفًا للغاية، وقفتُ أمامهم وقد بدا أن بداخلي انفعالًا شديدًا، انتظروا أن أخرج انفعالي، فقد زمت أمي شفتيها، وأطبق والدي قبضتيه وضمهما إلى جانبيه، اما رفعت فقد ترك فكة السـفلي يتدلى في بلاهة، فزاد من صورته البشعة المترسبة بداخلي.. بعد لحظات تحدثت بهدوء غريب إلى والدتي:

- أمي.. أريد تناول خضار طازج.. الأن.

تتجول نظراتهم الدَهشـة في المكان حتى تسـتقر عليّ، الأغرب من ذلـك هو أنني نفسـي تعجبـتُ جدًا من هـذا الطلب بالـذات، وفي هذا التوقيـت!! ذلك لأنه لم يخطر لي علـى بال قبيل التفوه به، ثم كيف يتم ذلك في هذا التوقيت، فنحن قد اقتربنا من منتصف الليل..؟!

لم أجد ما أفسـر بـه طلبي إذا هم سـألوني، لذا تركتهـم وعدتُ إلى حجرتي مسرعة مغلقة بابها بالمفتاح.

كما في المرة السابقة، جلستُ فوق حافة السرير، لحظات وابتسمتُ بشـدة حتى إني ضحكت بهـدوء، ثم يعلو صوتـي تدريجيًا ليرج أرجاء غرفتي، بينما طرقاتهم على باب تتزايد.

***

«التعبير عن آلام النفس.. يريح الجسد»



(24)

ترانيم

أفقتُ على صوت المؤذن ينادي لصلاة الفـجر في المسجد القريب منا، رفعت نام في الصالون، بينما والداى ناما، كالعادة في حالة زيارتهم لنـا، في الغرفة الخلفية التي تحتوى على بعض الأثاث البسـيط، أعدها رفعـت على هـذا الطراز لمثـل هذه المناسـبات. ناموا بعدمـا أخبرتهم بأنني لن أفتح الباب، وإن كسـروه ألقيتُ بنفسـى مـن النافذة، فقط أود الانفراد بذاتى، غلبتهم حيرتهم فانصرفوا عني.

وكأن النـوم لـم يقترب مـن جفوني، نظرتُ إلى ذاتـى فألفيتها يقظة تمامًـا، لا أشـعر برغبـة ولـو ضئيلة فـي النـوم أو حتى آهـة إرهاق، كل مـا كنـت أهتم به فـي هذه اللحظة هـو التصرف الصادر منهـم كرد فعل لتصرفاتى السابقة.

تنعـدم رغبتى في تحقيق أى شـيء حتى الذهاب إلـى العمل، ينبلج الصبـح، انتظرتُ يقظتهم، تبدأ الحركة في الشـوارع كهسـيس يسـتحى إيقـاظ النائـم. فتحتُ النافذة، شـاهدتُ سـحابة كثيفة مـن الضباب في

مستوى الطابق الثالث تقريبًا، أعلاها أشعة الشمس وأسفلها حركة الخلق الخفيفة. السحابة في الفضاء كالبساط، ظلت تقاوم أشعة الشمس لحظات حتى تنقشع تمامًا.

لا أعلم لماذا تملكتني رغبة في التصدي للجميع، خاصة عندما تذكرت قرارهم أمس بسفرنا بغية التغيير، ثارت ثائرتي، فهل أنا دمية يحركونها في أى اتجاه شاءوا؟ لابد وأن أعترض، فهم يستحقون هذا، خصوصا رفعت هذا.. ووالدي أيضا.

سمعتُ أصواتًا في الصالة دالة على أن الحياة قد عادت إليهم مرة أخرى، خرجتُ مسرعة، ما بدا على وجهي من إرهاق شديد، من أثر عدم النوم إلى جانب الانفعال والتوتر، لم أشعر به بداخلى، لم يهزم وجيب قلبي.

تجاهلتُ ابتساماتهم « الخبيثة « التي قابلوني بها، تحدثتُ بانفعال وعصبية وأنا أحرك يديّ في الهواء باتجاه رفعت مرة، ووالدي مرة أخرى، كان حديثي إليهم الثلاثة عنيفًا، بدأته طالبة من أمى عدم الذهاب إلى السوق، تحدثتُ :

- أمي.. أنا لا أريد الخضار الطازج، لم أعد أريد الخضار الطازج الأخضر الجميل، أريد الجاف الذي يماثل جفاف قلبي.. لماذا تريدون أن أسافر؟! لن أسافر ولن أترك بيتى لأى سبب من الأسباب، إن أراد أحد منكم أن يسافر فليذهب حتى إن أراد الذهاب لأعماق جهنم، لم يعد يعنيني شيئًا من أموركم، هل أنتم المتحكمين في الكون؟ هل السفر من عدمه بأيديكم؟ هل



أكل الخضراوات الطازجة بأيديكم أنتم فقط؟! أستطيع أن أفعل أى شيء بنفسى، رغبتى فقط هي المحرك الأساسي لى، دعوني أفعل ما يحلو لى؟! هل أنتم المقدرون الوحيدون لجمال أو عدم جمال أى فعل؟ كثيرة هي الأحداث التي لا تأتى كما تهواها رغباتكم ولكنها تعجب كثيرين غيركم (أصمتُ لحظة لأتنفس ثم أكملتُ بنفس الانفعال) ماذا يحدث في أن يخرج الفرد لسانه في الهواء؟ إنها من أقل الأشياء التي توحى للفرد بالحرية، لماذا ترفضون ممارسة الحرية؟ هل أعاقبكم على إخراج ألسنتكم؟ افعلوا ما تشاءون، وأفعل أنا ما أشاء، أخرج لساني لكم.. هه.. هاكم لساني مرة أخرى « أخرج لساني في الهواء « أخرجه لكم لأمارس حريتى، ولن أسافر إلى أى مكان، ولن آكل الخضراوات الطازجة، ولن أطلب من أحدكم أن يفعل أى شيء لا يوافق هوى في نفسه و..

ولم أجد شيئًا أقوله، بحثتُ في عقلى فلم أجد شيئًا، ألفيته كإناء فارغ لا يزال يتردد بداخلة صدي كلماتى، لكن قلبي كان مليئًا بالأشياء الجميلة، لكن أحدهم لن يشعر بما يعتريني. تركتهم في دهشتهم، دخلتٌ غرفتى، الآن فقط أشعر بإرهاق شديد من أثر الانفعال، لم أكن قد تمالكتُ أعصابي بعد، تحركتُ جيئة وذهابًا في الغرفة بسرعة لا تتناسب مع مساحتها الضيقة، كانت يداى معقوفتين أمامى كأني أتوسل إلى أحد، بينما أصابعى العشرة كانت في حركة مستمرة. فوجئت

بخروجي من الحجرة بسرعة، توجهت إليهم مباشرة، كان الثلاثة يجلسون في الصالة بدون حديث، وجوههم صماء كما صخور الجبال.

صرختُ فيهم محتدة، رافضة كل الأوضاع، وإن سُئلت عن نوعية الأوضاع التي أعترض عليها، لن أجد بداخلى إجابة. كانت بعض الكلمات لا تخرج بوضوح من أثر الانفعال فلم أكن أعبأ بها، أنساها مباشرة وأكمل حديثى :

- ما هذا الذي تفعلونه بي؟ ماذا تريدون أن أكون بالضبط؟ هل هناك مستوى أدني من ذلك، حتى أتدني إليه؟! كيف تجلسون هكذا وكأن شيئا لم يكن، أنت يا «رفعت» ماذا دهاك؟ ألم تجد في داخلك أى شيء، أى شفقة ناحيتى؟! زوج غيرك الآن ما كان يترك زوجته هكذا.. كان يجب عليه أن يأخذها بين أحضانه، يُشعرها بالأمان والطمأنينة، أما أنت..!! تجلس هنا ولا أدرى كيف ذلك؟ ألم تذهب يوما إلى حديقة الحيوان؟ ألم تشاهد قفص القرود؟ أين الرباط الذي يجب أن يجذبك في أى لحظة ومن أى مكان كنتَ فيه؟ هل تريد أن تضحك عند رؤيتك لى؟.. اضحك إن شئت.. لا.. لن أدع وسيلة منع الحمل جانبًا، لا أريد أبناء، لا أريد حتى طفل واحد.. لماذا؟ إسأل وقل لماذا؟

كنت أتحدث بضيق شديد، ترتعش أطرافي فأحرك يديّ في الهواء كى لا يلحظها أحدهم، تكسو وجهي ملامح الدهشة مما يحدث وأنا أكمل:



- لـن أقـول لك السـبب يـا رفعـت، لأنني سـوف أمـارس حريتي وأحتفظ أيضا بالسـبب الحقيقي لنفسـي.. وأنت.. فلتذهب إلى أي مكان تشاء، وأنا لن أترك منزلي قط.. أنا لا أكرر الكلام، إنما حديثـي يحمل معني جديدًا كل مرة. كل إنسـان يشـعر بما يريد، وكثيـر جدًا من البشـر لا يسـتطيع أن يعبـر بالكلمـات عما يدور بداخلـه، أنـا أسـتطيع أن أصور لكم كل شـيء يحـدث بداخلي، لكني لن أفعل، فأنا لا أريد لكم أن تطلعوا على ذاتي، وأنتم أيضا لكـم الحريـة في عـدم التحدث عن سـرائر أنفسـكم للآخرين.. هناك الكثير جدًا من البشـر قد أتى بأفعال يخجل منها، يخجلون من مجـرد تخيل حدوثها في أرض الواقع لأنها أفعال قبيحة مثل وجـه القرد، ورغم ذلـك فنحن نرى وجه القـرد ونضحك عليه، لكننـا لا نضحـك أبـدًا من الأفعـال القبيحـة.. أفظـع الأمور هو أن يُكـرم صاحـب الفعل القبيـح، طبعًا لا أحد يعـرف أن من يتم تكريمه قد أتى بأفعال قبيحة إلا هو، يعلم قبح ذاته ولا يخجل أن يقـف أمام الجمهور ويتحدث في خيلاء، رغم أن مكانه الحقيقي هو خلف الأبواب، بعيدًا عن الأضواء، ليعاقب نفسه على فعلته، ولكني ذكرت لكم أننا نستمتع بمشاهدة وجه القرد.. لِمَ سيطرت عليـك الدهشـة يا أبـي؟! هل فـي حديثي أي شـيء غريب؟ ألم تـأت أنت أيضًا بما تخجل منه؟ لماذا تتعجب من كلماتي وتفتح فمـك؟ ألا تعلـم ما هي الأفعـال التي يجب أن تخجـل منها؟ أنا أقـول لـك.. مـا يجـب أن تخجل منه يـا أبي هو نفسـه ما تخجل

مـن مجرد ذكـره أمـام أي فرد حتـى وإن كانت زوجتك نفسـها، علـى أن كثيـرًا مـن الأزواج لا يصارحون زوجاتهم بكل شـيء، وأيضا السـيدات لا يصارحن أزواجهن بكل شيء.. أعرف سيدة متزوجـة صارحت زوجها بأنهـا كانت مخطوبة قبل الارتباط به، لكنهـا لم تصارحه أبـدًا أنها تحمل ذكريات عـن الخطيب الأول فـي داخلها، قد تكون ذكريات جيـدة، قبلات وأحضان.. من منا يسـتطيع أن يمحى جزء من حياته بالممحاة مثلما نمحى خطوط الرصاص عن الورق الأبيـض، حتى خطوط الرصاص تترك أثرًا مهمـا كانت الممحاة جيدة.. من منا يسـتطيع أن يفعل ذلك؟ من يسـتطيع أن يوارى أى فعل قبيح، أن يسـقطه من ذاكرة البشـرية؟ هل تخشـون أن يدرك البشر أفعالكم القبيحة، ولا تخشوا أن الله قـد أدركها قبل أن يخلق الكـون.. هل إيمانكم بالله يوحى إليكم بأن الله سـوف يغفرها مهما كانت قبيحة؟ ولماذا لا يوحى إليكم إيمانكـم هذا بأن الله يسـتطيع أن يكشـف أفعالكـم القبيحة لكل البشـر، ويأتـى الأمـر كأنه صدفـة؟ ألا توجـد آلاف الأفعال التي نعوزهـا إلـى الصدفة؟ إنه القدر يـا أمي الذي يأتـى بكل الأفعال التي نطلق عليها أنها مصادفة، لا توجد مصادفات في هذا العالم، كل شـيء مرتب، كل فعل يدل على شيء ما، فقط علينا أن نتأمل وأن نبحث وأن نفهم ونعى.



وصلـت إلـى مرحلة كنت أتنفـس فيها بصعوبة، تشـنجت عضلات وجهي وسـالت دمعة شـعرت بها على خدي الأيمـن.. أكملت حديثى بصوت واهن:

- لـم يكن ليحدث أبدًا أن اسـتخرج مـن ذاتى ما أسـتخرجته الآن أمامكـم إلا في مثل هـذه الظروف، وأيضا لم أكن لأدرك ذواتكم الخبيثة إلا الأن.. أعرف أنكم تتلذذون بما يحدث، تريدون تركى هكـذا أتحـدث بـدون رادع، لكن هل يوجد فـي العالم أحضان، غيـر الأم والأب والـزوج، أحق بأن أرتمى بينها الآن وأنا في مثل هـذه الحالة الصعبـة؟.. لا يوجد طبعا.. أنتم الآن تجلسـون ولا تريدون أن تفعلوا شـيئًا مثل هذا، لقد وضحت شـخصياتكم من أفعالكـم، لا أريد أحضانكـم، حتى وإن جذبتموني إليها بشـدة، لن أشـعر بالأمان فيهـا، فأنتم تريدون أن أهـوى إلى أدني هاوية، لكن العكس هو الذي سيحدث، لأنني الآن أتسامى وارتفع ولن أهـوى مهما حدث، فأنـا أقوى من أى انهيار، يكفيني أني تعرفت عليكم أخيرًا، وكان يجب عليّ أن أدرك هذا من قبل، الآن أرتاب فيكـم أنتـم الثلاثة.. لا.. بل أنتم الاثنين فقط، أمى بعيدة عن أى شك، أنتِ يا أمي بعيدة لأنك مثلى، أو أنا مثلك.. هذان الرجلان فقـط.. هذا الرجل قـد ربي وقدم.. وهذا قد اشـترى وأكل، لكن وقفـة.. يجب أن أنتزع نفسـى مـن بينكم الآن لأني أوشـكت أن أخـرج لكـم كل سـرائرى، ولـن أخرجهـا لكم.. لقـد وضحت رغبتكم.. تجرونني إلى الحديث الطويل حتى أغوص لأخرج ما

بداخلــي، ولكن الوقفة قد أتت فــي موعدها بالضبط، وها أنا ذي أتوقف عن الحديث وســوف أدخل غرفتي، واعلموا أني ما زلت أشك في أفكاركم.

تركتهــم في دهشــتهم، دخلتُ غرفتي مــرة أخرى وأغلقتهــا بإعياء، ذهبــتُ إلــى الســرير، شــعرتُ بارتخاء فــي الأعصاب، تمــددت بهدوء وابتســمت حالما شــبهتُ نفســي بالبالون الــذي أُفرغ محتــواه بعد فترة طويلة، شعرتُ في هذه اللحظة برغبة شديدة في أن أمتلك بالونًا، أنفخه وأدعــه يخرج الهواء مرة واحدة، ومرة أخرى أضيق الطريق على الهواء حتى يُخرج صوتا كالنغمات الشاذة.

ســمعتُ دقات الســاعة في الصالة تشير إلى التاســعة، الوقت ما زال يسمح بالذهاب إلى العمل، فقررتُ أن أذهب الآن.

ارتديــتُ ملابســي، خرجتُ إلى الصالــة، كان الوضع كمــا هو، فلم يتغير سوى الأحاديث التي امتنعوا عنها وقت خروجي.. وقفت والدتي تنظر ناحيتي في ذهول وهي تسألني :

- سوسن.. هل ستذهبين إلى العمل؟!

أجبتهــا في هدوء ودعــة وكأني فتاة أخرى غير تلك التي كانت تكيل لهم الاتهامات منذ قليل:

- لماذا يا أماه؟ ما الذي حدث اليوم يختلف عن الأمس؟!

يخــرج والدي عن صمته، يأتي صوته وكأنه يخرج من أعماق برميل خاو:



- يا ابنتي لكِ الحق في أن تستريحى اليوم.

زممتُ شفتيّ، فكرتُ لحظة، تحدثت ساخرة:

- لا شيء.. انسوا ما حدث.. انسوا تمامًا كل ما حدثتكم عنه منذ لحظات، يبدو أن العقل مثل البطن، أحيانا يخطر على بالها وجبة طعام بعينها، فقد خطر على عقلى هذا الحديث وانتهي الأمر.. يا أمى ستجدين في الثلاجة طعام للإفطار، هناك خضروات وفول معلب وبيض، وأيضًا خبز مجمد.. دقائق خارج الثلاجة سوف يعود إلى سيرته وإن وضعته في الفرن لحظات سيكون مثل الخارج من المخبز تمامًا، وبعد تناول طعام الفطور، اشربوا الشاى.. بعد إذن الجميع.. أتمني لكم قضاء وقت طيب.

يقف رفعت مكانه ويتحدث للمرة الأولى:

- إن كان ذهابك إلى العمل ضروريًا.. سوف أوصلك بالسيارة و..

- لا أريد.. سوف أذهب سيرًا على الأقدام.

تركتهم وخرجت، على وجهي ابتسامة عريضة وما زلت أتعجب من يقظتى التامة بعد كل هذا العناء، تركتهم في دهشتهم وانفعالهم وحيرتهم، فكيف أذهب سيرًا على الأقدام مسافة لا تقل عن الخمسة كيلومترات؟!

لقد تحدثت بجملة ذهابي إلى العمل سيرًا على الأقدام كبديل لعرض رفعت، فأنا لا أريد عروضه، ولم يكن المعني الحقيقى للكلمات هو ما أنتويه بالفعل، فالطبيعي أن أستقل سيارة أجرة، لكن لماذا لا أذهب

إلى العمل سـيرًا على الأقدام بالفعل؟ هل في ذلك شـيء يثير الدهشة؟ في الماضي كانوا يسـافرون مئات الأميال سـيرًا على الأقدام، صحتهم كانت أفضل وأعمارهم كانت أطول، لم لا أفعل ذلك؟

يجـب أن أمـارس حقوقـي كاملة، سـرتُ أتأمل الناس مـن حولي، أحاول أن أستشـف بعـض المعاني الكامنة خلف الأقنعـة التي يرتديها الأفراد، كلهم يرتدون أقنعة، يا لمهارة صانع الأقنعة.

مررت في طريقي بمنطقة عشـوائية، تلك التي يقيم أصحابها حظائر البـط والدجـاج في الشـوارع. لم أكن أعلـم الطريق الذي أسـير فيه أو حتى اسم المنطقة. كان هناك الكثير من البط والدجاج الذي يتجول في المنطقـة تجول صاحب المكان، كان يتبختر في مشـيته يتأمل الذاهب، وكأنهـم يحفظـون أبناء المـكان، يعرفونهم كما يعـرف الأخ أخاه، فقد تركوا كل مَن يجلس أو يمر في المكان وهجموا عليّ بسرعة وشراسة، نعم.. البط الأسـود اللون صاحب العيون التي تبدو كبقعة دم كان ينظر نحـوي بشراسـة وقـد فتح بعضهم فمـه ورفـع جناحيه في الهـواء، لقد أعلنـت البطة التي تقود القطيع الحرب وتبعتها المجموعة وقد رسـموا رأس سـهم، خشـيت على ملابسي من الاتسـاخ، وفي الحقيقة خشيت أن تتعلق بطة أو أكثر في ملابسـي وقد تتجرأ إحداهن وتعضني، لا أحد يعلم فيما يفكر البط الآن، أسرعتُ خطوي حتى إني جريت قليلًا، لكن الأمـر لـم ينته عند هـذا الحد، فقد انطلـق خلفي قطيع البـط والدجاج، لاحظْـت عددًا من الأفراخ الصغيـرة تتحنجل حول القطيع، تقلد أفراده



في سـعاده، وددتُ لو صرختُ فيهم بأن الأمر لا يحتاج إليهم، يكفي ما أعانيه من الكبار، فليذهب الصغار المقلدون إلى الجحيم.

عـدوتُ لحظات ولـم ألتفت إلى الخلف كي لا يلحـظ المارة ذلك الصـراع القائـم بينـي وبيـن قطيع البـط والفـراخ، بعد لحظـات هدأت أصواتهـم، نظـرتُ إلـى الخلـف، كانوا قـد توقفـوا عند شـيء ما على الأرض، حملـت إحداهن ذلك الشـئ فـي فمها وهرولـت لتفر هاربة، لكنهـم لم يتركوها، فقد تبعوها وأفواههم فاغرة لالتقاط هذا الشـئ من فمهـا، كان ربع حجم هذا الشـيء في فم البطة وبقيتـه مدلى في الهواء، نظرتُ فإذا به فأر صغير، لم أشمئز كما كنت أتوقع، إنما وقفت أشاهد، فهـذا أمـر فريد نـادر حدوثـه، فالبط على حـد علمى لا يـأكل اللحوم، طالـت المدة والبطة تصـارع زميلاتها من أجل الحفاظ على فريسـتها، بينمـا الدجاج يهب فـي الجوار محدثًا ضجة ولا يقـوى على الاقتراب من حلبة صراع البط،هل يمثل الجمهور الذي يشجع المتصارعين؟!

طـال صراعهم وطـال تأملي للحـدث، لحظة التفت خلالها يسـارًا فشـاهدتُ بعض السيدات ينظرن ناحيتي بشـيء من الريبة، هل يعتقدن أنـي لصة دجاج وبط؟! تركت المكان، رحلـتُ وأنا فَزِعة من ألا يكون هذا مجرد اعتقاد فقط.. كنت أنظر خلفي حتى أرى هل إحداهن تتبعني أم لا؟

تعجبـت من هذه الظواهـر التي كان من المسـتحيل حدوثها قديما، زمن يرعى فيه الكلب في البرسيم وتأكل البطة الفئران.

وصلتُ إلى مكان لا أعرف كيف أنطلق منه إلى عملي، فما كان أمامي حل إلا أن أستقل سيارة أجرة، أشرت لها وألقيت بجسدي داخلها وأنا أخبر السائق بوجهتي.

في مقر عملي ألفيت الجميع ينظرون ناحيتي، بدأت أشك في أمور غير مألوفة، هل ارتديت ثيابي بالمقلوب؟ هل نسيت أن أغلق أحد الأزرار في مكان فاضح؟ بحثتُ وتأكدت من صحة ملابسي، لكن نظرات الآخرين ظلت تلاحقني، عاودت التأكد من أن كل شيء على ما يرام، حتى إن يدي تحسست كل ما يمكن أن يثير الانتباه.

من أقبح الأمور على الإطلاق أن يلاحقك شخص ما بنظراته دون وجه حق، أن تشعر أنك مراقب من آخرين خصوصا إن كانوا أدني منك منزلة!! لماذا يحاصر بعضهم الأخر ولو بالنظرات؟!

أسرعتُ إلى حجرة مكتبي، نظرتُ إلى الصورة المعلقة على الحائط، لم أدع نفسي تنظر إلى الشجرة طويلًا، جلستُ بسرعة أنتظر أن يأتي أى شخص ليتحدث معي عن السبب الذي جعل الآخرين ينظرون ناحيتي بهذا الشكل الفج، من بعيد أتاني صوت كلب يستغيث، يبدو ان أحدهم صدمه بسيارته وفر هاربًا، تألمتُ بشدة، ليت ذلك حدث قبل أن أترك الشارع وأصعد، لكنتُ أوقفت هذا المتعدي على الكلب، وأجبرته على علاجه، إنه لشئ فظيع أن يصدم أحدهم كائنًا حيًا بسيارته ثم يفر هاربًا!!



لـم يأت أحـد إلى مكتبي، الوقـت ينقضي، راجعتُ ملابسـي للمرة الثالثـة، اسـتدعيتُ رجـل الأمـن الموجـود علـى البوابـة، لأنـه أكثـر الأشخاص الذين كانوا يلاحقونني بنظراتهم.. حضر، سألته مباشرة :

- لمـاذا كنـت تحملـق فيّ بشـدة وبـكل وقاحة لحظة مـروري من أمامك؟

دُهش الرجل ودارت عينيه في المكان وهو يقول:

- أنـتِ مَن كنتِ تنظريـن ناحيتي، اعتقدتُ أنكِ ترغبين في شـيء، فكنت أنظر ناحيتك منتظرا أوامرك.

طبيعـي جـدًا أن يتهـرب، فهـل يعتـرف بجريمتـه هكذا وبـدون أي ضغـوط!! يجـب أن يتم تعذيبـه حتى يعتـرف، إنهم يدركـون ذلك في أقسـام الشـرطة، ينتزعون الاعترافـات بالقوة، فكيف لمجـرم أن يقول الصدق بدون عناء؟! تركته ينصرف فهو مثل الآخرين، يفعل ولا يفصح عن مكنون ذاته. يخطر على بالي سؤال آخر فخرجت لأناديه مرة أخرى لأسأله، لكني توقفت في منتصف المسافة، وقلت بصوت مرتفع :

- أسأله حال خروجي.

و كان سؤالي الذي لم أسأله له حال خروجي لأنني كنتُ قد نسيته :

- هل تراني اليوم أجمل من أي يوم مضى؟

الجمـال يحيـا بالحديـث العـذب كما الـزرع يحيا بالمـاء. حاولت الانهماك في بعض الأعمـال لكن بعض التركيز رفض إنصافي، فتحتُ أحـد الملفـات الخاصة بحالـة مرضية، غلاف الملـف الأيمن في يدي

اليمني، أقرأ كلمة في الملف ثم أغلقه كي أتعرف على اسم صاحب الحالة من الغلاف ثم أعاود النظر في داخل الملف لأقرأ التفاصيل فأنسى اسم صاحب الملف فأعود إلى الغلاف.. ثم إلى الداخل.. وهكذا.. ثم أغلقت الملف وأرجعته إلى مكانه وكرهت العمل والملف وصاحب الملف الذي نسيت اسمه أيضًا.

مر وقت العمل، يخرج جميع العاملين من المستشفي، إلا النوبتجيات بالطبع، مرت من أمام غرفتي ممرضة شابة، نادتني مبتسمة:

- ألا ترغبين في العودة إلى بيتك.. انتهي اليوم يا جميلة الجميلات.

ثم تركتني ورحلت قبل أن تشاهد على ملامحي سعادتي بإطرائها، لملمتُ أشيائي المبعثرة وأغلقت حجرة مكتبي وعدت إلى المنزل.

رفعت في عمله، أبي يجلس في الصالة، أمي في المطبخ تعد الطعام، إذن الحياة تسير بهدوء!! شعرت بضيق وانقباض في أحشائي، وكأن معاناتي تلك لا تمثل لهم أي شيء؟ أمسكتُ لجام انفعالي وكبحته بمنتهي القوة، صنعتُ حالة هدوء على ملامحي، ألقيت التحية عليهم بكلمات مقتضبة، دلفت إلى غرفتي، ارتميت فوق السرير، في لحظات دارت بي الأرض وشعرت بأن سريري يدور على ترس دوار بدأ حركته بهدوء ثم تسارعت حتى كادت تقذفني لأصطدم في الحائط، تشبثت بيدي في السرير، لم أشعر بشيء، ذهبت في نوم عميق أشبه بالغيبوبة.

لم يمر وقت طويل كما كنت أتوقع فقد استيقظت بعد ثلاث ساعات، الغريب أني استيقظت دفعة واحدة كما حدث في الصباح، يبدو أن ذلك سيكون من طباعي خلال الفترة القادمة، زممتُ شفتيّ في



لا مبالاة، وقفت أمام مرآتى لحظات، ابتسـمت لنفسى ابتسامة عريضة، خرجـت بعدها إلى الصالة، قبلت أمى في سـعادة ووالدي أيضًا طبعت على وجنته قبلة سريعة.

شـاهدتُ رفعـت يجلس فوق مقعد جانبي فابتسـمتُ لـه وكدتُ أن أخرج لساني له مرة أخرى لكني تماسكت وطلبت من والدتى أن تقدم طعام الغداء.

علـى المائدة يلفنـي الصمت إلا مـن صوت مضغ الطعـام وتصادم الملعقة بالأطباق، إنه صوت لحن تناول الطعام المميز، بشـراهة أكلت حتـى كدت أنهي جميع الأصناف، كانوا في البداية سـعداء بعودتى إلى طبيعتـى، لكـن دقائق أخـرى مرت وهـم يتابعونـي وأنا أتنـاول الطعام بسـرعة وأمـلأ فمى بشـكل غريـب، فظهـرت على وجوههـم علامات تعجب ظلت تتزايد مع تناولى الطعام حتى حاكت وجوههم وجوه قوم دهشوا حتى الرعب.

أوشـكت علـى التهام طعام يكفي أربعة أفـراد جوعى، هو أمر يدعو إلى عـدم الاطمئنان بطبيعة الحال، لكني لم أبـال، فأنا أفعل ذلك اليوم لأني أريده. كان على المائدة أكثر من صنف من الخضراوات الطازجة، والدتى أحضرتها من أجلى وهذا ما جعل إقبالي على الطعام يتضاعف.

يترك الثلاثة المائدة وهم يسترقون النظر نحوى في صمت، لم أهتم، بل طلبت من والدتى طعامًا آخر، فأتت به على مضض وهي تقول:

- الإفراط في تناول الطعام بعد الإفراط في الجوع أمر يضر بالصحة يا سوسن.

لـم أنصت إليها، أكلتُ حتى إنه لـم يعـد هناك مكان للتنفس، وقفت ولـم أنظـر نحـو أحدهـم، لا أريد أن أسـتمع إلـى أى تعليـق حتى ولو بنظـرات الأعيـن، ذهبت إلى حجرتى بسـرعة لأكمل نومـى، لكنه كان نومًا مليئًا بالأحلام والكوابيس، استيقظت أكثر من مرة مفزوعة مبهورة الأنفـاس، آتية من قلب صراع وصراخ، ثم أجد نفسـي وقد اسـتيقظت فـي قلب صـراع آخر، أصرخ لينقذنـي أحدهم، تمتد نحـوى يد كما يد المومياء لتوقظني، أصـرخ ثانية وأصرخ وأصـرخ، لكن لا صوت لى، كنت أخرج من كابوس إلى كابوس.

استيقظت فـي اليـوم التالى، وقد سـيطر علـى تفكيـري أن الجميع بمـا فيهم العمل نفسـه أصبـح كريها وممـلًا، زهدتُ كل شـىء، آثرت أن أعـود إلى حالة الهـدوء التي كنت عليها منذ بضعـة أيام، عم صمتى وكسـتني ابتسامة كسيرة، لم أشـك ولـم أهز بأى كلام كما كانوا يقولون على أحاديثى التي كان ينزف بها قلبي، تقبلوا الأمر، انتهت رحلة القلق بالنسـبة لهم، عاد والدايّ إلى منزلهما. عدتُ إلى العمل، سارت الحياة كما كانت تسير، وأحيانا الاستسلام نجاة.

***

«وسائل دفع الأذى.. هي الأذى عينه»



(25)

الماكر

تعطلـت حياتـي مرة أخـرى بعد أسـبوع، حيث انقلبـت الأمور إلى الوضع الأسـوأ. كنتُ في منزلي وحيدة، وكان رفعت سيتأخر في عمله بسبب بعض الأمور، أخبرني بذلك صباحًا.

شعرتُ بأن المكان أصبح كما القبر، حتى إني شممتُ روائح كريهة، أسرعتُ أفتح النوافذ بانفعال، أجري بينها كمن يقاتل من أجل الحياة.

تدافعـت الأصوات من الخارج بشـكل مزعج، قاتمـة مرعبة وكأنها طبـول حرب تدق على جانبي رأسـي، توترت بشـدة وتصلبت أطراف أصابعي، لحظات من الحيرة والفزع مع أنفاسي الساخنة وكأنها صادرة عـن إناء فيـه ماء يكركـر من شـدة الغليان، أغلقـت النوافذ مـرة أخرى بسـرعة، بطريقـة عصبية، بعنـف، صرخت بأعلى صوت أسـب الزحام والضوضـاء، كنتُ أسـبهم بحنق وأنظر نحو مواضـع مبهمة في الفضاء أمام عيني، أبحلق فيها بعين مفزوعة وأنفاس متلاحقة وصدري ينتفض وكأن أشباح الجحيم كلها قد أتت مجتمعة لإفزاعي.



بعدما صرختُ أكثر من مرة، أفرغتُ كثير من شحناتي، شعرت بجزء من الهدوء يتملكني مقارنة بما كنت عليه منذ لحظات، أردتُ الراحة الكاملة، صرخت مرة ثانية.. وثالثة، ضحكتُ بشدة على ما يحدث وكأن الذي يقوم به آخر وليس أنا، عاودت الصراخ ثم الضحك، امتلكتني تلك الحال كما تمتلك طفلًا رغبةً في تقليد صوت الضفدع فلا يستطيع إيقاف لسانه حتى وإن زجرته أمه عشرات المرات.

يصل رفعت، يضع مفتاحه في الباب، يقف أمام باب الشقة ينصت،أدركت ذلك فتوقفت عن الصراخ والضحك، ولا تزال عيناىّ معلقتين بالباب، يدخل مسرعًا، ينظر نحوى ثم في كل الاتجاهات على اعتقاد أن هناك أمرًا عظيمًا يحدث.

على وجه رفعت تناثرت علامات الفزع عندما شاهدني واقفة مرتدية ملابس المنزل وأقف في وسط الصالة وحدي وعلى وجهي ابتسامة، تعمدت أن تكون عريضة. لما تأكدت من خلو الشقة إلا مني، ظهرت على ملامحه جزيئات الهدوء لكنه الهدوء الذي يكشف عن داخل مضطرب وعن جوهر غير صاف، أجبته على السؤال البديهي دون أن يسأله:

- نعم.. هذا الصوت كان يصدر من شقتنا، كنت أصرخ بشدة وأضحك بشدة ولا يوجد لدي سبب منطقي، فلا تسأل، شعرتُ بالوحدة الخطيرة، ثم ماذا يهمك أنت في كل ذلك؟ استبدل ثيابك حتى أعد الطعام، وكن على علم من الآن أنني لن أقوم بإعداد الشاى مهما حدث.. (قلت ذلك وأنا أشير نحو وجهه

بسبابتي، بعدها صمتُّ لحظة ثم أكملت) أقول لك.. من الأفضل ألا أقوم بإعداد الطعام، استبدل ثيابك ثم عده لنفسك أو لا تعده فأنت حر، أنا لست جائعة.. نعم أنا لم أذق طعامًا منذ ليلة أمس ولكني لا أشعر بالجوع فهل يضايقك هذا؟ لكل شخص طريقته في كف الأذى.. هناك شخص يكف الأذى بالأذى، وهناك من يكف الأذى بالهروب.. أعتقد أنك لا تفهم شيئا مما أقول؟! أنا لا أقلل من شأنك.. فأنت رفعت (ذكرت اسمه بسخرية) ولك طريقتك الخاصة في كف الأذى، في المستشفي الذي أعمل به، تُصرف بطاقات أدوية يومية لا تقل عن خمسة آلاف جنيه، معظمها للمعارف والأصدقاء.. أليس هذا بأذى؟ هناك صداقات كثيرة نشأت بين الطبيب وآخرين، وهذا هو السبب في مصطلح طبيب الأسرة، فالطبيب يا رفعت من أمهر التجار.. وسوف أخبرك لماذا الآن.. لا تقلق.. سأخبرك ولكن بعد أن أوضح لك شيئًا آخر، شيئا ذكرته لك ولكنك لم تسأل عنه، إنها « الوحدة الخطيرة ».. تتواجد بين الأفراد وفي الوقت ذاته تشعر بأنك وحيد، تشعر أن لا أحد يوليك أية عناية، رغم أن كثيرًا منهم قد لا تدنو رغبته من رغبتك أنت في الخير.. لحظة يا رفعت أنا لا أقصدك أنت بالذات عندما أقول « يوليك أية عناية، أو أقول : رغبتك أنت » ولكنها طريقة في الحوار وهي أن تشرح بالتطبيق على من هو أمامك.. لكنك بالطبع لست المقصود.. سوف أكمل لك، قد تكون فردًا اجتماعيًا، تشعر بأن عليك إصلاح العالم،

حتـى إنك قد تدفع الأذى عن قطة صغيرة.. أتدرى أنني منذ فترة كنت أود إنقاذ الفأر من بين فكى البطة، ولكن الأمر كان قد انتهي لأنـه كان فأرًا ميتًا، هو فأر صغير مثل هذا الذي نراه في الشـوارع أمام المنازل في الأحياء الشـعبية، تلك الفئران التي تختفي لفترة في الأفران وخلف مناضد المطابخ، حظها السـيئ هو الذي دلها على هذا الطريق والذي ينتهي بالقتل، فأصحاب المنازل لا يهدأ لهم بال حتى يقضوا عليها، وأنا لا ألوم البشـر حالما يقتلون فأرًا يعكر عليهم صفوهم، فكيف يسـكن المرءُ فـي مكان فيه فأر، أو أى حشـرة من تلك الحشرات البشعة، ولكني ألوم الحظ السيىء للفأر الصغير الذي ألقاه أمام إنسان ليقـتله.. أتعرف يا رفعت أني أكـره الفئران ذات الحجم الكبير، أكرهها لدرجة أنني قد اشـمئز من كل شـيء حولـى.. حتى منك أنت يا رفعت، لا أشـمئز منك لعلاقـة مـا بينك وبين الفـأر كبير الحجم.. إنما هـي حالة تنتابني تجاه كل الأشياء ولست أنت على وجه التحديد، لكني لا أعرف لماذا أشـعر ناحيـة الفأر الصغير.. بنوع مـن.. من.. لا أعرف من مـاذا؟ لكنه ليـس كراهية، فليس من العدل أن أكـره الفأر الصغير الـذي لم يع شـيئًا بعد، أمـا الفأر كبير الحجـم لا.. لا.. إن منظره بشع.. أقول يا رفعت أنك قد تشعر برغبتك الجامحة في إصلاح العالـم ولكن قمة الأسـى أن هذا العالـم لا يريد منك أى إصلاح، وينظـر إليـك بمنتهـي السـخرية قائـلًا «إهتم بنفسـك..» رفعت لا يجـب عليـك أن تهمل حديثـى، انظر لكل السـابقين بداية من



الأنبياء والصالحين وحتى السـائرين على هديهم إلى يومنا هذا، إنظر إليهم وكيف كان يقابل الناس أفكارهم؟ لقد كاد الأمر يصل إلـى الضـرب، العالم لا يريد مَـن يصلحه، إنما يريد مَن يفسـده، نعم يا رفعت من يفسـده.. إنظر إلى ملوك الموضة اليوم، مَن هم وكيف أصبحـوا!!.. العالم يا رفعت يُشـعرك بالوحدة، تخيل أن يُقابـل كل ما في داخلك من رحمة وحب وإيثار من أجل العالـم، بالإهمـال!! وقتها تتتابك صدمة.. صدمـة عنيفة.. بعدها ينعزل، تتقوقع على ذاتك، تعيش وحيدًا.. وتكون الوحدة أمر من طعم.. الـ.. العيش معك.. لا تحزن إنها الحقيقة، إن المعيشـة معك مُرة المذاق.. لا تقل شيئًا، هل تريد أن تقول : الدواء قد يكون مرًا؟

نظرتُ له باشمئزاز وأنا أشعر بمرارة الدواء في حلقي، حدثته بهدوء:

- استـبدل ثيابـك يا رفعـت.. أما أنا.. فسـوف أعد الطعـام، ولكن نفـس الشـرط مـا زال قائمًـا، فلن أعد الشـاى، إمممـم.. هناك طريقـة أخـرى قد ترضيك، مـاذا لو قمـت أنت بتجهيـز الطعام، بينما أنا أعد الشاى.. هذا أفضل.. أليس كذلك؟ إذن أعِدّ الطعام بسـرعة لأنني جائعة جدًا وسوف آكل معك، سوف آكل بشراهة، لذلـك جهـز الكثير مـن الطعام.. أوف يـا رفعت.. لم تسـألني.. أنت لا تسـأل أبدًا، أنـت لا تريد أن تعرف، السـؤال يا رفعت هو نصف المعرفة، بينما الإجابة هي النصف الآخر، عليك أن تكون كمـا الأطفال، ليس في البـراءة، فالبراءة تخص الأطفال وحدهم وقليـلًا جدا من الكبار، وانت لسـت منهم بطبيعـة الحال، أريدك

أن تكون كالأطفال في كثرة السؤال، لم تسألني لماذا الأطباء من أمهر التجار؟ ألم أقل لك أنك تدع الكثير يمر بدون أن تسأل، تمامًا كما كنت تتركني ولا تسأل عني، ولتعلم يا هذا إنني لا أريد منك هذا السؤال.

قلت هذه الجملة بانفعال شديد حتى إن رفعت انتفض مكانه.. وابتسمت في داخلي حينما شعرت بأنني أخفته فعلًا، ثم أكملت:

- إن الأطباء مهرة لأنهم يتاجرون بسلعة تهم كل البشر، ليست مقصورة على فئة بعينها، أنا أشاهد هذا يوميا في مقر عملي وأعلم ما يفعله الأطباء في عياداتهم الخاصة.. الطبيب يأتيه المرء مريضًا كان أو صحيحًا.. لابد وأن يأخذ المقابل الذي أصبح أبشع ما يكون، ثم يكتب للمريض قائمة طويلة بأسماء أدوية لا يراعى فيها أية ظروف مادية. تخيل ذلك، حتى وإن كان الشخص واهمًا في شيء ما، إلا أن الطبيب لا يستطيع أن يقول له « أنت لست مريضًا ».. فيكتب له أى نوع من الأدوية غير الضارة، أعتقد هنا أن الطبيب هو المريض، إن الأطباء يستطيعون إقناع المرء بأنه مريض وأنه يستحق العلاج، حتى يدفع، وقد يتطور الأمر عند بعضهم ويطلب من المريض أن يعود مرة ثانية وثالثة، ثم يعطى أوامره للعامل، بأن يتقاضى نصف تذكرة في حالة الإعادة، ثم تذكرة كاملة في الزيارة الثالثة.. وهكذا.. وايضًا من ضمن عمل الطبيب أن يعرض مريضه على جهاز الأشعة التلفزيونية وذلك حتى يستطيع تشخيص نوع المرض، وجهاز الأشعة يساعد



الطبيب، فمثلا الطالب الذي يجرى العملية الحسابية من خلال عمليـة عقليـة يصل إلـى النتيجـة المطلوبة مع بعـض المجهود، ونفس الطالب قد يجرى هذه العملية باستخدام الآلة الحاسبة وهـو بذلك يصـل أيضا إلـى نفس النتيجـة ولكن بـدون مجهود وعلـى ذلك فإن استخدامه للآلة الحاسبة عاد بالنفـع عليه هو، هنـا أيضـا نجد أن العرض على جهاز الأشـعة يعود بالفائدة على الطبيب حيث يساعده في التشـخيص، لكن مـا يحدث يا رفعت هو أن يطلب الطبيب من المريض تذكرة أخرى ثمن العرض على جهـاز الأشـعة، فما يجب أن يحدث في هـذه الحالة هو أن يقول المريض: مالى أنا وجهاز الأشـعة، فأنا قد أتيت إليك لتشـخص المرض وتكتب لى العلاج الشـافي.. استخدمت في ذلك جهاز الأشـعة أو حتى استخدمت الفأس؟ والذي يحدد هل يتم عرض المريض على جهاز الأشـعة أم لا هو الطبيب نفسـه، وهل يُعقل أن يقـول الطبيـب: لـن يتـم عـرض المريض علـى الجهـاز؟ أنا أحدثك عن الأشـعة التشـخيصية وهـي غير تلـك الموجودة في مراكز الأشعة والتي تكلف المركز الكثير من المال نظرًا لارتفاع أسـعار هذه الأجهزة، فهي تأتى من الخارج بأسعار خرافية، ذلك لأن تلـك الدول متقدمة عنا بمراحل وتبيع لنا كل شـيء بأسـعار خرافيـة، هذا ليس ثمن السـلعة وإنما ثمـن جهلنا نحن يا رفعت. الدولـة تتحمـل الكثير وتشـترى هـذه الأجهـزة التـي يعجز عن شـراؤها الأفراد، لكن. تخيل مرة أخرى.. الأطباء الذين يعملون

في المستشفيات الحكومية يستخدمون هذه الأجهزة في عمل الأشعة لمرضاهم.. يحددون معهم موعدًا في أواخر يوم العمل، ويطلبون منهم أن يدخلوا إلى المشفي على أنهم أقاربه ويريدونه في أمر خاص، ويجرى لهم المطلوب ويتقاضى مبلغًا كبيرًا وإن كان أقل مما تتقاضاه المراكز الخاصة.. لكل ما ذكرته الطبيب تاجر ماهر، واعلم أن بعض الأطباء يتعاقدون مع أجزخانة مجاورة، أو يكون الطبيب نفسه مساهمًا بصورة أو بأخرى في هذه الصيدلية، لذا فهو يبالغ في كتابة الأدوية لرفع الأرباح.. يجب يا رفعت أن ينصلح الكون، لابد وأن يتعلم طلبة الطب في الجامعة أحد مواد الأخلاق قبل دراسة مواد الطب، نعم فهم يتعاملون مع أرواح بشرية.

صمتُّ لحظة كي أزدرد فيها لعابي فشعرت بجفاف حلقي، لكتُّ بلساني في فراغ فمي لحظات أستجلب فيها بعض اللعاب وأنا أتابع نظرات رفعت المشدوهة، عينان تبحلقان في بصمت غبي وفكه السفلي يتدلى أكثر وأكثر، لم أهتم به أو بما يفكر فِيه وأكملتُ حديثي :

- ماذا يا رفعت لو أن هذه الطبيب لا أخلاق لديه..؟ أنا أعلم جيدًا أن الشاب قد يثار إن شاهد فتاة في الشارع ذات صدر مكشوف، أما الطبيب فهو الذي يكشف الغطاء عن هذه الأجزاء لا.. لا.. لا تقل أنه يحلف اليمين ويحلف بشرف المهنة، أى قسم وأى شرف هذا يا رفعت؟! من لا يمتلك المبادئ لا يصدق وإن حلف ألف يمين.. لا تتعجب فقد سمعت بأذني ذات مرة أحد طلبة الطب،



وهـم يتدربون في المستشـفي الذي أعمل به، وهـو يتحدث إلى صديق له عما يراه في أقسـام المستشفي من.. من أجساد عاريـ.. لا.. لـن أعيد ما قاله الطالب، لكني سـمعته.. أقسـم على ذلك.. لذا لا تقل أنهم يحلفون اليمين، إذا فُقدت المبادئ لا يُسئل المرء عن القسـم؟ إن طلبة الطب يجب أن يخضعوا لاختبارات خاصة بالقـدرات الأخلاقيـة والسـلوكية، لا يهـم موضـوع المجمـوع الكلي، ليكن هذا في الكليات المتخصصة في أي شأن لا يتعامل مع البشـر، أما في التعامل مع البشـر، يجـب أن تدرس الأخلاق أولًا.. لـن ينصلـح العالـم يـا رفعـت قبـل أن تحـدث التغيرات الاجتماعيـة الجذرية، كما بالضبط لـن ينصلح حال اللغة العربية في المدارس إلا إذا تحول مدرسو اللغة العربية إلى أدباء أو حتى إلى أنصـاف أدباء، حتى يتمتعوا بجمـال اللفظ، هل تدرى معني أن يعشـق المـدرس المادة التي يدرسـها؟ الأطباء تجـار مهرة يا رفعـت.. صدقني.. العامة يأخذون بنصائحهم وأدويتهم الفظيعة كأنها مسـلمات، وينسون تماما أنهم بشر يصيبون ويخطئون وأن مـا يفعلونه مجرد مهنـة كأي مهنة.. تبدو على ملامحك علامات عـدم الاقتنـاع، فقـد لويت شـفتك السـفلى ناحية اليسـار..!! لا أعلم إن كانت تلك شـارة حقيقية لعدم الاقتناع، لكني أشـعر بها كذلـك.. يجب أن تقتنع لأنه ببسـاطة ظهر ما يؤيـد وجهة نظرى في الآونة الأخيـرة، والانحرافات التي حدثتـك عنها خير دليل، وأيضـا تجارة الأعضاء البشـرية وكأنها قطع غيار سـيارات دليل

آخـر على صدق كلامى. إني أكره الأطباء أكثر من كرهي للفئران كبيرة الحجم.. بعض الأطباء شرفاء وهم استثناء القاعدة.

توقفـت عـن الحديـث وقد ركـزت عينيى علـى سـاحة الحائط، ثم نظرت ناحية رفعت بدهشـة واستغراب وكأني أراه للمرة الأولى، إنه ما زال يقف إلى جوار الباب مثل فأر مذعور.. قال مسـتغلا فرصة التوقف التي طالت بعض الشئ:

- هـل تسـمحين لى بالدخول.. إنني أقف مكانـي منذ ما يقرب من ثلاثة أرباع الساعة حتى تورمت قدماى.

زادت دهشتى وأنا أجيبه:

- لمـاذا لـم تدخل؟! مـا الـذي منعك مـن الدخول إلـى حجرتك مباشـرة؟ لا أعتقـد أننـي أعـوق الطريـق إلى هـذه الدرجـة مثل سـيارة ضخمة تقف وسـط الطريق.. إنني لسـت سـيارة ضخمة حتـى لا تسـتطيع المرور يا سـى رفعت، ثـم إن السـيارة أيضا لا ذنب لها، إن الذنب على السـائق الذي يقف بمنتهي الجرأة، إنها أيضا الأخلاق، فلو أن لديه شـيئًا مـن الأخلاق لعلم أن الأخرين يرفضون مثل هذا التوقف المفاجئ في منتصف الطريق، وجميع السـيارات التي تكومت خلفه بأسرع ما يكون لا ذنب لها أيضًا.. إن السـيارات تتكوم بسرعة شـديدة، وكأنها قذائف من الجحيم، خاصة السـيارات الخاصة.. إننا شعب أفراده مكدسون في قمقم لـذا لن أنجب أبـدًا وأزيد الكارثـة، إننا من أكثر الشـعوب حيازة للسـيارات الخاصة، ومما يزيد الدهشة أيضًا أننا من أكثر شعوب

العالم امتلاكًا لوسائل المواصلات العامة من السيارات بجميع أنواعها إلى القطارات بجميع أنواعها، إننا اخترقنا الطرق وأسفل الطرق وأعلى الطرق أيضًا.. أتدرى أن الحل بسيط جدًا.. لو أن تكلفة المشروعات الضخمة هذه قد استخدمت لإنشاء دولة جديدة داخل الدولة.. دولة " ب " تستوعب هذه الزيادة وهذه البطالة أيضًا.. هل تستطيع أن تفسر لماذا كل هذه التكلفة الجبارة لإنشاء كبارى علوية مثل تلك المنتشرة في جميع المدن؟! كل هذا لمجرد أن تعبر السيارات من فوق الكوبرى ولا تمر فوق شريط القطار؟ وماذا في أن تتوقف السيارات دقائق يمر فيها القطار ثم تعاود المرور مرة أخرى؟!! أو يتم عمل نفق صغير تحت شريط القطار تمر منه السيارات.. أعتقد يا رفعت أن هناك أسبابًا أخرى تقف خلف إنشاء مثل هذه المشروعات.

يرفع رفعت فكه السفلى المتدلى ليضع لبلاهته حدا، ثم ينتفض كمن يفيق من حلم يقظة وهو يقول :

- سوسن لابد وأن نذهب إلى الطبيب..!!

بعدها يتوجه إلى الحجرة مسرعًا، يُغلق بابها خلفه بسرعة ملحوظة تنبيء عن شيء من الجبن. هرولتُ ناحية باب الحجرة وقد انتويت فتحه بشدة وإن تحطم، ثم توقفت في اللحظة الأخيرة، وعادت يداى إلى جوارى في سكينة وهدوء، لم أحاول فتح الباب، ثم عقفت يدي أمام صدرى وأنا أتحدث إلى رفعت متوسلة :

- لـن أذهب إلـى الطبيب، أرجوك يا رفعت لـن أذهب، لأنني أكره الأطبـاء مثـل كرهـي للفئـران كبيـرة الحجـم تمامًـا، ويجب أن تكرههم أنت أيضًا لنفس الأسباب التي حدثتك عنها منذ دقائق..

ثـم انفعلت مـرة أخـرى وارتفـع صوتى حتـى كأنه صـراخ دجاجة اقتربـت بيضتهـا، تركـت يدي إلى جـوارى وفردت صدرى، أشـتعلت عيناي بنظرات كلها غضب، ثم أكملت:

- لـن أذهـب مهمـا حـدث.. اعلم يـا رفعت أنـك لا تمتلـك زمام الأمـور، أنـا حـرة فـي أن أذهـب أو لا أذهـب.. ثم لمـاذا أذهـب إلـى الطبيب؟ هل لكوني تحدثت عن أنهـم تجار مهرة؟ هل من أجـل ذلك تريـد أن تذهب بـي إليهم حتى ينتقموا لأنفسـهم؟ أم لأنـي حدثتك عن كوني أكـره الفئران كبيرة الحجـم؟ أنت أيضا تكـره القرود، ولم يذهب بـك أحد إلى الطبيـب.. أم تفعل ذلك معى لأني حدثتك عن المشـروعات الضخمة والأنفاق بدلا من الكبـارى وعن الدولة (ب) داخـل الدولة الأم؟ هل وضع حلول للمشكلات ذنب كبير يجعلك تذهب بي إلى الأطباء؟! يا رفعت هناك كثيـرون مثلى يتحدثون كما أتحدث، وقمة الحرية ألا تجد رقابـة على الحديث.. أنت هنا تمثل الرقابـة.. هل أنت يا رفعت عميل للمخابرات؟ كنت أشـك في ذلك مـن البداية، أنت عميل للأمـن الداخلى؟! كيف فاتني هذا الأمـر رغم أن ملامحك تدل على ذلك؟! فأنت عريض الجبهة، سـميك الجلد، دهني البشرة، شـعر رأسـك كما الدبابيس، وأنت قصير أيضـا.. يا إلهي.. كيف

لـم ألاحظ ذلك منذ أن وفرت لـى الوظيفة، لكن يجب عليك أن تلفـت أنظار من تعمل معهم بأن الخطر الحقيقى هو الذي يحيط بنـا مـن الخارج، افعلوا مـا تفعلوه معهم، كونوا أسـودًا عليهم لا علينا.

انفعلـت بشـدة مـن كل شـيء، ولا أدرى لمـاذا؟ وبـدأت أتحـدث بعصبيـة، وبعض الكلمات كانت تتحـول إلى صراخ، يخرج رفعت من الغرفة مسرعًا وكان قد استبدل ثيابه. يُمسك بي بينما أقاومه بشدة.

قاومتـه خشـية أن ينفذ تهديـده ويأخذني عنوة إلى الطبيب، أمسـك بيديّ فشعرتُ بقبضتيه شديدتين مثل كلابتين يقبضان على قطع حديد، تألمت وصرخت، زاد من ضغطه كى لا يترك لى قوة للمقاومة، لكني لم أستسـلم مباشرة إنما حاولت أن أميل برأسى لأعض أى جزء منه تصله أسـناني، أطبق على هـذا الجزء ولن أتركه إلا بعد أن تسـيل منه الدماء، شـرد تفكيرى وتذكرت أفلام مصاصـى الدماء، تلك اللحظة التي غاب فيها تركيزى، اسـتطاع رفعت أن يتفوق عليّ ويحملني بذراعيه القويتين ويدخل بي إلى حجرة النوم، ألقاني فوق السـرير، وظل يهدأ من روعى لحظـات، وقبـل أن أسـتكين بالفعـل لاحظت أنـه يتعامل معـى بنفس العجرفـة فتقززت منه، حتى إني أردت الهجوم عليه بشـدة مرة أخرى، لكن ما أن رأى رفعت يديّ ترتفعان في الهواء حتى ابتسـم وهجم عليّ وأعادني إلى السرير.. ولكن برفق..

ألـم أقل أن وسائل دفع الأذى قد تكون هي الأذى بعينه..!!

استيقظتُ بعد ساعة تقريبًا، شعرتُ بانقباض رهيب في صدرى، كثيرة هي الهموم التي تثقل قلبي، فأشعر به مثل طائر حبيس في قفص حديدي ضيق، إن سُئلت يوما عن ذكر هذه الهموم أو بعضها سوف تعجز لغتى عن صياغتها، لكن مع شيء من التدقيق أجد خشيته من الغد، خوفي من مستقبل مجهول، رعبي من ارتكابي جريمة ما. أقتل نفسى أو أى أحد، ذاك ما يذهب بالنوم من عيني، بل ويأتيني في أحلامي فأصحو فزعة، أتأمل غرفتى، أجدها كما هي، كل شيء في مكانه.. الدولاب، منضدة التسريحة ومرآتي، شريط السجادة بين السرير والدولاب، الأباجورة على يميني،حتى ذلك الرجل القابع على يسارى، زوجى، يمتص النوم بسعادة كما المتلذذ..



«تتحمل المرأة وحدها عاقبة الانفصال
وإن كان الرجل هو سبب الأذى»

(26)

الطلاق

تمر أيام قليلـة على ذلك اليوم الأخير، لا أدرى لماذا تتملكني حالة مـن الهدوء بعد ممارسـة الجنس مـرة ثانية، حتى مع رفعـت؟! اقتنعتُ تمامًـا بأنهـا عملية تفريغ طاقة يأتـى بعدها الهدوء الذي لا يسـتمر أكثر من سـاعات.. سـاعات قد تصل إلى يوم واحد أعود بعده إلى أسوأ مما كنـتُ عليه، فأكبـح رغباتى وأفرغ طاقاتـى في عملى، حتـى ليبدو أمام النـاس أنني إنسـانه عادية جـدًا أمارس حياتى بشـكل طبيعى، لكن هذا كان ظاهريًا فقط، أما عن داخلى فلم يكن طبيعيًا أبدا.

لحظـات تمـر كمـا الدهر، أبحـث فيها عـن ذاتـى، لا أدرى من أنا، أيـن ذهبـت تلـك اللحظـات التي كنـت أشـعر فيهـا بروعة أنفاسـى!! أضحى شـهد رضابي علقما يشـق جوفي كلما ارتشـفته، أضحيت كما الدميـة، يحركونها.. فلا تشـعر أين هـي.. ولماذا؟!!كلما زاد صمتى.. زاد انكسـارى، آه يا لوعة ذاك القلب المسـكين المستكين في صدرى،

يئن مثل عصفور بلا أجنحة، هل سيأتي ذلك اليوم الذي انتظره؟ هل سأعود تلك الأنثى الرقيقة؟ هل سيجد قلبي ذات يوم صدرًا يحتويه؟؟

نيران مستعرة بداخلي، نزاع يكاد يقطعني إلى أجزاء، مثل قنبلة تنفجر في حاملها قبل أن يضعها ويهرب. لم أكن أشعر برغبة في العيش مع رفعت لكني في الوقت ذاته لا أستطيع الانفصال عنه، وكلا الأمرين نار مشتعلة.

الزوجة لا يجب أن تفشل مهما حدث، لا يجب أن تطلب الطلاق بأي حال حتى إن وصل الزوج إلى ما لا يوصف، ما هي نظرتهم نحوي وأنا أطلب الطلاق؟! وإن نجحت في ذلك، ما هي نظرة المجتمع كله نحو المطلقة؟! يحملونها كل السوءات، يفترضون باستمرار أنها مَن هدمت بيتها!! تمامًا كما ممارسة الرذيلة، هي بين فتى وفتاة، لكن كل أشكال اللوم تلقى على الفتاة حتى لتصل إلى قتلها وإلقاء جثتها في بئر سحيقة أو في مجرى مائي، يا لهذه الأفكار التي تبحث عن الضعيف باستمرار لتلقى على كاهله كل موبقاتها، فتزيد من ضعفه وقهره، حتى يتلاشى بعد أن تاكله نيران ضعفه.. كنت أرغب في الانفصال عن رفعت ولا أرغب خشية تلك النظرة القاتلة.

حاولتُ استشارة بعض الأطباء في المستشفي. وفي اللحظة التي كنت أقف فيها مع الطبيب، أحدثه بما أشعر به من تغيرات مثل الصداع والإمساك، أتذكر رأيي في الأطباء، فيضطرب داخلي، أنظر نحوه في ريبة، فلعل رأيي فيه قد وصله بأي شكل ولسوف ينتقم مني بأي شكل، يجب أن أكون حذرة، مستعدة لأي فعل عدواني تجاهي، لن أتناول أي



دواء سوف ينصحني به إلا بعد أن أقرأ النشرة المرفقة وأطلع على الآثار الجانبية، أعود من شرودي عندما يقول الطبيب:

- مدام سوسن.. لا توجد أسباب واضحة لما تشكين منه، فأنتِ من الناحية الطبية في حالة جيدة.

يزداد اضطرابي، أهمس وأنا أضغط على أسناني :

- إذن لماذا طلب رفعت هذا؟!

يتأملنـي الطبيب مستفسـرًا عن مَـن رفعت وماذا طلـب؟! أتركه في حيرته وأنصرف بسـرعة لأعود إلى منزلـي، أختلى بذاتى وأتقوقع فوق سـريرى مثل قنفـذ صغير، أفكر وأحـاول أن أصل مع ذاتى إلى تسـوية معقولة لعلاقتى النفسـية بالأطباء، نعـم.. يجب أن أقوم بصياغة جديدة لتلك العلاقة، لعلني أحتاج إليهم في يوم ما، فقد يستغل أحدهم ضعفي ويصيبني بسـوء، لابد أنهم يـودون التخلص من أعدائهـم، وطبيعى أن يخبرهـم رفعـت بأنـي أكرههـم مثل كرهـي للفئـران كبيـرة الحجم، يا لغبائـي.. لمـاذا تفوهـت بهـذه العبـارات، كان يجـب علـيّ أن أحتفظ بأسـرارى لنفسـى، لم يعد العالـم يحتمل تلك المصارحـات، مَن يبدو اليـوم.. لا.. بل مَن يبدو في تلك اللحظـة صديقًا حميمًا قد ينقلب إلى عدو شرس.

الأمر سـوف يحتاج لبعـض الوقت وكثير من التركيـز كى أصل إلى تلـك المصالحـة، فلن أنجح فـي تحقيقها حاليا، ذلـك لأن داخلى غير مقتنـع تمامًا بتلـك المصالحة، فأنا اتخذت منهم ومـن أفعالهم القبيحة

موقفًا صارمًا. يبدو أن هذه الفكرة قد سيطرت عليّ لدرجة أنها شملت كل الأطباء، حتى المثالي منهم.

في مساء هذا اليوم أتت أمي لتعودني، أتت وحدها، من نظراتها استشعرتُ عدم رضائها بما وصلتُ إليه، كانت تنظر ناحيتي بشفقة وتواري دمعة، صارعتُ رغبة جامحة بداخلي مؤداها أن أتجاهل مشاعر والدتي أو أتعامل معها بسطحية، هذه الرغبة آلمتني كثيرًا، أمي التي أحبها حبًا جما يراودني شعور بتجاهلها؟! أي مستوى انحدرتُ إليه أنا؟!! قاومت.. بصعوبة ابتسامة كسيرة مثل مذنب يستجدي الغفران، انتزعت نفسي من بين أفكاري وحدثتُ والدتي:

- أماه، يبدو أن هناك شيئًا ما بداخلك؟
- أردتُ فقط الاطمئنان عليكِ بنيتي.
- أنا كما ترين، على أكمل وجه.
- أنتِ زهرة بلا ماء..!!
- ومن أين يأتي الماء يا أمي؟

من بعيد يأتي صوت احتكاك إطارات سيارة بأسفلت الطريق يتبعه أنين كلب، تقف أمي وقد فردت ذراعيها لتحتويني، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أبكي في أحضانها، تمنيتُ لو أننا على شاطئ النيل، أسفل شجرة الصفصاف وألمح القارب الصغير يأتي من بعيد، بعد هنيهة قالت أمي في أسى:

- آه يا سوسن.. لو أنكِ تتحدثين؟



- أماه.. لو أعلم ما بداخلى.. ما جعلته يكون، ولكن..

- لا تكملى يا سوسن، إنها أعمال شيطانية..

دفعتنـي إلـى الخلف قليـلًا لتنظر في عينيّ مباشـرة ولا تـزال يداها تطبقان على كتفي، ثم تكمل قائلة :

- لقـد سـيطرت عليكِ الشـياطين يا حبيبتـى، أنا أعلم ذلـك جيدًا، عندنا في القرية حالات كثيرة مماثلة.. وشفيت والحمد لله.

- كيف؟!

خرج السؤال مني بشـكل أوحى لأمى بقناعتى، لكن الحقيقة كانت أن سؤالى : كيف يا أمى يصل تفكيرك إلى الشياطين والسحر والدجل؟ لكنها تحدثت ردًا على ما فهمته من سؤالى قائلة:

- لا تسألى كيف.. الأهم الآن هو الذهاب إلى هناك..

انتزعتُ نفسـى من بين يديها كما تُنتزع شـوكة من صوف،عُدتُ إلى الخلف خطوة واحدة، نظرتُ نحوها بشدة وأنا أرتجف، ينتفض لساني في حجرته:

- ماذا تقولين؟! أنا لستُ مريضة.. هل حدثك رفعت عن شيء؟

تأملتنـي مسـتفهمة وقـد تهـدل ذراعاهـا إلـى جنبيها وتلاشـى أنين الكلب في الشارع وحل محله نفير متداخل لسيارات ترتعد تحت أقدام سـائقيها، يبدو أن تكدسًـا مروريًا حدث. ابتلعت أمـى كلمات ما، يبدو أنهـا صاغتها من لهيب آلامها لكنها تراجعـت عن النطق بها، ثم زفرت قبل أن تقول :

- رفعت..؟! رفعت لم يحدثني يا بنيتى.. ثم من قال أنك مريضة؟ إنها أفعال الشياطين ولابد من طردهم، يجب محاربة الشياطين التي سكنت جسدك يا سوسن.

تأملتها لحظات، تأملتها بعنف، حتى إني شعرتُ باتساع حدقتى عينيى فآلمتني، عصرتهما بعنف حتى سالت دمعتان، لاحظتُ نظرات أمى نحوى.. نظرات مزيج من دهشة ورعب.

جلستُ على أقرب مقعد أمعن التفكير.. كيف يحدث ذلك؟ كيف تسكن الشياطين الأجساد؟! معلوماتى في هذا الشأن تقرر بأن الشياطين تغوى البشر إلى الضلال والهلاك، لا يستجيب لها إلا الضعفاء، حركت يدي في الهواء ثم مسحت بها على وجهي بعنف وكأني اصطدمت بخيوط العنكبوت، علتني الدهشة، تحدثت إلى والدتى بشىء من الهدوء واللباقة قدر المستطاع كى لا تقرأ داخلى، وضعت يدي على كتفيها، تأملتها في رفق مع ابتسامة خفيفة:

- أماه.. لا يوجد ما تتحدثين عنه، نحن كبشر أقوى بمراحل من هذه الشياطين التي تتحدثين عنها، وإلا انتهت الدنيا من قديم الأزل، إن ما تفعله الشياطين في سنوات طويلة يذهب بلحظة إيمان صادقة بالله تعالى.. يبدو أنني أصبت بمرض بسيط وقد سألت الأطباء الذين أكدوا لى أنني في حالة صحية جيدة، إنني أعمل بمستشفي عام مليئ بالأطباء.. نعم أنا أعلم أن الأطباء، جميع الأطباء في المستشفيات الحكومية لا يتعاملون مع المرضى بنفس الأسلوب الذي يتعاملون به مع مرضاهم في عياداتهم الخاصة،



إنهم في المستشفيات العامة يتعاملون بشكل روتيني جدًا حتى تسوء سمعة هذه المستشفيات.. إنهم بلا ضمائر وأكثرهم حرصا علـى مراعاة الأخلاق وخوفا من الله يتعامل مع المرضى بنصف ضميـر وما يؤكد حديثي هذا يا أماه أن بعـض العيادات الخاصة أصبحت اليوم مكدسـة بالبشر، أتعرفين هذا الطبيب المتخصص في طب الأطفال في المدينة المجاورة لقريتنا؟ عيادته الخاصة لـم تعـد تكفي الزبائـن، نعم يا أمـي إنهم يطلقـون عليهم لقب " الزبائن " حتى إن الممر الواسع المؤدي إلى العيادة لم يعد يكفي المرضـى ومن معهم، لقد رأيت بعينـي بعضهم يقف على قارعة الطريـق حزانـي يتجرعون آلامهم، هـذا الطبيـب يكتب أصناف أدويـة قـد تصلح لأكثر مـن مرض حتى يضمـن أن أى مرض لن يخـرج مـن تحت سـيطرة الأدويـة التي كتبهـا فيضمن الشـفاء.. وفـي أيامنا هذه لـم تعد ظاهرة رؤية الأطبـاء للأدوية بعد صرفها مـن الصيدليـة موجودة، هـذه الظاهرة التي تعفي مـن الوقوع في بعـض الأخطاء الخاصـة بالصيدلـى أو الصيدلانيـة، وذلك لأن الطبيـب لم يعد لديه الوقت الكافي لذلك على الرغم من انتشـار حملة المؤهلات المتوسـطة للعمل فـي الصيدليات، لهذا كله يا أمـى أقرر لـك أن الأطباء في المستشـفيات العامـة يتعاملون مع المرضـى بلا ضمير أو حتى أنصاف ضمائـر.. تمامًا كما يحدث للطلبـة في المـدارس، المـدرس يتعامل مـع الطلبة بـلا ضمير، وذلـك حتى يتيـح لهذا الضميـر أن يصحو بقوة فـي مجموعات

الدروس الخصوصية.. ظاهرة الدروس الخصوصية يا أمي أبشع من أن تعالج بمجموعات التقوية في المدارس، يجب أن يعاقب عليها القانون، والمدرس الذي يضبط بممارسة هذا الفعل الشنيع يعاقب إما بالحبس وإما بغرامة لا تقل عن قيمة مرتبه عام كامل على الأقل، يجب يا أماه أن تنشئ الشرطة جهازًا كاملًا لمكافحة الدروس الخصوصية، كما أنشأت أجهزة لمكافحة المخدرات وجهازًا للآداب.. المشكلة كلها يا أمي تكمن في ظاهرة " اللاأخلاق " المنتشرة عند الجميع.. الحقيقة أن الأطباء والمدرسين يؤدون عملهم، كما أن الأجهزة الرقابية تؤدي عملها، ولكن الضمير كالزئبق لا يستطيع أحد الإمساك به.. الطبيب أو المدرس يعمل بالفعل ولا عقوبة لمن يعمل، لكن الأسى كله في أن هذا العمل يؤدي بلا روح.. كيف مثلًا يُشفي مريض والطبيب يرنو نحوه باشمئزاز، هذا يحدث في المستشفيات العامة، بالله عليك يا أمي هل يُعاقب الطبيب على مثل هذه النظرة التي هي تعبير عن قمة الانهيار الأخلاقي؟ أما في العيادات الخاصة، فإن نفس الطبيب.. أتصدقين ذلك؟! نفس الطبيب يا أمي يبتسم.. يرحب.. يودع.. يُشعر المريض بأنه صديق حميم.. ثم.. كيف يفهم الطلبة والمدرس "مكشر" في وجوههم وهو يضع عددا من النقاط على السبورة؟ أين روح الشرح؟! يجب أن تدرس مواد الأخلاق، يجب أن نكون شعبًا يقدس الأخلاق، فهي منبع الإصلاح الشامل يجب أن تعم الأخلاق العالم أجمع.



أنهيتُ كلامي منفعلة وقد شعرت ببرودة في أطرافي وسالت دموعي.. بكيتُ بشدة، تقف أمي وعلى وجهها ترتسم علامات الرعب مثل طفل شاهد تمساحًا يقترب، احتضنتني وهي تزفر، ثم مسحت بيدها على رأسي وهي تقرأ بصوت غير مسموع آيات من القرآن، فهي ما زالت مقتنعة بأن الشياطين قد سكنت جسدي، تسلل إلى وجهي حنينها، صدرها الممتلئ محبة بث بداخلي سكينة، ويبدو أني هدأت لحظة فرفعت رأسي أتحدث من بين دموعي:

- بالرغم من أن الأطباء كما ذكرت لك يا أمي إلا أنهم أكدوا لي أنني بصحة جيدة ولم يتعاملوا معي بأنصاف الضمائر، لأنني أعمل معهم في المستشفي..
- إهدئي يا ابنتي.. سوف تستقيم الأمور..

ربتت على ظهري وضمتني بحنان أكثر، غاص وجهي في صدرها مرة ثانية، عادت أمي لقراءة آيات من النور مع المسح باليد فوق رأسي.

***

«علم الخرافة سيظل أعظم العلوم

وأكثرها إنتشارا.. بلا معلم»



(27)

العلاج

يرحب بفكرة عودتي مع والدتي إلى القرية، يبدو أنه كان يرغب في التخلص مني تحت أي مسمى، لكنه كان لا يمتلك الجرأة على الإفصاح، كنتُ ألمح في عينيه تعبيرات كثيرة، ينعى فيها حظه من الارتباط بفتاة تكون طوع أمره، يبدو أنه كان يعتقد في داخله أنه كان يستحق فتاة أفضل مني!! تبًا لك يا رفعت، أنت وأمثالك لا يجب أن يرتبطوا برباط الزواج المقدس، كلكم مرضى ومكانكم الطبيعي هو المصحات النفسية، كيف تحلم يا هذا بفتاة أخرى بعد أن حطمتني وكنت سببًا رئيسيًا في ضياعي؟!

طوال الطريق برفقة أمي كنتُ أفكر في موافقتي على خوض هذه التجربة الخاصة بطرد الشياطين، لقد كانت موافقتي معلقة على موافقة رفعت، هذه هي المرة الأولى التي انتظرتُ فيها رأيه في شأن من شئون حياتي، رغم أني أدرك جيدًا أنه لا يناقشني في رأي اقتنعت به، حتى إنه دُهش من تعليق موافقتي على موافقته، ولكنه لم يتحدث بأكثر من



الموافقـة التي كانت كما القشـة التي قسـمت ظهر البعيـر. فقد جمعتُ بعـض ثيابي وذهبتُ مع والدتي بلا تردد، مُصارعة بذلك رغبات شـتى اعتملت بداخلي، كان من شـأنها، إن أتيح لها الخروج في هذا التوقيت بالذات، أن تنهي العلاقة القائمة بيني وبين رفعت. لكني آثرت الصمت، يجب أن يرتاح قلبي من عناء الحياة الزوجية والعملية أيضا.. دُهشت.. فها هي المرة الأولى التي يرد فيها على تفكيري أنه يجب أن أرتاح قليلا من العمل، فأنا أعشـق العمل.. الآن أبغضه!! لقد تغيرت مفاهيم كثيرة في حياتي.

الحيـاة متقلبة وأحد أهم صفاتها الانتقـال والتبدل من يوم إلى يوم، من فصل إلى فصل، لكنها في النهاية تغيرات داخل إطار واحد ثابت، لا مانع أبدًا من أن أقوم بأمور أنا غير مقتنعة بها، أقدم عليها من قبيل التغير وتبديـل الأوضـاع، فقـد اختبرت الكثيـر ولا مانع أبدا مـن اختبار أمور أخـرى وإن كانـت أكثر تطرفًا، حتى وان كان طرد الشـياطين. الإنسـان حيوان مُخرف، هذا آخر ما اسـتطعت التوصل إليه. تحدثت إلى نفسـي بذلك في اللحظة التي جلستُ فيها وحيدة في منزل أبي.

إننـا ندرك جيدا العمليات الرياضية، واسـتطاع العلماء التوصل إلى كل مـا يحتوي عليه الجسـد، وهـا هم يصلون إلى الاستنسـاخ ويغزون الكواكب، وأصبح هناك علماء في شتى المجالات المعروفة.

لكـن هل اسـتطاع أحدهـم التوصل إلـى أعمـاق النفس البشـرية؟ التوصل إلى تقديرات وتفسـيرات واضحة لهذه الأشياء غير الملموسة التي تتحكم في التفكير؟!



كل النظريـات الموجـودة والتحليـلات النفسـية، ما هـي إلا مجرد استنتاجات تخضـع لأهـواء أصحابهـا. الوصـول إلى أحـد الكواكب أسـهل مـن الغـوص داخـل الكيان البشـرى لصياغـة نظريـة يمكن من خلالها تفسـير الأفعال الإنسـانية، إنه الإنسان، هذا الخليط المذهل من الأعضاء والأفكار والأحاسيس والمشاعر.

يجـب أن أدعـو العالـم أجمع للسـمو بـ« الشـخص ».. الشـخص الذي يجب أن تكون سـعادته هي الهدف النهائي.. أعلم جيدًا أن هناك أناسًـا يموتون جوعا أو يموتون بنيران القاذفات، أو البراميل المتفجرة، يموتـون في سـفن تغرق وقطارات تحترق وطائـرات مفخخة، يموتون بلا ذنب، يموتون لأن هناك من يريد أن يصنع من أكوام الجثث البشرية جبـالًا يصعـد فوقهـا ليبلغ عنان السـماء، شـخص لا يسـتطيع الصعود بأفضليتـه فَصعِد بقوته، ويا للأسـف.. يعاونه في القضاء على البشـر.. بشـر، ولكنهم أميون.. نعـم.. أميون لأنهم لا يفقهـون حرفًا واحدًا من الحروف الهجائية للمشاعر والأحاسيس.

إننا البشر أسمى من ذلك بكثير، يجب أن يتوقف كل مقترف جريمة ويفكر جيدا في هذا العالم أجمع المتجسـد في شـخص المجني عليه، ينظر إلى الشخص (الفرد) على أنه يمثل كل أفراد العالم.. نهاية الفرد يجـب أن تثيـر الجميع.. يجب أن يهتم كل فـرد على وجه الأرض بهذا الـذي يبكـي على الطـرف الآخر مـن المعمـورة، وأن يحـزن من أجله ويشعر بالأسى لبكائه.

ظلت مثل هذه الأفكار تدور في رأسـي حتى أوشك على الانفجار، خرجـتُ مـن الغرفة أترنح، أبحث عن أى شـيء يشـغلني عـن التفكير المسـتمر، جلسـتُ مع والدي، طلبت كوبًا من الشـاى من أمي، سألتُ أبي عن حبة مسـكن، فأرسـل شقيقي الأصغر لشـرائه من أحد محلات البقالـة، ففي الريف تبـاع بعض الأدوية العامة في محـلات البقالة!! لا غرابة، فقد تحولت الصيدليات إلى محلات للبقالة هي الأخرى.

أخبرتني أمي أن الشيخ « جلال » سوف يأتي مساءً لعلاجي، دُهشت لاقتـران لفظـى « الشـيخ » و» العـلاج ».. يلاحـظ والـدي امتعاضـي، يحدثني بأن هذا أمر شائع جدًا، بل قيل إن الشيخ «جلال» لديه ترخيص مـن الحكومة بممارسـة الطب، ثم عقب والدي بأنـه الطب الروحاني. حاولـت جمع خيوط الأسـى مـن على وجـه والدي، لكني وللأسـف الشديد لم أجد أى تعبير من تعبيرات الأسى على وجهه، يبدو أنه يمتلك اقتناعًـا تامًا بأن بي مسًـا من جان، وأن ذلك يحدث بالفعل، ولسـتُ أنا الأولـى التي يجب أن تجذب العطف والآهات، تخيلتُ أنني لو سـألته عن جمود مشـاعره، سـيقول لى بأن كثيرات مسـهن الجان وشفين بعد جلسة مع الطبيب الروحاني، وسوف يمط شفتيه ويكمل قائلًا بأن تلك سُـنة الحياة، فإذا نظرتُ نحوه بدهشـة!! فسـوف يوضـح بأن الأمراض التي تصيب الإنسان أمر طبيعي، فنحن لا نعيش في الجنة.

كيـف لمثـل والدي وأقرانـه من الفقـراء الذين يحاربـون الفقر بكل مـا يمتلكون من قوة حتى يهزمهم تاركًا على وجوههم وفي أجسـادهم أمراضًـا وهمومًـا لا حصر لها، كيـف لهم أن يتقبلوا تلـك الهزيمة بهذا



الهـدوء ويفسـرونها على أنها أحـد جزئيـات الحياة، ويرتضـون القهر والهـوان بحجـة أننا لا نعيش في الجنـة!! طوبي لكم أيهـا الفقراء.. إن الجنـة موجودة علـى الأرض ويعيش فيها وينعم بنعيمهـا مَن يريد، مَن يجتهـد ويحـارب من أجل تحقيق أهدافه، أما أنتم.. أيها المستسـلمون للقهـر.. المهانون.. أنتم ضعفاء، تواررون ضعفكم هذا بأن ذلك يحدث ولا يد لكم في تغييره.

حصول الشـيخ على تصريح من الجهات الرسـمية بممارسة الطب الروحاني ما هو إلا شائعات يطلقها حول نفسه ليرفع من قدره. الأسوأ تلك الاعلانات القبيحة عنهم في القنوات، يتحدون الله جهرة ويعلنون أنهـم يمتلكـون القـدرة على فعل أشـياء خرافيـة في دقائـق.. ثم ينهون حديثهـم الممجـوج بكلمـات : بـإذن اللـه. وكأن ذلك ختم الشـعار.. يؤكـدون بـه صحـة أوراقهـم.. أقوالهـم.. أنفسـهم.. عمليـات نصب فجـة.. والضحايـا.. الفقـراء.. الذين يبحثـون عن أى خيـوط يتعلقون بهـا.. لا يسـتطيعون الفرار من تأدية دورهم الأسـهل في هـذه الحياة.. دور المغلـوب على أمره.. الماريونـت المعلقة في طرف خيط يحركها صاحب القوة كيفما يشاء.

والدتى تؤكد أنها شـاهدت بعينيها أشخاصًا من دول غير دولتنا أتوا خصيصًا من أجل عرض أنفسـهم على هذا الشيخ.. ألـم أقل أن الإنسان مخرف؟!

***

«كل أخطاء البشر يتحمل وزرها الشيطان..
وهو تكأة أصحاب النزوات»



(28)

الشياطين

يستعدون في الخارج لاستقباله، سوف يحضر بعد ساعتين فقط، همسٌ في كل مكان، تستعير أمي جهاز كاسيت من جارتنا أم إبراهيم وتتأكد من أنه يعمل حيث تجرب تشغيل شريط، يخرج صوت عبدالحليم حافظ يغني قارئة الفنجان، أتاني صوته عبر باب غرفتي المغلق رخيمًا، تمنيتُ لو استمعت إلى الأغنية كاملة، لكن تم بتر الأغنية سريعًا، يبدو أنهم اعتبروها فألًا سيئًا، دقيقة تمر يأتيني بعدها صوت قارئ قرآن خليجي، صوته رخيم، شجي، أرهفتُ سمعي لأتمكن من سماعه، فقد كان باب الغرفة يعزل معظمه عني، مع شدة تركيزي أغمضتُ عينيي وتنفستُ بهدوء شديد، اهتز السرير من تحتي وكأنه ينساب على صفحة ماء قد يثور بعد لحظات، شعرت وكأني أطير في الهواء، تترامى أمامي الأرض والبيوت وأناس يتحركون مثل حشرات صغيرة، الغريب أني لاحظتُ بين جموع البشر الضائعة الملامح، ثعابين وكلابًا، ما لفت نظري أكثر هو وجود كلب أسود يتأملني بشدة،

خلفه يقف قرد ضخم يتابع سيل النظرات المتبادل بيني وبين الكلب، ما أن لاحظتُ هذا القرد حتى تركت الكلب وتأملت القرد، ملامحه ليست بعيدة عني، أشعر وكاني شاهدتها من قبل، تأملته أكثر، ويبدو أن رغبتي كانت متحكمة في البساط الذي يحمل سريرى، فقد هبط البساط واقترب أكثر وأكثر من القرد، إنه هو.. إنه رفعت.. عيناه.. أنفه الأفطس.. ابتسامته الباهتة، مددتُ يدي كي أطبق على رقبته، اختفي فجأة، واختفت الصورة بأكملها ليحل محلها صورة أخرى متكاملة المعالم، متحركة شخوصها، غابة متشابكة الأغصان، يصدر منها أصواتٌ هي مزيج بين عواء وزئير، تطل الغابة على شاطئ لا ماء فيه إنما نيران تمد ألسنتها لتصل إلى عنان السماء حتى كادت تبتلعني بداخلها، صرختُ أستغيث بمن ينقذني، تلفتُّ يمينا ويسارًا، لا أحد في الأفق، صرختُ وصرختُ، يد معروقة تمتد نحوى، تربت على خدي برفق، أرتعد وأرتد إلى الخلف ليغوص رأسى في الوسادة، بعد معاناة أفتح عيني، أجدها تقف أمامى في حالة ذهول، إنها أمى، تمسح على رأسى وتستغفر وتقرأ بعض أيات القرآن، أعتدل وأواجهها، تخبرني بأنها أتت مفزوعة بعد أن سمعت صراحى، ثم قرأت سورة الفاتحة قبل أن توقظني، ثم عادت لتؤكد لى أن ذلك الشر سوف يزول مع جلسات الشيخ جلال، فموعده بعد نصف الساعة، نصف الساعة؟! يبدو أنني قد نمت قرابة الساعة ونصف، لم يكن ما بها حلمٌ بقدر ما كان كابوسًا.

طلبتُ من أمى أن تعد لى طعامًا سريعًا مع كوب شاى، فلا أعلم كم من الوقت سيقضيه هذا الرجل هنا.

التهمتُ طعامي بشراهة الجائع لمدة ثلاثة أيام، تناولت الشاي مستشعرة لذته التي لم أستشعرها من شهور طويلة، لم أهتم بنظرات أمي التي تتبادلها مع والدي، لم يمتلكا القدرة على الإفصاح ولم أمتلك القدرة على المواجهة.

أتى الشيخ « جلال «.. يبدو في بداية العقد الخامس من عمره، قوى الجسد، ملامحه حادة نظراته تنطلق بلا حجاب وإن حاول أن يغض من بصره، لاحظت يده وهو يصافح بها والدي، كف عريض ممتلئ وأصابع طويلة حتى إني راحة والدي غاصت في كفه، كان مثل رجل رياضي أمضى شبابه مصارعًا أو ملاكمًا، تكورتُ وانكمشتُ في داخلي يعتريني خوف ويتملكني اضطراب شديد.

انتهت لحظات الترحيب التي كانت بجوار باب منزلنا، الرجل يحل محل الباب المفتوح بينما يواجهه والدي وخلفه أمي تبتسم ابتسامة مضطربة وتنظر في كل اتجاه حتى تستقر بنظرها عليّ فتقترب لتضمني برفق ثم ترنو باستغاثة نحو الشيخ القادم، وكأنها تسأله أن يبذل قصارى جهده لمواجهة ذلك العدو الذي يسكن جسدي.

تمد أمي يدها وتضعها برفق فوق كتف والدي تجذبه إلى الخلف كي يفسح الطريق للشيخ جلال وهي تطلب منه الدخول بابتسامة حاولت أن تجعلها طبيعية.

احتوتنا غرفة الجلوس، وهي غرفة الاستقبال في منزلنا، تحتوى على ثلاث كنبات من خشب الكافور عليهما مراتب قطنية يعلوهما فرش من قماش مزركش بألوان زاهية، يجلس الشيخ جلال على الكنبة

الموجودة أسفل النافذة، على هذه النافذة المطلة على الشارع تنسدل ستارة من قماش أبيض مطعم بزهور بنفسجية، تهتز الستارة مع ولوج الهواء وخروجه من النافذة فتصطدم برأس جلال من الخلف، يمد يده ليبعدها فتعود، أسرع والدي ليجمع الستارة ويربطها في عقدة لتتحدي نسمات الهواء، لكن الشيخ جلال يمنعه بشدة قائلاً:

- أتيت لأحل العقدة.. ولن أكون سببًا في عقدة جديدة.

باضطراب تتوقف يد والدي الممسكة بالستارة وهو يعلق :

- لكن يا شيخ..

يبذل جهدًا في منع ضحكة، لا أدرى أكانت صادقة أم مصنوعة وهو يقول :

- يحاولون مضايقتي، لكن هيهات.. لنبدأ العمل..

يقف والدي ناظرًا نحو أمي وكأنه يسألها التصرف، تقف وتفتح باب غرفة الاستقبال وتشير نحو الغرفة الجانبية، غرفتي، ثم تنظر نحوى لتسوقني إليها، تقدمت الموكب برأس مطأطئ، تتبعني أمي، بينما يُقدم والدي الشيخ جلال للدخول قبله.

جلستُ على حافة السرير، بينما حملت أمي مقعدًا ليجلس عليه الشيخ جلال وأبي يقف متابعًا لا يجد ما يفعله فعدل من وضع المقعد، يجلس جلال هذا على المقعد وهو يتلفت يمينًا ويسارًا متفحصًا تفاصيل الحجرة، تتحرك شفتاه بكلمات غير واضحة، يمد يده ليطفئ جهاز الكاسيت الذي كان يعمل بصوت هادئ باعثًا آيات القرآن



الكريم، بعد هنيهة يتنحنح ناظرًا نحو والدي، يبدو أنه قرر أن يبدأ العمل الذي لن يستطيعه في وجود والدي، تفهم أمي إشارته فتسحب والدي من ذراعه الأيسر لتخرج به. تركت أمي الباب خلفها مفتوحًا.

يزدرد لعابه بصوت مسموع، ثم يبدأ في التحدث بهدوء، يسألني:

- أولا.. لابد وأن تعلمي بأنكِ منتصرة بإذن الله على كل الشياطين، يتطلب ذلك إيمانًا كبيرًا و ثقة بأنكِ أقوى من تلك الشياطين، واعلمي أيضا بأن الجان مهما كانت قوته فهو ضعيف جدًا أمام قوة الإيمان بالله.

بجفاء رهيب وبصوت بدا وكأنه خارج من فنطاس نحاسي، أجبته:

- و مَن أخبركَ بأن هناك شياطين وجان!! اعلم أنت أنني بعيدة كل البعد عما يقولون، إنما رضختُ لرغباتهم لأظهر لهم جنونهم.. يلقون بخطاياهم فوق أي حاملة أخطاء وإن كانت الشياطين.

- طبيعي أن أستمع إلى مثل هذه الكلمات وأكثر، من شخص ممسوس أو ملبوس، إنهم يسيطرون على تفكيرهم، في البداية يقنعونك تمامًا بأنك لستِ مصابة، ثم يبدأون في تشويه صورتي أنا أو أي معالج آخر، كل ذلك قبل أن تبدأ بيننا الحرب المعلنة.. على العموم أود أن أستمع منك تفاصيل أحلامك.

قررتُ أن أستمر في التجربة حتى نهايتها، مصيرهم الفشل ومصيري النجاح، فليفعلوا ما يفعلونه، يريد معرفة ما أراه في أحلامي، سوف أخبره بكل ما أراه وأشعر به، لا لأن يستفيد بتلك المعلومات لعلاجي

وإنما كى أفرغ ما بداخلى من هموم وآلام، عقدتُ ساعديّ على صدرى بينما التفت ساقىّ فوق بعضهما، تحدثتُ :

- أمر بحالات متضاربه، أمور غير مستقيمة، منها حالة الأرق التي أعانيها، لا أستطيع النوم إلا بصعوبة، وإن حدث وذهبتُ في النوم فهو نوم مضطرب، قلق، أستيقظ أكثر من مرة وكأن أحدهم يوقظني كلما إستيقن ذهابي في النوم، إممم.. آه.. أحيانًا يرتعد جسدي ويتحرك ذراعاى بحركات غريبة أندهش منها (تذكرتُ يوم أن عقفتُ يدي أمام صدرى أستعطف رفعت ألا يذهب بي إلى الأطباء وألا يخبرهم برأيي فيهم) أو تلتف الساق بالساق (نظرت لساقىّ الملتفان) مثل حالتهما الأن.

كان ينصت مبتسمًا، يهز رأسه من أعلى إلى أسفل بثقة، يفكر لحظات ثم يتبع حديثى وكأنه يربط بين كلماتى وأشياء بداخله، أو يوزع عباراتى على خانات في جدول صنعه في خياله، يستحثني على الاستمرار فيقول :

- تمام يا سيدة سوسن.. أفهمك جيدًا.. أكملي.. أريد أن أسمعك حتى النهاية.

- إمممم.. أخبرتك بأنني أشعر برعشة ورعدة في جسدي.. آه.. هناك الكوابيس، أصبحت لا تفارقني، أشاهد ثعابين وكلابًا وكثيرًا من الحيوانات المتوحشة، أستيقظ من نومى مفزوعة،.. مممممم.. أرى القرد كثيرًا.. قردًا شرسًا عيناه تحملان الكثير من



الرغبات (انكمشتُ أكثر) أخشى هذا القرد، وإن كنتُ أضحك وأقلب الأمر لأجعله دعابة وأنا أشبه رفعت، زوجي، بالقرد..

هنا توقفت عن الكلام وضحكت وأنا أتخيل رفعت جالسًا معنا وقد سمع رأيي فيه بصراحة وأنا أشبهه بالقرد، ليته كان موجودًا، وإن غضب، أخبروه بأن ذلك من فعل الشياطين، هدأتُ قليلًا، لاحظتُ شبح إبتسامة يتلاشى من فوق وجه الشيخ جلال، ثم لاحظته وعيناه تستقران على ذلك الجزء الموجود أسفل رقبتي، كنت أرتدي ثوبًا منزليًا من القطن الأبيض، ألقيت بطرحة حمراء على رأسي لأوارى بها شعرى الأسود، لم أهتم بجمع أطرافها حول رقبتي فكانت الطرحة مدلاة على كتفيّ تاركة رقبتي وأعلى صدرى بلا حجاب، يبدو أنه لاحظ أني كشفت نظراته، فاعتدل في مكانه وهو يعاود ازدراد لعابة بصوته المسموع مرة أخرى ثم يسألني بلهجة آمرة، كأنه يخبرني بأنه ليس من هذه الفئة التي قد تتلصص على رقاب النساء وأنهارهن الرقيقة بين الثديين، سألني بهدوء الواثق المتعالي:

- أخبريني يا مدام سوسن.. كيف هي العلاقة الحميمية مع زوجك والذي تشبهينه بالقرد؟

أجبته بانفعال :

- نعم أشبهه بالقرد.. ما شأنك أنت!! هل تود أن تخبره؟.. اخبره إن أردتَ ذلك ،، هل تتخيل أن الأمر عاد يعنيني!! بالطبع لم يعد يعنيني.. وكم تمنيتُ أن يكون رفعت حاضرًا ليسمع رأيي فيه بمنتهي الصراحة.. (هدأتُ وتذكرتُ سؤاله) آه.. تسألني

عن العلاقة الحميمية.. سوف أخبرك.. لا لأنك تريد.. أو لأنك تحمل علاجًا.. إنما أخبرك لأنني أريد أن أفرغ كل ما لدي.. (لم أهتم بقناع الضيق والتذمر الذي رسمه على وجهه) إسمع يا سيدي.. العلاقة الحميمية بيننا مضطربة تمامًا.. أحيانًا.. لا.. كثيرًا وليس أحيانًا.. كثيرًا ما أصاب معها بمغص ورغبة شديدة في القيء، لا رغبة ولا استمتاعًا بل شعور بالغثيان، هل قرأت الأعراض الجانبية المصاحبة لعلاج بعض الأمراض، تلك الأعراض التي تكتبها شركات الأدوية في النشرات الداخلية، يكتبونها بخط صغير للغاية حتى ييأس المرضى من قراءتها فلا يعرفون الكوارث التي تسببها الأدوية، تجد مكتوبًا : يصاحبه شعور بالغثيان وإحساس بالقيء مع حالة أرق وميل إلى الدخول في حالة إكتئاب وإمساك مع وهن في العظام.. نعم.. هذه الأعراض الجانبية تصاحب الكثير من الأدوية، تلك الأعراض كلها تصاحب العلاقة الحميمية مع رفعت.. لكن للإنصاف.. حدث مرة أو مرتين أو..إممممم.. خمس مرات.. نعم خمس مرات على مدار مدة زواجنا كنت أشعر فيهم بالاستمتاع.. لم يكن رفعت مصدر متعتي.. كيف يكون رفعت مصدر متعة لأحد؟! إنما مصدر متعتي كان يكمن في داخلي.. رغبتي الملحة في الحصول على المتعة، وكثيرات يحصلن على هذه المتعة بدون وجود رجل أصلًا.. أوه.. ها أنا أفرغ ما بداخلي لشخص لا أعرفه ولا أريد أن أعرفه، كفي.. نعم يكفي ما تحدثتُ به.. لن

أفصح لك عما بداخلي أكثر من ذلك.. عليك أن تلملم رغباتك وترحل يا هذا، ابحث عن شياطينك في مكان آخر، إرحل قبل أن تكون غبيًا في طابور الأغبياء.

هم الشيخ جلال بالوقوف وبلا إرادة ملتُ بجذعي إلى الخلف، يبتسم وهو يقرب المقعد من السرير ثم يجلس وهو يمد ذراعه الذي لاحظت للمرة الأولى أنه طويل عن المألوف، يضع راحته على رأسي، فشعرتُ بثقلها، كان كفه الثقيل يحتوى رأسي، شعرتُ بضيق، فأنا لا أتحمل وجود ذبابة على رأسي فما بالنا بهذا الكف الغليظ..!! تأملته ساكنة وهو يقول:

- لن تخسري شيئًا إن تركتِني أجرب.. هي دقائق معدودة وأرحل.

لم أمتلك القدرة على إبعاده عني، آثرتُ السكينة والانتظار حتى أرى ما سيفعله، أيضا كيلا يقال إنني كنت السبب في رفضه وذلك لعدم رغبتي في الشفاء.

بدأ يقرأ آيات من القرآن.. كان صوته عذبا في قراءة القرآن، بدأت أتدبر في بعض المعاني للآيات، بدأ هادئًا:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ومن همزه ونفخه ونفثه، **بسم الله الرحمن الرحيم. الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ. الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ. إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. اهدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ.** (سورة الفاتحة)

بسم الله الرحمن الرحيم : ألم. ذلكَ الْكتابُ لا رَيْبَ فيه هُديً للْمُتَّقينَ. الَّذينَ يُؤْمنُونَ بالْغَيْب وَيُقيمُونَ الصَّلاةَ وَممَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفقُونَ. وَالَّذيـنَ يُؤْمنُونَ بما أُنْزلَ إلَيْكَ وَما أُنْزلَ منْ قَبْلكَ وَبالْآخرَة هُمْ يُوقنُونَ. أُولئكَ عَلى هُديً منْ رَبِّهِمْ وَأُولئكَ هُمُ الْمُفْلحُونَ. (البقرة من 1 / 5)

بيده اليسرى يتناول الصينية من يد أمي التي دخلت إلى الغرفة بهدوء من يمشي على زجاج مكسور، يضع الصينية بجوار جهاز الكاسيت على المنضدة الصغيرة الملاصقة للسرير، ويزيح كوب الشاي جانبًا كأنه يقول لا أريد الشاي، ثم يحمل كوب الماء، كان يفعل ذلك ولم يصمت لسانه عن تلاوة آيات القرآن ولم يرفع يمينه عن رأسي، ملامح الجدية لم تفارق وجهه ورغبته في العمل والانتصار على ذلك العدو الذي خلقوه، تسيطر على كل حركاته. يرفع كوب الماء أمام فمه وهو يقرأ القرآن :

بسم الله الرحمن الرحيم: واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان، ما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق، ولبئس ما شروا به أنفسهم، لو كانوا يعلمون. (102 سورة البقرة)

ما أن ينتهي من هذه الآية حتى يعيد قراءتها مرة ثانية وثالثة.. مع كل تكرار كان صوته يزداد قوة ويده تطبق على رأسي بقوة، حتى وصل إلى



قراءة الآية للمرة السابعة، كل ذلك ولم تبتعد يده اليسرى التي تحمل كوب الماء عن فمه، ينتهي من قراءة الآيه ثم يرفع كوب الماء إلى فمه ليحتسي ما به، لكنه لم يفعل، إنما امتص بعض الماء في فمه ثم بخه في وجهي بقوة، من المفاجأة ومن تقززي الشديد من الماء الصادر من فم هذا الرجل، رجعت بجذعي إلى الخلف حتى ارتميتُ بظهري على السرير وأنا أمسح وجهي بكلتي يديّ من هذا الماء وأنا أسبه وألعنه بصوت هو أقرب إلى الصراخ. في هذه اللحظة يقف بجسده الهائل ثم يمسك بذراعي ليثبتهما على جانبي فوق السرير، بينما ساقاي كانا محصورين بين ساقيه وبين السرير، المشهد كان أشبه بعملية اغتصاب، تخيلتُ أن ذلك سيحدث، ويا للمصيبة.. في بيت والديّ وعلى مرأى ومسمع منهما، بل وبمباركتهما.. فزعت.. تتابعت أنفاسي وصراخي، من أسفل ذراعه شاهدت أمي تدلف من باب الحجرة لتضع طبقًا صغيرًا به قطعة نار وينبعث منه دخان كثيف، إنه البخور، فقد انتشرت رائحته بسرعة وما هي إلا لحظات حتى عبأ الدخان الحجرة. في هذه المرة طلب الشيخ من أمي مغادرة الغرفة وإغلاق الباب خلفها، ففعلت صاغرة، مما زاد من فزعي وصراخي.

غامت الصورة وغابت تفاصيل الأشياء من أمامي بسبب الإجهاد الشديد والدخان الأبيض الذي ملأ المكان، فتحتُ عينيّ على اتساعهما كي أستطيع الرؤية، خارت قوتي وضعفت مقاومتي ليديه، استسلمتُ وأنا أشفق على الفتيات من ضعفهن في مثل هذه المواقف،

وقـررتُ فـي هذه اللحظة إن أنجبت فتاة في المسـتقبل، سـوف أعلمها بألا تترك نفسها فريسة إنفراد أحد بها مهما كان، الوقاية خير من العلاج.

كان جلال في هذه اللحظات التي كنتُ أقاومه فيها يقول :

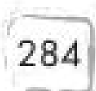
- بســم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم.
- أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق.

كان يقـول كل واحدة ثلاث مـرات يتزايد فيها صوته مع التكرار، ثم توقـف وقد بهرت أنفاســه، ترك يـديّ، لم أجد قوة لأعتـدل، فقد كنتُ أبحث عن أنفاسى الضائعة، صدرى ينتفض من الصراخ وانعدام الهواء فـي الغرفـة، لم يتـرك هو المجـال، فقد اقتـرب أكثر ناحيتي بـكل قوته وأمسك بكتفيّ ليهزني بعنف.

فقد فسر حالتي الناتجة من الضيق في التنفس واتساع حدقتي العين وحركة يدي لدفع الدخان بعيدًا، فسر ذلك بأن الشياطين قد حضرت.. بدأ يهزني بعنف لدرجة أنه لطمني بقوة على خدي الأيسر، قائلًا:

- انطق.. ما اسمك؟.. لماذا سكنت جسدها؟.. وبأمر من بالضبط؟

دارت الدنيـا بـي وأنـا أحاول دفعه بيـدي بعيدًا.. كانـت لطمته قوية للغاية، للمرة الأولى في حياتى يضربني أحد بمثل هذا العنف، شـهقتُ مفزوعـة، تكونـت بداخلـى كتـل غضـب ناريـة، حمـم أود أن أنفثهـا فـي وجهه لأحرقـه بها، أيها الكلـب الجبان ماذا تفعـل؟! هل جننت!! أتضربنـي أنا.. أنا سوسـن.. أبعد يديك عنـي.. قلت ذلك ثم ملت على



يـده اليمني التي لطمني بها منذ لحظات والتقمتها بين أسـناني، أعضها بمنتهي القوة والعنف، صرخ صرخة مكتومة ثم مد يده اليسرى وأمسك برأسـي وجذبني من شعرى إلى الخلف، كاد يقتلع شعرى من جذوره، وعندما مال متألمًا شـعرت بشئ غريب يمس أسفلى، شيء حاد، نعم.. قضيـب حـاد يشـق عذرية الجهـل، تفاعلـه الحاد معى أشـعل شـهوته الحقيـرة، فصرخـت وصرخت، وددتُ لـو مزقته إربًا، هـو ومَن أتى به إلى هنا وإن كان والدي. كنتُ انتفضت بشدة كمصعوقة بتيار كهربائي، يتجاهل عن عمد جرأة أسـفله ويعيد احتكاكه بأسفلى وقد أمسك يدي بمنتهي القوة وهو يقول:

- لستِ سوسن.. لن أتركك قبل أن أعرف الحقيقة.

بعدها راح يضربني بشـدة.. على وجهي يمينًا ويسـارًا، هل شاهدتم يومًـا ضـرب إنتقـام مـن مسـجل خطر لأحـد أعدائـه؟ كان جـلال هو المسجل خطر وكنت أنا عدوته التي يصب عليها جام غضبه.

يرتفـع صراخى، ترتفع درجـة حرارتى إثر انفعالى الشـديد، يتفصد جبينـي بعرق غزير، أحاول تحريك يدي لمنـع مخاط أنفي من النزول، شـيء مقـزز ترك مخاط الأنف بـلا رقابة من يدي، أحـرك يدي لأحول دون ذلك، يمسكها جلال بعنف، مثل كلابة من حديد تطبق على يدي، يبعدها إلى جانبي ولا يزال يهذى بأسئلته الغريبة :

- إنطق.. مَن أنت؟ ولماذا تسـكن جسـدها؟ مسـلم أم مسـيحى أم يهودي. إنطق وإلا أحرقتك.

يمد يده ليحمل كوب الماء الذي لا يزال يحتفظ ببعض الماء، يقرب الكوب من فمي ليسـقيني الماء، أبعد وجهي إلى الناحية الأخرى معلنة رفضـي، والحقيقة أنني كنتُ في أمس الحاجة لقطرات الماء كي أروي بها حلقي الجاف، لكني لم أرد أن أتعامل مع هذا الشخص بأي شكل، لكنه لم يستسـلم إنما أمسـك وجهي بيده العريضه وضغط على جانبي فمي بعنف ليفتح فمي، من شـدة ألمي جراء انسحاق خديَّ بين أصابعه وأسـناني، ينفتح فمي علـى الرغم مني تلازمه آهات وأنين للاسـتغاثة، يصب الماء في فمي، ألفظه في وجهه بشدة، يختلط صوت غرغرة الماء مع صوت أهاتي.

مـع تصاعد الأحداث يُفتـح باب الغرفة ويظهر فـي فتحته أمي ومن فوق كتفها يظهر رأسي أبي مستطلعًا وقد تغيرت ملامحة، للمرة الأولى التي أشاهد على وجهه مثل هذا القلق، لم يهتم بهم جلال، على العكس تمامًـا، ينفعل أكثـر مُظهرًا تفانيًا في عمله كمن يـود الحصول على أجر مُضاعف مع خطاب شكر على حسن الأداء. ماذا يريد هذا الرجل؟!

نظـرت نحو والـدي بصعوبة، بعيـن تعاني ونظـرات ضعيفة كخيط عنكبوت وحيد، أسـتغيث به من هذا الشخص غريب الأطوار، لقد كان جلال في هذه اللحظات غير ذلك الشخص الذي دخل علينا منذ نصف سـاعة تقريبًا، لقد كسـاه اللون الأحمر بسبب تصاعد الدماء إلى وجهه، نفرت عروقه بسبب الدماء الغزيرة مثل شلالات هادرة، عضلاته برزت تعلـن عن غضب رهيـب. ما زلت أنظـر نحو والدي الـذي لم يتحرك، يكتفي فقط بالنظر إلى الناحية الأخرى، يبدو أنه خشي الشياطين.

يجب عليّ أن أفكر بأسرع ما يكون، سوف أفقد حياتي إن استمر الوضع هكذا دقائق أخرى، خصوصا أنني كنتُ أشعر برغبة شديدة في فقد الوعي، لكنه كان يهزني بشدة، لم أشعر بالسبب الذي جعلني أقول له في هدوء:

- اسمي.. ســ.. ســ.. سعاد..

أردتُ أن أقول سوسن، لكني ذكرت اسمي من قبل ولم يُجدِ معه نفعًا، غيرتُ الاسم عله يقتنع، بالفعل نجحت الحيلة وتركني الرجل وقد هدأ.. على وجهه تظهر علامات الظفر، يود لو يجني ثمارها فيلتفت نحو والدي، يبتسم له والدي.

كان في صوتي شبه تغير وحشرجة من التأثر بكل شيء حولي.. سأل الشيخ :

- لماذا سكنتي يا سعاد جسد سوسن؟

لم أجد ما أقوله.. و.. وفقدت الوعي.

لا أعلم الوقت الذي أمضيته في غيبوبتي، لكن ما شعرتُ به تلك الآلام الرهيبة في جسدي كله، كنتُ أتألم نفسيًا بشكل لم يسبق لي أن تألمته من قبل، لم أكن أتخيل أن أصل إلى هذه الدرجة من التعامل، موافقتي على الجلوس مع هذا الشيخ كانت من قبيل تغيير الإيقاع ومجاراة والدي ليس أكثر!! أما وقد وصلت الأحداث إلى هذا المستوى، فما كان مني إلا هجر المكان بأكمله.

أفقت.. ألفيتُ نفسي على أحد الأسرة في غرفة أخرى، تجلس أمي بجواري وقد احتوت راحتي اليمني بين راحتيها، احتوتني بعينيها محاولة رسم إبتسامة عريضة لكنها فشلت في أن تخفي قلقها البالغ، علمتُ منها أن الشيخ قد اكتفي بما وصل إليه في هذه الجلسة وسوف يأتي بعد يومين لتكملة العلاج.

سعدت أمي بكل ما توصل إليه الشيخ، فقد صدق حدسها، وعلم الجميع بأن هناك شيطانه إسمها " سعاد " تسكن جسدي.. ألم اقل أن أسباب دفع الأذى تكون هي الأذى بعينه؟! ألم أقل من قبل أن الإنسان مخرف؟!

***

«كلما تراكمت الهموم..
بحثنا عن لحظات سعادة في أعماق زمننا السحيق..
كي نلتصق بها»



(29)

الطفلة

أمـور كثيـرة حولنا الصدق فيهـا لا يفي بالمطلـوب، فمثلا لا يخطر علـى بـال أحدنا أن هذا الرجل الذي يفتح السـيارة عنـوة هو لص يقوم حاليًا بسرقتها وليس صاحبها، وإن حدث وسألنا اللص:

- من تكون؟

فيجيب قائلًا ببساطة مع إبتسامة عريضة:

- أنا لص سيارات.

فإننا وقتها سـوف نضحك ونتركه ونسير، أو إن عاد الزوج من منزل إحدي الرخيصات وسألته زوجته:

- أين كنت؟

وأجاب الزوج :

- في منزل إحدي الرخيصات.

فإن ما سيحدث للزوجة هو الضيق لاختياره مثل هذا القول ليمزح معها، لأنها تدرك جيدًا أنه يمزح.. فعقلها لا يستوعب أبدًا أن يكون زوجها صادقا في شأن مثل هذا.

هذا ماحدث معي، ذكرتُ أنني سوسن ولكنهم لم يصدقوا الحقيقة المطلقة، ذهبت هباء جميع محاولاتي في تصحيح الأوضاع وتعريف الجميع بأنني لست سعاد هذه وأنني بعيدة كل البعد عن مس الشياطين.

كانوا يتقبلون كلماتي على أنها هذيان، خزعبلات تتحدث بها الشيطانة التي تسكن جسدي، حتى إن أمي مالت على والدي تهمس في أذنه وهي تنظر نحوي بذعر، سمعتها تقول له أن يجاريني فيما أقول، فأنا في هذه اللحظات سعاد.. الشيطانة سعاد ولستُ إبنتهم سوسن، قالت ذلك لأني تأملتها بشدة عندما أخبرتها برفضي لمقابلة المدعو جلال هذا مرة أخرى لأنه شخص غير أمين صاحب شهوة، لم تهتم وطلبت مني أن أريح أعصابي ولا أنصت لتلك الشيطانة التي تسكنني، فغرتُ فمي واتسعت حدقتاي، تركتني وذهبت لتهمس إلى والدي.

قررتُ أن أجمع أشيائي وأعود إلى.. رفعت..!! ماذا؟!! رفعت!!

جلستُ في زاوية الغرفة مندهشة، كيف أتاني هذا الخاطر؟ هل أضحى رفعت ملجأ وملاذًا أهرول إليه وقت الشدة؟!

لا.. لن يكون رفعت هو مخلصي مما أنا فيه، فمهما عانيتُ ومهما تألمت من النيران التي تحيط بي فهي أهون عليّ من هذا الـ.. رفعت. لكن يجب عليهم، والديَّ، أن ينصتا لحديثي، أن يهتما برغباتي، أن يفهما طبيعة هذا الشخص الذي ينتظرون شفائي على يديه!!



أمـا وقد توقفت عقولهم عند هذا الحـد، ورفضوا تقبل أى حديث، فقـد قـررتُ أن أتحـدث بحقيقـة أمـرى إلى الشـيخ جلال، إنه سـوف يفهمني بلا شـك عندما أخبـره بواقعى الأليم منـذ أن تزوجت برفعت، سـوف أصف له رفعت، بل سـأريه صورة له من تلك الصور الموجودة علـى تليفوني المحمول، صورة من تلك الصـور التي كان رفعت يقوم بالتقاطها لنا سيلفي في كل مكان في الشقة أو في الخارج حينما يريد أن يكـون خفيف الظل، كان يفعل تلك الأفعال الشـهيرة عند التقاط صور السيلفي مثل مد البوز وإخراج اللسان وإغلاق عين وفتح الأخرى، كنتُ أحبس امتعاضى بداخلى وأقرر مسـح هذه الصور مـن ذاكرة التليفون، وقد فعلتها بالفعل مرة واحدة وعندما علم بذلك غضب غضبًا شـديدًا، بعدها وبختُ نفسى بأنه لا داعى لمسح الصور وأيضا لا داعى لرؤيتها. أعتقد أن الشيخ جلال سوف يؤازرني حينما يشاهد صورة رفعت، وإن لم يقتنع تمام الإقتناع سـوف أشرح له بعضًا من أفعاله، وما دام والداى يقتنعـان أيمـا إقتناع بـكل ما يقوله لهم الشـيخ جلال، فسـوف يقتنعون تمامًا بأنني طبيعية ولا يلبسني شيطان، إن هو أخبرهم ذلك.

سـعدتُ بما توصلتُ إليه وبما اتخذته من قرار، بل سـألتُ أمى عن موعد وصول الشيخ جلال، فرحت أمي بسؤالى واعتبرته بداية الشفاء، لم أشأ أن أوضح لها خطة عملى، فلتعتقد ما تريد ولتهمس في أذن أبي بمـا تريد، المهم الأن هو تجهيز بعض صـور رفعت مع ترتيب أفكارى لتوضيح سوءات رفعت وما آلت إليه حياتى منذ زواجنا.

أتى الشيخ جلال واستقبلته أمي مستبشرة بينما كتم أبي سعادته مكتفيًا بما أظهرته أمي حينما مالت على الشيخ جلال تهمس بسؤالي عنه، لم أندهش لذلك فقد توقعت مثل هذا التصرف، لكن ما لم أتوقعه هو رد فعل الشيخ جلال على ما تحدثتُ به.

كنا في غرفة الاستقبال، يجلس معنا والديّ قبل بداية الجلسة، عندها تحدثتُ إلى الشيخ « جلال » بأن ما حدث كان مجرد حيلة بسيطة للخلاص من سطوته، لأنني أعاني مشكلات كثيرة، استخرجت صورة رفعت ثم أفضتُ في شرح مشاعري وانفعالاتي، حدثته عن رفعت وعن طبيعة العلاقة بيننا، تحدثتُ ودموعي تسبقني، كنت أتألم في حكي الأحداث بنفس نسبة تألمي في معايشة هذه الأحداث.. يبتسم جلال وهو ينظر ناحية والدي قائلا :

- ألم أقل لك بأن الشيطانة التي تسكن جسدها سوف تحاول أن تثبت لنا أن سوسن غير مريضة، (من بين إبتسامة رأيتها صفراء باهت لونها لا تسر الناظرين يكمل كلامه) هذه حيلة منها بعد تأثرها الشديد في الجلسة الماضية، هذه الشيطانة تخشى طُرق علاجي لـسوسن، فلا طاقة لها على المقاومة.. لكن لا تخشوا شيئا فإن سوسن سوف تبرأ من هذا الأمر في هذه الجلسة أو الجلسة القادمة على أكثر تقدير.

هم واقفًا معلنًا رغبته في بداية جلسة العلاج، بينما سقطت بداخلي الكثير من المعاني، تألمتُ بشدة وأنا أنقل نظري بين والديّ، أشفقتُ على نفسي من هذه الأجواء التي أعيش فيها، غيوم، برق، رعد..



شـموش محرقـة مع ريـاح عاصفة محملة بشـتى أنـواع الأتربة، غاص قلبي حتى قاع أحشـائي هربًا، غابت الصور من أمامي، شـعرتُ وللمرة الأولى بأن هذا الكون يلفظني، خارت قواي، رفض لسـاني التفوه، أبي كل عضو في جسدي الإعتراض، وقفتُ كما المسلوبة الإرادة، المنومة المسـوقة إلى مصير معلوم في نهاية ردهة مظلمة، هناك في نهايتها بقعة ضوء صغيرة يبدو فيها حبل مدلى وعلى الأرض مقعد صغير، هي غرفة إعدام.. ساقوني إليها طلبًا في شفائي!!

بدأ الرجل في ممارسـة عمله بقراءة سـورة الرحمن ثم سورة الجن، ثم قول الله تعالى:

«مُّحَمَّـدٌ رَّسُـولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِـدَّاءُ عَلَـى الْكُفَّارِ رُحَمَـاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَـطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْـتَغْلَظَ فَاسْـتَوَىٰ عَلَىٰ سُـوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّـارَ وَعَدَ اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَـاتِ مِنْهُم مَّغْفِـرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا» (29 الفتح).

كنـتُ أنصـت إلـى الآيات مـن بعيد، كأنني غير موجـودة، رفضتُ كل شـيء، حتـى وجودي في المـكان، يبدو أنه انتظـر انفعالي وتوتري ولكنـي لم أتحرك ولم أتفوه بحرف واحد، نظراتي كانت جامدة جمود الحائط وأرض الغرفة وسقفها، يقف جلال ممسكًا بيدي بعنف ليهزني

ولســانه لم يتوقف عن قراءة الآيات وعن توجيه الأسـئلة وعن الانفعال والضرب و....

وما حدث في المرة الماضية تكرر اليوم..

أفقـت مرهقة لا أقوى على تحريك أجزاء جسـدي، لم اشـعر بتلك الحالـة مـن قبل، كيـف يعيش القعـداء؟! تأملت المـكان، ألفيتني فوق السـرير في الغرفة الأخرى، كان هناك شـيء واحد فقط قد اختلف عن المرة السـابقة وهو بعد أن فقدت الوعي لم ينه الشيخ جلال عمله، إنما طلـب عصا غليظة واسـتعملها، بعنف على أجزاء متفرقة من جسـدي، ولم اشعر أنا بذلك، لأنني، كما يحكي والدي، كنتُ غير موجودة وإنما شيطانتي سعاد هي التي تلقت الضرب!!

الحقيقـة أننـي كنت قد ذهبتُ في إغمائه عنيفـة تقارب الموت، قبل أن يبدأ عمله كنت قد غادرتُ بالفعل حيز المكان، تركتُ لهم جسـدي يفعلون به ما يشـاءون، لكن ما دُهشـت له الأن هو أمر هذا الرجل الذي يحمل القرآن!

بصعوبة شديدة رفعت ذراعي أمام عيني، في مكان ما، يؤلمني بشدة وجـدتُ كدمة زرقاء تحيـط بها هالة حمراء، تذكـرت في لحظة واحدة أشياء كثيرة.. القرد.. الفأر بين فكي البطة.. الكلب الذي يأكل البرسيم.

يجـب أن أتخذ موقفًا وبسـرعة، فقد بدأت أثـار التعذيب تظهر على جسـدي، لـم أجد لـدي القـدرة الكافية على السير إلى خـارج المنزل مـع تكرار الجلسـات العلاجية مع الشـيخ وتكـرار ما يحـدث فيها من



خرافـات، تهالكـت وضمـرت العضلات التـي كنت أعتمـد عليها في الحركة ولاحظت أن الجسد وهن وتزايد من أثر عدم الحركة.

الغريـب أن تلـك الزيادة التي طـرأت على جسـدي زادتني جمالًا، أضـف إلى ذلك مسـحة الحزن والانكسـار التي تلازمني باسـتمرار قد جعلتني مثل راهبة في معبد، قديسة في محراب، لما لا والجفون ناعسة والخدود توارت خلف شـعر أصفر خفيف والحاجبين لم تمسسهما يد التنسـيق منذ فتـرة طويلة. كل هـذا صنع لوحة أخرى غيـر التي اعتدت عليها، لوحـة من تلك اللوحات التي قد تثير البعض. تعجبتُ مما أفكر فيه!! أي جمال وأي إثارة أتحدث عنها وأنا جسد يتحرك بلا روح، دمية يحركونها كما يشاءون!!

أَلِفـتُ الصـورة الجديـدة، المدهـش أنـي أحببتهـا، أجمـل مـا فيها شـعوري بعودة البراءة الأولى التي تـلازم الأطفال، كنتُ أعامل معاملة الأطفال، ولكم ارتحت إلى تلك المعاملة، بالرغم من محاولاتي العابثة عن الحياة الطبيعية التي كنت أحياها طيلة الأعوام السابقة، خاصة تلك التي كانت تسبق زواجي برفعت.

***



«لو رأينا الله في كل ما حولنا.. لتقبلنا منحه بلا حدود»



(30)

العِظة

علاقتنا بجارتنا « أم كلير » كانت علاقة سطحية على الدوام، لم تتعد تحية الصباح والمساء، رغم محاولاتها التقرب الدائم من أمي وإظهار محبتها لأسرتنا، في المناسبات تقترب من أمي أكثر، والمناسبات في قريتنا ما أكثرها، أعياد.. شهر رمضان، زواج، طلاق، خيانة زوجية، هروب فتاة، الإيقاع بأحد اللصوص.. أي مناسبة تستوجب الحديث والقيل والقال، تأتي على إثرها أم كلير لتنادي على أمي وتجلسان أمام منزلنا فوق درجة السلم الوحيدة المتبقية من أصل ثلاث درجات ابتلع الشارع منهن اثنتان مع الزمن، تجلس لتصب كل ما في جعبتها إلى أمي التي تستقي منها ما لا تعرفه أو تصحح لها بعض معلوماتها.

عند الأزمات، وأقصد الأزمات التي تُثار بين المسلمين والمسيحيين، تسرع أمي.. وتسرع أم كلير.. تسرعان بتقديم أطباق المحبة، وهي أطباق تحمل ما طهته كل منهما في يومها لتهديه إلى الأخرى، طبق أم كلير الذي يأتينا، بعضنا يتناوله وبعضنا يأنفه، يتوقف ذلك على نوع

الطبـق ولاعلاقة له بكونه من صُنع أم كليـر أو عدمه، أما طبقنا الذاهب إلـى أم كلير لـم نكن نعلم مصيره، ومرة يعود إلينـا وبه آخر إبداعات أم كلير ومرات يعود إلينا خاويًا.

لم نشعر يومًا بأن أمي تصنف أم كلير على أنها صديقة، إنما تصنفها علـى الدوام بأنهـا جارة فكانـت تنعتها باسـتمرار بجارتنـا، فتقول « أم كلير جارتنا » حتى لو ذكرت اسـمها عشـرات المرات فلابد وأن تلحق بـه كلمـة جارتنا، على العكـس تمامًا عند حديثها عـن أي من الجارات الأخريات وهن كثيرات.

فـي الأيام الأخيـرة، وقد لاحظـت أم كليـر دخول وخروج الشـيخ جلال، كما لاحظت غيرها من الجارات، وجارات الجارات، وتأكدت شكوكهن مع سماعهن صراخي ونحيبي في صمت الليل، ومن الأصل مجـرد عودتـي إلى منزل والـدي وتركي منزل زوجي هـو أمر يثير تلك الفئة الفضولية.

لم أشـك لحظة في أن أمي نقلت كل ما يـدور في منزلنا إلى أم كلير وأخريـات، ذلك يسـتجدي شـفقتهن ويُبعد ظن السـوء، بالنسـبة لأمي الشـفقة عليّ أهون بكثير من الشماتة. ثم إنني الآن ضحية، مغلوبة على أمري، أسـتحق مصمصة الشفاة والخبط براحة اليد على الصدر، تلوك الأفواه أزمتي، إن ظهرتُ في الشرفة للحظات، لملمتُ نظرات الشفقة، يبـدو أن الفتـاة المهزومـة المنكسـرة المغلوبـة على أمرها مثلـي، أكثر حصدًا للقلوب عن غيرها من المتمردات الشامخات.



نظرتـي لأم كليـر كانـت تقف على الحيـاد، تقربها الدائـم ومحاولة إظهـار الود والمحبـة كان يبرره عدد من المتشـددين وما أكثرهم، على أنـه أسـلوب خبيث لإخفـاء كم الكراهيـة التي يحملها المسـيحى نحو المسـلم، يفعلون ذلك لأنهـم أقل في العدد والقوة.. لكن ما إن تسـنح لهـم الفرصة سـوف ينصبون لنـا محـارق جماعية، لذلـك لا يجب أن نُخدع في إبتسـاماتهم الكاذبة أو تقربهم الخادع. في كل مكان ينشـرون تلـك الأفكار، لا شـك أنها وصلت إلى أم كلير وأهلهـا، فكانوا يبذلون جهدًا مضاعفًا في تقربهم لتكذيب ذلك، وكان المتشددون يبذلون جهدًا مضاعفًـا كى يأكدوا على مكرهـم وخداعهم.. هكذا كانت المباراة غير المعلنـة بين الطرفين، لم أركـن لرأى.. لزمت الحياد.. إنني ألزم الحياد نحو المجتمع.. نحو الحياة كلها.

ذات يـوم وقد اسـتمعت لضحـكات أطفـال يلهون أسـفل النافذة، يتحدثـون بأحلامهـم وطموحاتهـم، يضحكـون بصوت مرتفـع بعد ما أعلـن أحدهم بـأن أول أحلامـه هو الزواج بــ «ليلى علـوى»، أجبرني فضولـى علـى مشـاهدتهم وعلى وجـه التحديد مشـاهدة هـذا الحالم بالفنانة ليلى علوى، فتحتُ النافذة فإذا بهم ينظرون لمعرفة مَن ذا الذي اقتحم عليهم خلوتهم، وكأن سلكًا كهربائيًا ضغط عال، يتلوى من شدة تيـار الكهربـاء الذي يسـرى فيه، قد سـقط عليهم فأصابهم بحالة شـلل لحظـى ثم نفضهم ليفرقهم فـي كل اتجاه، حيث صرخ أحدهم وأفصح عما اسـتقر فـي وجدانه من حديث، مؤكد سَـمِعه من أمـه، فيصرخ في أقرانه « إجروا يا أولاد.. دي عليها عفريت ».

في المرات التالية التي كان يأتي فيها الشيخ جلال كان يطلب في كل مرة طلبات جديدة، بعضها كان يستعصى على والديّ توفيره، فيتطوع هو بإحضاره، يقدم أبي المال بلا نقاش، أنواع معينة من البخور، الأعشاب، وغيرها من طلبات كانت أمي توفرها بسهولة مثل ماء الورد ونبات السدر.

يأتي بالماء يقرأ عليه آيات من القرآن ثم يضيف إليه ماء الورد والزعفران ويقرر أن أشرب منه كوبًا صباحًا قبل أي طعام، ثم أشرب منه وقت أن أشعر بالعطش!!

يطلب من أمي إناءًا كبيرًا مملوءًا بالماء، يتلو عليه القرآن ثم يضيف إليه ورق السدر الأخضر والملح والشبة ويطلب مني أن أستحم بهذا الماء، ويجب أن يكون الاستحمام في غرفة نومي وليس في الحمام، وأن يُجمع الماء الناتج عن الاستحمام في طست ثم يرش في أركان المنزل.

يقرأ نفس الآيات على عسل نحل، بذل أبي مجهودًا عظيمًا للحصول على نصف كيلو طبيعي بدون غش، ثم يضيف جلال ماء الورد لهذا العسل، ويطلب أن أتناول منه ما أستطيع ثلاث مرات يوميًا.

دُهشت عندما طلب في يوم أن أتناول في الصباح على الريق سبع تمرات، سألته :

- الماء على الريق.. أم السبع تمرات على الريق؟!



نظر نحوي مرتبكًا، فعلى قدر تفاهة السؤال، لم يكن يمتلك له إجابة شافية، بعد لحظات من التردد رفع رأسه وقال بعناد:

- بأيهما يا سوسن.. كلاهما خير..

مـا لاحظته عليه، اختفاء لهجة التهديد التي كان يتحدث بها، لم يعد يستخدم العنـف، حتى الآيات التي كان يتلوها كانـت غير التي بدأ بها، منها :

بسم الله الرحمن الرحيم :

يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْـرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَـعَ الصَّابِرِينَ (البقرة 153)

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (البقرة155)

وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (الأنفال46)

فَـإِن يَكُـن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُـواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُـمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (الأنفال66)

ثـم طلب مني أن أحافظ على الصـلاة في أوقاتها وأن يكون لي ورد بعـد كل صـلاة وهو قـراءة سـورة الدخان ثلاث مـرات وآيـات إبطال السـحر، كل آية سبع مرات، وأعطاني ورقة بسـور وأرقام هذه الآيات،

وطلب إناء ماء وقرأ عليه آية الكرسي سبع مرات وأمر أمي برش ماءه في أركان المنزل.

ساعدت مثل هذه الأمور على إزاحة بعض همومي جانبًا، فلم أعد أجد متسعًا من الوقت لأفكر في رفعت وفيما آلت إليه حياتي، بهذا قلت حالات التوتر والانهيار، فقرروا أني أوشكت على الشفاء التام، خاصة وأن شيطانتي المدعوة " سعاد " لم تعد تظهر لهم، كتمت ابتسامتي، بل أشعلت فيها نيران غضبي الناشئة لحظة تذكري أنهم سيقررون عودتي إلى رفعت لحظة تأكدهم من شفائي المزعوم، غضبتُ وصرختُ وحطمتُ أشياء كثيرة ظهرت في طريقي. تكرر الوضع لأيام كثيرة، أصيبوا جميعًا بحالة من الذهول، فما كادوا يعتقدون بشفائي إلا وعدتُ إلى حال هي الأسوأ على الإطلاق، زادت هذه الحالة عندما طلب الشيخ جلال ذهابي معه، بصحبة والدي طبعًا، لعمل حجامة، وأفاض في شرح فضل الحجامة وكيف كان يفعلها الرسول صلى الله عليه وسلم. بالطبع رفضت ذلك بالرغم من ذلك المستحيل الذي بذلوه في إقناعي، لكني تمسكت برفضي حتى انتصرت.

بعدما كَثُرت زيارات الشيخ جلال، بينما ظل وضعي على ما هو عليه، بل ساءت حالتي عن ذي قبل، شعر جلال بأنه، مهما طالت زياراته، لن يستطيع حل مشكلتي، لذلك تباعدت مرات زيارته، حتى انعدمت تمامًا بدون إبداء الأسباب وعندما ألح والدي على الاتصال به، اعتذر بأنه مشغول وعلينا البحث عن معالج آخر.



فـي هذا التوقيت بالـذات وعند وصول هذه المعلومـة إلى أم كلير، تحدثـت أم كلير بأمر بـدا أنها كانت تود مفاتحة أمـي فيه لكنها امتنعت لأسـباب كثيرة، منها خشيتها من أن تصدها أمي صدًا عنيفًا، خاصة وأن شيخي يعالجنـي بالقرآن، أما وقد فشـل الشـيخ جـلال وهجرني بينما تزداد حالتي سـوءًا، ويزداد معها بكاء أمـي وانهيارها من فزعها على ما آل إليـه حالي، فقد واتت الفرصة أم كليـر لتتحدث بأمرها، فأتت لأمي تسـبقها ابتسـامتها وعلى وجهها رسـمت علامات البشر وقرب الفرج، ثم طلبت أن تنفرد بأمي في غرفة الاسـتقبال لتسـر إليها بما في جعبتها، كانـت تهمس بالرغم من عدم وجود أحـد غيرهما لتضفي على حديثها قداسة ما، أخبرتني أمي بذلك وهي تعيد على مسامعي ما قالته:

- يعلم الرب إني أحب سوسن إبنتك كما أحب كلير إبنتي بالضبط.. ومن يوم تعبهـا وأنا لا أرى النوم، وبالأمس.. بالأمس فقط كنت في الكنيسـة وتحدثتُ مع أبونـا مكاري بخصوصها، وطلب مني أن أسـعى في الخيـر وأن أحضرها لـه بعد قداس الأحـد القادم، فسوف يلتقي مع عدد كبير ممن يلبسهم الجان.

أخبرتنـي أمـي أنهـا فـي البدايـة أعلنـت دهشـتها ورفضهـا ولكنها اسـتجابت عندمـا علمـت أن الكثير من المسـلمات يذهبـن إلى القس مكاري للعلاج من الشـياطين في الكنيسـة، ثم أعقبت أمي كلامها بأنها وافقت من قبيل لن نخسر شيئًا من التجربة.

في البداية رفضت وعلتني الدهشـة، بل وسـخرتُ مـن تلك الفكرة ومـن كل ما حولي، لكني وللأسـف الشـديد وقبل أن يأتـي يوم الأحد

كنت قد أعلنت موافقتى على الذهاب إلى الكنيسة والعرض على القس مكارى.

اندهشت من موقفي وووددتُ لو خرجت وأخبرتهم برفضى، ولكني لـم أفعـل ذلك، وفي النهاية ارتحت إلى مقولة أمي أننا لن نخسـر شـيئًا مـن التجربـة. يبدو أن داخلى كان يرفض وضع نهايـة لتلك الحالة التي أحياها، إنه يسـلك سُـبل الاستمرار لا سـبل الخلاص. كيف لنا السعى في طرق الهلاك بأيدينا؟!.. لا أعلم.

دخلنا من باب صغير مخلوق بداخل باب الكنيسـة الضخم، يجاور الباب من الخارج عسـكرى شـرطة لا يسـتطيع أن يهـش ذبابه من على وجهـه ولا أعلـم كيف سـيواجه أى اعتداء على الكنيسـة؟! ناهيك عن حالـة الفقر البادية على ملامحة تؤكد أنه يمكن شـراؤه بقليل من المال ليغض الطرف عن أى عمل!!

كنت أتوقع أن أجد بداخل الباب أشـياء كثيرة لم أشـاهدها من قبل، أنـاس لهم هيئـات مختلفة، خنازيـر ترعى في كل مكان، رجال أشـداء يعذبون فتاة أعلنت إسلامها من أجل الارتباط بحبيبها، أى أمر غريب.. لكنـي لم أشـاهد أى شـيء غريب، أفـراد يتحركون ذهابًا وإيابًا بشـكل طبيعى في حديقة واسـعة تتوسط فناء الكنيسـة، مشينا على مهل تسبقنا أم كليـر جارتنا في ممر طويل ينتهي أمام باب عظيم، هو الباب المؤدي إلـى قاعة الصـلاة وقدس الأقداس، تشـير لنا أم كلير جارتنا بالإسـراع فقـد بدأ القـداس وهي تفضـل ألا تفوتها العظة الأسـبوعية، كان الباب مواربًـا، دلفنـا منه، فـإذا بصالة واسـعة بها صفان من الأرائك الخشـبية

مطليـة باللون البني المحـروق، في صدر الصالة منضـدة صغيرة مرتفة يقف خلفهـا القس مكارى يتحدث إلى جمهـور الحضور وهم قليلون علـى كل حـال، لاحظتُ بطـرف عيني فـي مؤخرتهم سـيدات ترتدين الحجاب، تحركت يد أم كلير بحركة لا إرادية مشـيرة ناحية المسلمات الجالسـات وكأنهـا تؤكد لنا صدق حديثها السـابق، لكـن أمى اعتبرتها إشـارة إلى المـكان المحـدد لجلوس غيـر المسـيحيات فتوجهت إليه مباشـرة وجلسـتُ وأنا في إثرها، في اللحظة التي كانت أم كلير جارتنا تتخطـى الصفـوف لتجلس فـي المقدمة، كانت تفضـل أن تنصت لكل كلمة يتفوه بها القس مكارى كما اخبرتنا ونحن في طريقنا إلى الكنيسة، بعدمـا اسـتقرت تفاصيل المـكان فـي ذاكرتى بـدأتُ أنتبـه للمتحدث وأنصت إلى كلامه وهو يقول:

- حدثـت مجاعة شـديدة اجتاحت البـلاد المصرية كلهـا، في أيام حكم الدولة الأخشيدية، أى في الفترة مابين عام 934 م إلى سنة 968م قبيل حكم الدولة الفاطمية التي حدثت في زمانها معجزة نقل الجبل، فقد حدثت المعجزة حوالى سنة 979م.

اندهشـت مـن العبـارة « معجـزة نقـل الجبـل » أى جبل هـذا الذي نقـل من مكانه؟! وكيـف نقل؟! جذبتنـي العبارة فأنصـتُّ أكثر لمعرفة التفاصيل، فأكمل القس حديثه :

- فلابـد وأن القديس سـمعان قـد عاصر هذه المجاعـة، التي مات بسـببها مايزيـد علـى نصـف مليـون نسـمة، ومـن أسـباب تلك المجاعة نقص فيضان نهر النيل ثلاث سـنوات متتالية، فأنتشرت

الأوبئـة، ومات هذا العدد الرهيب من الناس، حتى محيت بلدان بأكملهـا، لقـد أثرت هـذه الأحداث فـي نفس القديـس وجعلته يزهـد فـي الحيـاة، إخواني هل سـمح الله لكَم ببعـض الظروف المؤلمـة؟ هل ضاقت الحياة من حولكم وأنتم تمرون بصحرائها القاحلـة؟ هل ثقـل النهار وحره ولم تحتملوا ضعف بشـريتكم؟ هـل أصبح أسـلوب حياتكم هو الضجـر وكلماتكم هـي التذمر ورفض الظروف، أم أنكم ترون الرب في المشهد وتستقبلون من يده كل شيء؟

استمرت العظـة لوقت أطول مما كنتُ أتوقعـه، تحدث فيها عن أن النـاس ينقسـمون أمـام الظروف الصعبة إلـى ثلاثة أنـواع، الأول يتذمر ويضجـر ويرفض الظروف وربما يظهر ضجره وغضبه على الله نفسـه، والثانـي يتقبـل الأحداث فـي صمت، أما الثالث فيشـكر عالمًـا أن الله سيُخرج من الجافي حلاوة، وهذا النوع الثالث يتعلم الدروس فيخرج من النار أكثر لمعانًا مما قبل، ثم تسـاءل : أى نوع أنتم وما هو رد فعلكم تجـاه الظـروف؟ وانتظـر لحظات يتأمـل الحضـور، وتأملت انـا أيضا الحضور معتقدة أن هناك مَن سيقف ليجيبه، لكن الصمت عم المكان، فأكمـل الرجل حديثـه، كنتُ أنتظـر كلماته بشـأن معجزة نقـل الجبل، فأرهفتُ سمعي إليه وهو يقول :

- كان إنشـاء مدينة القاهرة قبل معجزة نقل جبل المقطم بقليل،فقد كانـت القاهــرة وهـي المنطقة التـي فيهـا الجامع الأزهـر، وقد أسسـها الفاطميون فـي عهد المعز لدين اللـه الفاطمى عام 969



الـذي حدثت فـي عهده معجـزة نقل جبـل المقطم بعـد حوالى عشرة أعوام من انشاء مدينة القاهرة هذه، وكان هناك مدينة تانيس وهي حاليًا مدينة صان الحجر بمحافظة الشرقية، والفوضى التي حدثـت فيها في بدايـة حكم الفاطميين نزعـت الأمان من قلوب الأقبـاط وجعلتهـم يلتجئـون إلـى اللـه ليحميهـم من مثـل هذه الأحـداث، فقد ثار بعض المتطرفين في تلك المدينة ضد الدولة وضد الأقبـاط، وأعلنوا أستقلالهم، ونهبوا بيوت المسـيحيين، وسـبوا نساءهم وبناتهم، وسـادت الفوضى، حتى استطاع بعض الأقباط من تلك المدينة وهم « أولاد قشلام » أن يتصلوا بالدولة، وأن يقضـوا على هذه الفتن، لقـد كان لمثل تلك الأحداث أثرها علـى نفـوس المؤمنين، ففي الشـدائد تتوجـه القلوب إلـى الله، ويزداد ارتباط الشـعب بالكنيسة، وفي هذا المناخ عاش القديس « سمعان الخراز » الذي تأثر قطعًا بذلك،فوطد علاقته بالله.

ثـم أفاض فـي الحديث عن تلك الفترة وأشـاد بحكمـة المعز لدين اللـه الفاطمى، الذي أعاد الأمن إلى البلاد، وسـاد السـلام ربوع مصر، وانعكـس ذلك على نفـوس المواطنيـن، وارتفعت أصـوات المؤمنين بالشـكر للـه رئيس السـلام على ما أعطاهم من سـلام. لقـد كان المعز لدين الله الفاطمى (الذي حكم من عام 969 م إلى أواخر سنة 979م) سياسـيًا محنكًا، وإلى جوار ذلك كان أديبًا محبًا لمجالس الشعراء. كما كان ولوعًا بالعلوم الدينية أيضًا، فكان يدعو رجال الدين من المسلمين

والمسـيحيين واليهـود، ليتناقشـوا أمامـه بـكل صراحة وحريـة وبدون غضب أو خصام. ثم أضاف :

- كان الأقبـاط يشـتغلون بشـتى أنواع الحـرف والصناعـات، مثل النجارة، وصنع الأثاث، والحـدادة، وصنع المراكب، حتى إنهم كانـوا يقيمـون القداسـات الألهيـة علـى المراكب فـي الموانى، وكان القديـس سـمعان الخـراز من المشـتغلين فـي أحدي هذه الحـرف وهي دباغة الجلود. نتيجة للسـلام الذي سـاد البلاد في عهـد الدولة الفاطميـة، أهمل الأقباط انتخاب بطريركًا للكنيسـة لمدة سـنتين كاملتين، ثم اجتمع الأسـاقفة في كنيسـة أبي سرجة بمصـر القديمـة ليتباحثـوا في مَن يصلـح للبطريركيـة، هنا دخل الكنيسـة شـيخ وقور تقى صالح، ومعروف لدي الجميع، يدعى إبرام بن زرعة السـرياني، وكان هذا الرجل أيضًا صديقًا للخليفة المعـز لدين الله الفاطمى، لذا اسـتقر رأى الجميـع على إنتخابه بطريـركًا، وبعد رسـامته بطريركًا وزع جميع أموالـه على الفقراء والمحتاجين، وعلى الكنائس والأديرة، وقاوم عادة شريرة كانت منتشرة بين المسيحيين وهي أقتناء السرارى.

يصمـت لحظـات يتأمل فيها الحضور، ثم يرفـع كوب ماء موضوعًا أمامه ليرشـف قليلًا منه، لما شـاهد ذلك الانتظار من الحضور لسـماع قصـة معجزة نقل الجبـل من مكانه تغطى وجهه ابتسـامة خفيفة قبل أن يُكمل قائلًا:

- إن التـراث القبطـي يـروى لنا عن سـمعان الخراز أنـه كان يعمل فـي دباغـة الجلـود وفي صناعـة وتصليـح الأحذيـة وكان رجلًا تقيًـا صالحًا، جاءت إلـى دكانه يومًا إمرأة لتعـرض عليه حذاءها ليصلحـه لهـا، وبينمـا كانـت تقـوم بخلعه وقعـت عينا سـمعان علـى سـاقها فاشـتهاها للحظـة، لكنـه فـي الدقيقـة التالية شـعر بجريمتـه، فقـام بقلـع عينه بالمخـراز منفذًا بذلك بشـكل حرفي إحدي وصايا المسـيح التي يقـول فيها : إن كانـت عينك اليُمني تعثـرك، فإقلعهـا، وإلقهـا عنـك.. لأنـه خيـرٌ لـك أن يهلك أحد أعضائـك، ولا يُلقـى جسـدك كله في جهنـم. وبحسـب الرواية الدينيـة فإن يعقـوب بـن كلس اليهودي الأصـل وزير المعـز لديـن اللـه كان يعادي المسيحيين بشـدة، وأمـا الخليفـة فقـد كان رجـلًا محبًـا للمعرفة ولمجالـس الأدب. فدعا هـذا الأخير بطريرك الأقباط ليباحث اليهود في مسائل الدين في حضرته، لبي البطريرك الدعوة مصطحبًا معه الأسـقف ساويروس بن المقفع. وخـلال النقاش قام الأسـقف سـاويروس باتهام اليهود بالجهل مستشـهدًا بآيـة من سـفر إشـعياء تقول: «الثـور يعـرف قانيـه، والحمـار معلـف صاحبـه. أمـا إسـرائيل فـلا يعرف ! شـعبي لا يفهم!» (إشـعياء 1 : 3). أثار ذلك غضب يعقوب بن كلس الذي قـرر مع أحـد رفاقه الرد على المسـيحيين من خـلال تصيد ثغرة مـا في كتبهـم، وخلص بحثه إلـى آية في العهـد الجديد يخاطب فيهـا المسـيح تلاميـذه «لـو كان لكـم إيمـان مثـل حبـة خردل،

لكنتـم تقولون لهـذا الجبل انتقل مـن هنا إلى هنـاك فينتقل، ولا يكون شـيء غيـر ممكن لديكم.» (متـى 17:20). عرض الوزير تلـك الآية على الخليفة وطلـب إليه أن يجبر المسـيحيين إثبات زعـم كتابهم هذا، راق اقتراحـه للخليفة الذي كان يريد التخلص مـن الجبل الكائن شـرق القاهرة، ومن ناحية أخـرى فإن تملُّص المسـيحيين من تحقيق الآية الإنجيلية سيكون دليلًا على بطلان دينهـم ومعتقداتهـم. بعـث المعز للبطريـرك يعلمه بطلبـه مهددًا إيـاه، إذا ما فشـل، بعواقـب وخيمة ومنحه مهلة ثلاثـة أيام لتنفيذ ذلك. قامت الكنيسـة كلها فـي البلاد خلال تلـك الفترة بالصوم والصـلاة. تكمل الروايـة الدينية القصة متحدثـة عن ظهور مريم العذراء للبطريـرك فـي صبـاح اليوم الثالـث، أخبرته بـأن يخرج ليرى رجلًا يحمل جرة ماء سيكون هو المختار كي تتم المعجزة على يديه. فخرج البطريرك وبحث عن ذلك الرجل الذي يحمل جـرة المـاء، وجد سـمعان الخـراز فكلمه بما حـدث، هنا طلب سـمعان من البطريرك أن يبقى بين الشـعب في اليوم المقرر لنقل الجبل ومن هناك سـوف يقوم بالصلاة بينما يقوم البطريرك برسم علامة الصليب أمام أنظار الخليفة. وفي اليوم المتفق عليه وقعت زلزلـة عظيمة وتحرك الجبل حتى بانت الشـمس مـن تحته. بعد ذلك هرب الخراز لكي لا ينال المديح من أحد.

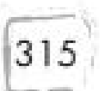
انتهـي القس مكارى من عظتـه وترك منصته ودخـل حجرة جانبيه، سـرى فـي القاعة دبيـب خفيف وأصـوات هامسـة متداخلـة، أحاديث



جانبية انفلتت من أصحابها بعد أن أغلق القس باب غرفته خلفه، وكأنهم تلاميـذ ينتظرون جرس الفسـحة، الغريب أن أحدًا مـن الموجودين لـم يتحـدث في موضوع عظة القـس مكاري، إنما انطلقـت الأحاديث في الشئون الخاصة، بالنسـبة لنا اقتربـت منا أم كلير جارتنـا وعلى وجهها إبتسـامة عريضة وهي تخبرنا بأن القس سـوف يأخذ قسـطًا من الراحة، عشرة دقائق ويبدأ العمل.

أمضينـا الدقائق العشـرة فـي أحاديث جانبيـة، بينما انبعثـت تراتيل وأناشـيد دينية من سماعات منتشرة في الأركان والزوايا، لـم أفهم كلمة واحـدة مـن تلك التراتيـل، وبالرغـم من ذلك شـعرتُ بوجيـب قلبي، سـرت في جسدي رعدة، الحقيقة إنني بدأت أخشى المكان بكل ما فيه وزاد توتـري ونظرتُ نحوى أمى لعل عدوى توتـري تنتقل إليها وتقرر رحيلنـا، لكنهـا لـم تفهم نظراتـى أو لعلها فهمتهـا وتجاهلتها عن عمد، لحظات وخرج القس مكارى من حجرته وعلى وجهه علامات جديدة غيـر تلـك التي كان يعظ بها منذ قليل، حاملًا في يده اليسـرى كوب ماء ويمد أصابع يده اليمني ليحمل منه الماء، وقبل أن يخرج أصابعه بالماء تحرك الجمع الموجود بسـرعة واقتربوا منه بشكل مثير للدهشة، يبتسم الرجـل وهـو ينثر الماء على وجوههم، أشـارت أم كلير نحونا لنقترب، ولما لاحظتْ تسمرنا في الأرض لا نعى ماذا نفعل اقتربت منا وجذبتني مـن يدي كى أغوص وسـط الجمـع لعلني أحظى ببعـض قطرات الماء الذي قالت عنه:

- اقتربي يا سوسن.. لتلحقى بعض الماء المبروك من يد أبينا.



عـلا الهرج مع زيادة تناثر قطـرات الماء، وقبل أن ينهي القس كل ما في الكوب من ماء يتوقف وهو ينظر نحوي، تنقل أم كلير جارتنا بصرها بيـن القـس وبين ثم تومئ برأسـها للقـس تؤكد له أنني هـي التي حدثته بشـأني من قبل، فيشير الرجل نحونا، تجذبني أم كلير لنقترب أكثر حتى نقف امامه تمامًا لا يفصلنا إلا سـنتيمترات. كان يقف على مكان يرتفع عن مكاننا قليلًا، يضاف إلى ذلك بنيانه القوي وجسـده الضخم، فكنتُ أشـبه بطفلة أمـام والدها، مد يده بكوب الماء نحـو أم كلير فحملته عنه وهـي تخفـي اضطرابها وإن كانـت في منتهي السـعادة لاختيـار القس لهـا لتحمل عنه كوب المـاء، يضع الرجل يده اليمني على رأسـي بينما تمسـك يده اليسرى بالصليب الخشـبي المعلق في رقبته، تتحرك شفتاه بكلمات لـم أتبين منها كلمة واحدة ويحرك الصليب في خط دائرى أمام وجهي، يستمر الوضع مدة خمس دقائق تقريبًا كان فيها الجمع قد التف حولنا على شـكل دائرة يتابعون ما يحـدث، كان الرجل يهمس بتراتيله ويحـرك صليبه وقد أغمض عينيه، بعدها فتـح عينيه وبعد لحظات وقد اعتـادت الضوء، يرفع يده اليمني عن رأسـي ليمدهـا ناحية أم كلير التي تندهش لحظة ثم تتذكر كوب الماء الذي كانت تقبض عليه بكلتى يديها وتضمه لصدرها كشئ ثمين، مدت يدها بكوب الماء فأخذه وقربه نحو فمـه وهمـس فيه ببعض الكلمات ثم بصق فيه وهـزه بهدوء قبل أن يمد يده به نحوى، أضمُ شـفتى وأنا أنظر نحو الكوب بدهشة ثم أنقل نظرى بين أمى وبين أم كلير، لا أفهم شيئًا مما يحدث حتى هبطت كلمة القس

علـى رأسـى مثل قنبلة، فقد كانت يده لا تـزال ممدوة بكوب الماء وهو يقول :

- إشربي.

صُعقت ولم أشـعر بنفسـى بسـبب الدماء التي فارت مثـل ماء على نـار لمدة ثلاثـة أيام متتالية، أشـرب ماذا أيها الرجـل؟! تبصق في الماء أمام عيني وتطلب مني أن أشـربه؟! رجعـتُ إلى الخلف خطوة ولكني فوجئت بأمي تدفعني من ظهري كي لا أعود، إنها تريد أن أشرب الماء، يبـدو أن أم كلير أشـفقت على القس من حمـل كوب طوال فترة رفضي فحملته عنه ودنت به من فمي، كانت أمي من خلفي وأم كلير من أمامي وكل الأنظار معلقة بي، وأنا أرتجف من شدة الغضب.

ثم حدث كل شيء في لحظة واحدة، فقد رفعت أم كلير الكوب نحو فمي وتطوعت سـيدة عجوز من الواقفات واقتربت فجأة وبيدها اليمني دفعت الكوب ليلقى محتواه في فمي بينما يدها اليسـرى تضغط رأسـي مـن الخلـف كي لا أفر منهم يمينا أو يسـارًا، يبدو أننـي كنتُ قد فتحت فمي لأعلن رفضي أو لأسـبهم وأسـب القس مكاري علـى فعلته، هذه اللحظـة التي فتحت فيها فمي كانت كافية لأن يسـكبوا الماء المخلوط ببصقة القس فيه.

لن أستطيع أن أصف مشاعري واشمئزازي من كل شيء حولي، كل ما شـعرتُ به هو ذلك الغثيان الذي تملكني حتى إن أحشـائي تقلصت واضطربـت وتكـورت وانتفضت وقـررت ترك جسـدي والخروج منه وبمنتهي السرعة، شهقت و.. و.. إعععععع..

أفرغت كل ما في جوفي على الأرض أمامي، فقد ارتدت العجوز إلى الخلف في سرعة فهد، بينما مالت أم كلير يسارًا لتنجو بنفسها، الوحيد الذي ناله بعض مما أفرغته من جوفي كان القس مكارى، الذي رفع الصليب أمام وجهي لحظة ثم رفعه إلى أعلى وعلى وجهه سعادة المنتصر وهو يقول:

- كل الشكر لك يا يسوع.. لقد أفرغت العمل الذي كان في جوفها. مبروك.

أطلقت أم كلير زغرودة طويلة تعبر بها عن فرحتها وتبعها زغاريد أخرى وتصفيق، حالة من السعادة والبشر سرت بين الجمع، كان الغضب يتملكني بينما أمي تتنازعها الرغبة في السعادة وعدم القدرة على تصديق شفائي التام.

لم ينته الموقف إلا برحيل القس مكارى تاركًا المكان تشيعه كلمات الشكر والإعجاب، لحظات ينفض الجمع وتجذبني أم كلير لنخرج من الكنيسة، كم مرة جذبتني اليوم أم كلير؟ لا أعلم.

إفراغي ما في جوفي أراحني كثيرًا، لم أكن لأتحمل أن يظل مقدار الماء هذا في جوفي للحظات أخرى، شكرتُ معدتى التي أعلنت رفضها السريع وبصقتْ معظم ما فيها على القس مكارى لتثأر لى في نفس الوقت. شاهدت أمى علامات الراحة تحل على ملامحى بديلًا عن علامات الفزع فابتسمت وضغطت على راحة يدي التي تُمسك بها مثل أى أم تمسك بيد طفلتها.





«لا يضن الكون أبدًا عن توفير أسباب الراحة.. لكننا لا نراها»



(31)

رغبات

أعيش نفس التفاصيل لمدة عام، وإن اختلفت الشخصيات المعالجة من حولي، وفي كل مرة كنتُ أقرر فيها التصدي بحزم لتلك المحاولات المريضة، وإعلان براءتي من تلك الاتهامات الشيطانية التي يصفونني بها، أعود لأحتسي صمتي، وأجرع هزيمتي واستسلامي، وأسلم لهم قيادي، يذهبون بي حيثما يشاءون.

يبدو أني استعذبت الواقع الذي أعيشه، واستعذبت بقائي في منزل والدي، وإن كنت أُعرض كل يوم على أحد المدعين من ذوي الأسرار والمعرفة سواء مسلمين أو مسيحيين وإن كان هناك يهود لعرضوني على الحاخام في المعبد، كل ذلك استعذبته عن تواجدي هناك إلى جوار رفعت..!!

كنت بوضعي الجديد، ومع حلول فصل الشتاء، أعشق البقاء في الفراش، أبذل مجهودًا كي أعيش لحظات سعادة في الخيال، لحظات ذوبان، الانتقال بالروح إلى لذات فيروزية ورفرفة في الهواء والغوص

في أعماق صدور دافئة، أعود بعدها إلى الواقع وكأني أخرج من أرض النعيـم، فألعـن كل شـيء حولي وأثور علـى الجميع، بديهـي أن يُرجع الآخرون هذه الثورات إلى تأثير الشياطين التي ما زالت تسكن جسدي.

الغريب في الأمر هو أنني كنت بعيدة عن ذلك الاتجاه من قبل، ماذا حـدث لي كي أدمن هـذه الخلوة؟! مقدمات حياتـي لا تؤكد ميلي إلى ذلك، لكنه يحدث الأن ولا أمتلك أي تفسـير رغم دهشـتي التي تتزايد مـع مرور الوقت، وكلما مـر الوقت كلما زادت نسـبة انجرافي إلى قاع البئر المظلمة. كنتُ مستسلمة بشكل تام وأضع نفسي فريسة لأي شيء من شـأنه أن يسـاعد على هلاكي، فـإن علمتُ مثلًا أن هـذا الطعام يثير قولونـي ويزيد من آلامي أكلتُ منه بشـراهة، وإن علمتُ أن هذا الدواء فيه راحتي ضربته بعنف ليسقط على أرض الحجرة محطمًا. لم يقاوموا عدوانيتي، بل غمروني بالـرعاية والحنان.

بـدأتُ أشـعر مـن خلال هـذا الوضع بأن هناك « مسًـا شـيطانيًا » حقيقيًـا، فكيـف يكـذب مثل هذا الحشـد؟ وما تفسـير هـذه اللحظات الجميلة التي أعيشها في دفء الفراش؟

يبدو أنه عالم آخر، عالم شيطاني.. هل ألفت الوضع الجديد؟!

أيام هذا العام نسـخة واحـدة تكررت 365 مرة، فقـد ذهبت أو أتى لـي جميـع مـن ذاع صيتهم في العـلاج الروحانـي أو التعامـل مع مس الشـياطين، حتى أصبـح العرض على هؤلاء من أساسـيات حـياتي في تلك الفترة.



أمـا عن علاقتـي برفعت فقد كانت معلقة، بمعنـي أنه لم يتخلل هذا العام إلا فترات بسيطة جدا كان يأتي فيها لزيارتي، نوع من رد الشبهات عنه.

ذات يـوم داخلني شـك في سـلوك رفعت، كيف يعيـش وحده، بلا زوجة، طوال هذه المدة، مؤكد هو يعتمد على ماله لاشباع رغباته، زادني هذا الشك نفورًا منه، عاملته في الزيارة التالية أسوأ معاملة وصببتُ عليه جـام غضبـي، حتى إن أمي التـي كانت تجلس معنا فـي الغرفة خرجت وأغلقـت علينا الباب، ولم تنس قبل خروجها أن تهمس في أذن رفعت بأن يتحملني، فأنا مقهورة في إحدي زوايا جسـدي والمتحدثة الغاضبة هي الشـيطانة التي تسكن جسـدي، والغريب أن رفعت صدقها وتحمل غضبتي العنيفة بابتسـامة عريضة، ومـا أن هدأتُ قليلًا حتى قام وأوصد الباب من الداخل، ثم التفت نحوي وعلى وجهه ابتسـامة شرسة يتبعها بكلمـات « وحشـتيني مـوووت.. مـوووووت » في نفـس التوقيت يقوم بخلع ملابسـه، أشـرت نحوه محـذرة وعيناي على الباب، اندهشـت.. نظرتـي نحـو الباب تعني أننـي لا أرفض طلبه إنما أخشـى أن يأتي أحد أفراد أسرتي!!

لحظـة الصمـت القاتلة في حياتـي، أصبحت تتكرر كثيـرًا، أصمت وتخـرج روحـي تاركة لهم الجسـد يفعلوا بـه ما يشـاءون، الأن عادت لحظة الصمت القاتلة وغادرت روحي تاركة جسدي لرفعت يفعل به ما يشاء.. وقد فعل الكثير بعد أن جردني من ملابسي كاملة.. وكأني أفقتُ على لهاثه وهو يرتمي عاريًا إلى جواري على سريري، نظرتُ نحوه فإذا

به مبتسمًا، نفس الابتسامة التي أبغضها، تألمتُ بشدة وشعرت بآلام في أنحاء متفرقة من جسدي، شعرتُ بأن هناك رد فعل كان يجب أن أقوم به تجاهه.. والآن.. جلستُ أبحث عن ملابسي لارتديها وهو يتبعني بنظراته، ثم يعتدل ليضمني من الخلف مقبلًا أعلى ظهرى وهو يسأل :

- ما رأيك في مرة ثانية؟

نزعت جسدي من بين يديه واستدرتُ نحوه بنصفي الأعلى ثم..

ثم بصقت على وجهه..

غضب لحظة واحدة، بعدها عادت الابتسامة إلى وجهه، يبدو أنه تذكر كلمات أمى عن الشيطانة التي تسكنني. يجذب طرف الملاءة ويمسح بها بصقتى ثم يعتصر بها أسفله، يرتدي ثيابه ويرحل.

لم يعد يزورني حتى اليوم المشئوم.. كان يكتفي باتصال تليفوني كل فترة، أما عن المال فكان يتفنن في طرق إرساله، مرة عن طريق أحد الجيران الذي يتصادف مقابلته له وكأنه يود أن يُخبر الجميع بأنه يعولني حتى وأنا في بيت والدي، ومرة يرسل الأموال عن طريق شحن التليفون نقوم باستبدال قيمتها من أى سنترال خاص، عن طريق حوالة بريدية. وتمر الأيام على هذا الوضع حتى أتى ذلك اليوم.

في هذا اليوم استيقظتُ متأخرة كعادتى، تناولت إفطارى مع صوت المؤذن ينادي لصلاة الظهر، كانت الشمس في هذا اليوم تغسل المكان بأشعتها الذهبية التي افتقدناها كثيرًا في الأيام السابقة الممطرة، حتى إن الطيور على اختلاف ألوانها غادرت أوكارها لتلهو في فضاء الكون



مغردة بأعذب الألحان، لا أعلم سببًا حقيقيًا لتلك الحالة التي غمرتني، لكنها في جملتها كانت حالة سعيدة، حالة مثل تلك التي تغمرني أحيانًا بعد ممارسة الجنس الذي تسبقة رغبة عارمة بداخلى، حتى إن أسفلى انقبض في هذه اللحظات وكأنه يؤكد ما أفكر فيه، وللمرة الأولى أتمنى وجود مَن يُشبع تلك الرغبة بداخلى، كنتُ أسمع باستمرار عن كلمة « لكيف» وما تلاها من إنتاج فيلم سينمائي يحمل نفس الاسم وهي هنا تعني الرغبة الملحة التي يجب إشباعها بالمواد المخدرة، تلك الحالة هي التي تنتابني الأن، إنه « الكيف » فبداخلى رغبة ملحة يجب إشباعها بالجنس، لكنهم يشبعون رغباتهم عن طريق بعض المواد، أما الجنس فلن تنطفىء نيرانه إلا عن طريق... عن طريق رفعت، إنه المنفذ الشرعى الوحيد الذي يمتلك هذا الحق، وهو المنفذ الوحيد أمامى، أووووف، غضبت لحظة إدراكى إحتياجى الشديد لرفعت وكرهت أسفلى وتمنيتُ لو خُلقت بلا رغبة، بلا « كيف ».. حاولت التماسك والظهور بمظهر السيدة الصلبة التي لن تنحني لأى رغبة، لكن ما أن جلستُ في الشرفة أحتسى الشاى الذي تنبعث منه رائحة القرنفل، وقد عشقت القرنفل ورائحته وإن كنت قد بدأت إستخدامه بأمر من الشيخ جلال مثله مثل الكثير من الأشياء التي كان يطلب مني تناولها أو شربها، لكني أحببته مع الوقت لنكهته المميزة التي تكسر حدة الشاى، أثار بداخلى، جلستى ودفء الشاى ورائحة القرنفل، الكثير من المشاعر، تذكرت حسين وتذكرت رحلة حدائق أنشاص والقبلات الدافئة أسفل أغصان أشجارها الكثيفة، ابتسمت ولم أشعر بنفسى إلا بعد أن ارتديت ملابس

الخروج وحملتُ حقيبة يدي، على باب المنزل تستوقفني أمي متسائلة في دهشـة عـن وجهتي، من بين ابتسـاماتي العريضة أجبتهـا بكلمتين « راجعة لرفعت » ثم تركتها فريسة دهشتها ورحلت.

لا أعلـم فيمـا كنت أفكر طوال رحلتي من منزل والدي حتى شـقتي أنـا ورفعـت، وكيف تعامل معـي أهل الكـرة الأرض، أو كيف تعاملتُ أنـا معهم، النتيجة هـي أنني وصلت إلى باب الشـقة وها هي يدي تمتد بالمفتـاح لتهتـك بـه كالونـه، وفجـأة وكأن كالـون الباب متصـل بتيار كهربائـي صاعـق، نزعتُ يدي فجـأة وأنا انتفض في مكانـي، فقد أتاني من داخل شقتي ضحكة ماجنة، إنها ضحكة ممطوطة لفتاة بدا منها أنها تمارس طقسًا اعتادت عليه وفي هذا المكان بالتحديد.

كيـف فتحـتُ باب الشـقة، وكيف بحثـتُ عن مصـدر الضحكة في الصالـة فأتتني ضحكة جديدة من حجرة نومي، كيف خطوت المسـافة مـن الصالـة وحتـى حجرة نومي فـي قفزتيـن أو ثلاث، وكيـف تأملت الصـورة البشـرية الماثلـة أمامـي، وكيـف تماسـكتُ ولـم أذهـب إلى المطبـخ لأحمل سـكينًا لأقتل به تلك الفتاة الماجنة التي جلسـت فوق سـريري عارية تحاول جذب أي شـيء لتواري به سـوءاتها، وأقتل بهذا السـكين الحاد رفعت الذي نط كفأر.. لا.. بل قفـز مثل قرد عار تمامًا، يقف أمامي مذعورًا رافعًا يد يشـير بها إلى أكثر من اتجاه ويده الأخرى يحاول بها تغطية قضيبه الذي انكمش مفزوعًا.

كيـف حدث كل ذلـك؟! كيف رحلـتُ عن المكان بـدون أن أنطق بكلمـة واحـدة؟! كيـف عـدتُ إلـى منـزل والدي؟ كيـف قابلـتُ أمي



بصمتى ثم أغلقتُ باب غرفتى خلفي؟ كيف تحملتُ كل شيء ونظرت باشمئزاز وقرف نحو كل شيء، ثم مطتُ شفتى ولويتهما وكأن الأمر لا يعنيني..؟؟

لا أدرى..

نعم.. لا أدرى.. ولم أقرر أن أعلن أى شيء أو أتخذ موقفا صارمًا وسريعًا، يبدو أن داخلى لم يكن من الأساس مهتمًا برفعت وبما يفعله، تفكيرى انصب على رغبتى التي وأدت وتلاشت أمام تلك الصورة القبيحة التي شاهدتُ رفعت عليها مع فتاته المومس.

كان نهار اليوم قد انقضى، دفنتُ جسدي في سريرى وتلحفتُ بالكثير من الأغطية وذهبتُ خلف أفكارى ثم خلف أحلامى.

***



«ماذا تعني حياة لا نعيش غير عذابها»



(32)

إنتحار

لا أدرى لماذا ننتظر النهايات طالما ونحن نتجرع الآلام؟! ماذا تعني الحياة إن كانت كلها آلام على الدوام؟! إن لم نجد في تلك الحياة السعادة الحقيقية لابد أن نضع النهاية بأيدينا، فلا فائدة ترجى من الانتظار غير عذاب ينتهي ليبدأ عذاب جديد.

تسيطر هذه الأفكار على روحى لمدة ثلاثة أيام، رفضتُ فيها الواقع بأكمله، رفضتُ مقابلة رفعت الذي أتى في اليوم التالى بعدما مر يوم جرمه بدون أن يتصل به من ينهره، لم أقابله ولم أبرر رفضى، وصلتني كلمات أمي له وهي ترجوه بأن يتحمل حتى تمر تلك الأيام العصيبة، لم أرغب حتى في توضيح الأمور لأمى، تركتها على جهلها ولتفهم ما تشاء، وليعتقدوا أن رفعت ملاكًا وأنني شيطانة تسكنها شيطانه.

كان هذا هو اليوم الذي أطلقت عليه اسم اليوم المشئوم وهو يوم واحد فقط من ضمن أيام هذا العام الذي شاهدتُ فيه ألوانًا شتى من البشر وسمعت فيه قصصًا وحكايات تملأ مجلدات ضخمة.. أيام

عجاف تحمل قصصًا وحكايا عن عالم الشياطين والجان وكأني أعيش بين حكايا ألف ليلة وليلة.

ذات ليلة، ومن كثرة ما تعرضتُ له من أساليب وأفعال متشابهة، خطر على بالى أن أعلن عن قدراتى الخاصة في علاج الممسوس، ضحكت بشكل هيستيرى وأنا أتخيل نفسى وقد ذاع صيتى بـ «المعالجة الشيخة سوسن»، ضحكت وأنا أضيف مهام أخرى أستطيع القيام بها منها علاج السحر وجلب الحبيب والربط وزيادة الرزق وكشف المستور.. وأضحك.. وأقول بصوت مرتفع بلهجة بدوية «وأبين زين أبيـــــن»

ما كان يدهشني بالفعل خلال هذه الأيام قدرتي على الصمود والتمسك بتلابيب الحياة، رغم الانهيار الرهيب الذي أهوى إليه والواضح في كل تفاصيل حياتى.. لكني ما زلت أعيش على أية حال!!

يبدو أن هناك خيطًا رفيعًا يصل بيني وبين أسباب الحياة، ما هو؟ لا أدرى..!!

حتى كان يوم استيقظتُ فيه من نومى مبكرة على غير عادتى. تنسمتُ عبير الورود يملأ المكان، ينبعث من حديقة في المنزل المجاور كان بها أنواع شتى من الزهور، صاحبها كان دائم الاهتمام بها خاصة مع بدايات الربيع، فكان يقضى الساعات الطويلة يعمل فيها رغم صغر مساحتها. كنتُ أشاهده من قبل وهو يفعل ذلك فأسخر منه، وأتساءل لماذا يتفاني في عمله هكذا؟!

اليوم يتسلل عبير حديقته إلى صدرى وكأني أشعر به للمرة الأولى رائحة الريحان تملأ أنفي كما تملأ أنف الحامل رائحة ما تتوحم عليه.



تذكـرت ما حكته أمي عن ابنـة جارة لنا تملأ صدرها بالأتربة وعادم السـيارات وهي في غاية السعادة.. لما سألتها عن السبب أخبرتني بأنها فـي شـهور الحمل وهي تتوحم بشـدة وبشـكل لا يوصـف على رائحة التراب..!!

تذكـرت ذلـك وأنا أتنفس بعمق، من شـرفتي نظرت إلى شـجيرات الحديقـة.. تعجبـت من اسـتجابتها لعنايـة صاحبها، ولو أن يـد العناية امتدت لي لكنت أجمل منها.. ولكن..

لكـن أشـجار الصحـراء لا تجـد من يعتني بهـا وهي أيضـا تعيش.. تعيش من أجل نفسها، إنها تحيا للاستمتاع بحياتها. تعبت من التعرض للنـزوات الشـخصية لهـؤلاء الأفـراد مدعـي الطب الروحاني سـئمت الحياة بأكملها.

عـدتُ إلى الغرفـة وأغلقتها خلفي بالمفتاح وقـررتُ أنه يجب على الاختيـار بين أمريـن، إما الخلاص والعودة إلى طبيعتـي الخاصة، وإما الانتحار.

بعـد طـول تفكير أوشـكت علـى تنفيـذ الاختيـار الثاني، فقـد كان أسرع وأيسـر، ولكني في هذا الصباح تذكرت أشياء جميلة مرت على، تذكـرت شـجيرة الظل فـي المعهد ثم فـي مقر عملي، تذكرتُ حسـين وحديثه العذب، رحلة أنشـاص، روحي وعقليتي المضيئة وجملة قالها حسين بين طيات حديثه " أنت أجمل مما يجب ".

نظرتُ في المرآة، شـاهدتُ سوسـن وكأني أراهـا للمرة الأولى منذ أكثر من عام، كان هناك في المرآة كائن بشـع، بالطبع ليسـت سوسـن.. و..

و أفقـت مـن إغمائه طويلة يبدو أنها اسـتمرت عامًا كاملًا، شـعرتُ بفزع رهيب يتملكني، أحسست بانسحاب سنوات العمر، سألت نفسى وماذا بعد؟ هل أظل سـيدة الانهيـار التام؟! أين أحلامى وطموحاتى؟! أين آهاتى ولوعتى؟! أين شغفي ورغبتى في أن أكون أميرة متوجة على عرش مملكة مَن أحب، مَن يذوب قلبي على عتباته.

للمرة الأولى منذ ارتباطى برفعت أفكر بهذا الشـكل، أتذكر سنوات عمرى، فقد اقتربتُ من الثلاثين.. فورة شـبابي أوشكت على الخمود، العمـر يهـرول حامـلًا ترهلاتـه وتجاعيـده، ربيـع العمـر كاد أن يمـر، أوشـكت سـنوات الجدب والجفاف والذبول أن تأتى، وأنا مستسـلمة تمامًا، يجب أن أصارع.. يجب أن أعود..

قليلـة هي لحظـات المصارحة مع الذات، لكن ما أجملها خاصة إن كان فيهـا شـيء من الصدق، لأول مـرة أعترف أمام نفسـى بأنني أعاني وأتعـذب ويجـب أن أعود إلى طبيعتى الجميلة مهمـا كلفني ذلك، فلن أعانـي أكثر مما عانيتُ، ولن أتعرض للهـوان والضياع أكثر مما مررت به.

إعترافـي بضـرورة عودتـى أدي إلـى إعتـراف آخـر، كان يـرد على خاطـري للمرة الأولى أيضًا، وهو أنني أعاني من مرض ما، أو أمراض

ما.. هذه الأمراض في حقيقتها لن تنصلح أبدا بالمشايخ ولا القساوسة، إنما يجب أن أذهب إلى الطبيب.. الطبيب النفسى.

الأعراض التي يعتبرها العامة مسًا أو لبس شياطين، من المؤكد أنها نتجت عن أسباب أخرى يعرفها الطب النفسي، لماذا لم يخطر على تفكيرى ذات يوم أن أذهب إلى الطبيب؟! ذهبت أقصى البلاد طولًا وعرضًا، ولم أفكر في الذهاب إلى الطبيب؟! لكن كيف؟ كيف أعترف بأني مريضة نفسيًا؟ أنا لست مجنونة. وصرخت بشدة وأنا أحطم أى شيء في طريقى وأمزق الملابس والوجوه، وانهالوا على ضربا حتى تذهب الشياطين، أسرعتُ بالعودة إلى حالة الهدوء حتى يكفوا عن إلحاق الأذى بي.

الذهاب إلى الطبيب النفسي أمر مخزى حقا في مجتمعنا، الذهاب إلى المشايخ وأصحاب الأسرار أضحى أمرًا عاديًا في مجتمعنا.

كل ما شغل تفكيرى في الأيام التالية هو الطب النفسى، أعتقد أنه لا توجد نظريات تحكم هذا العلم، وإن أرادوا وضع النظريات لوضعوا الملايين، فالنفس أعمق وأوسع من بصمة الإصبع.

تأوهت بشدة، لم أعد أعى شيئًا، أصبحت أخاف من كل شيء، أخاف من الأماكن المغلقة، أخاف من الطرق غير الآمنة المليئة بالسيارات والحفر والأصوات المرتفعة، أخاف من أصحاب الطرق أنفسهم، فإن كل شخص يسكن في منطقة، يتولد لديه شعور خفي يجعله يتساءل عن أى جديد في منطقته، يسأل عنه بوقاحة، أخاف من السكين.. كنت لا أستطيع الإمساك بها للقيام بأى عمل، ظهور الأحقاد والأطماع في

الآونـة الأخيرة والصراعات المكشـوفة على كافة المسـتويات زاد من حنقـي، فلا أحدًا آمن علـى الإطلاق، لِمَ إذن أبحـث عن الخلاص؟!! بدأت أركز في كل هذه الأمور.. فبدأت أخاف من الخوف نفسه.

في الشهور الأخيرة، كنتُ أذهب إلى عملي كارهة، مرتين أو ثلاث مرات في الأسـبوع. اسـتمراري في العمـل كان للحصـول على المال فقط، حتى لا أشـعر، إلى جانب ما اشعر به من أمراض، بأنني أمثل عبئًا علـى الـديَّ، خاصة وأن ما يرسـله رفعـت على فترات متباعـدة كان لا يكفي للمساعدة يومين أو ثلاثة.

رغبتي في مسـاعدة أسـرتي لم تقل رغم ظروفي، يبـدو أنني أمتلك بداخلي أشـياء حميدة، هكذا تحدثتُ إلى نفسـي، وابتسـمت، فأنا فتاة طيبة القلب وجميلة. لم أفكر يوما في مستوى عقلي، لم أشعر بأن آرائي ومعتقداتـي التـي كنت أتحدث بها باسـتمرار، تعنـي أن هناك خللا في تفكيـري، أتصـرف بتلقائية شـديدة.. ولا مانع من أن أخرج لسـاني في وجه أبي ورفعت وأمي، أو أن أتمني بالونة أطفال ألهو بها، لا أعتقد أبدًا أن هـــذه دلائل خلل عقلي.. ثم ماذا في أن أكره الفئران كبيرة الحجم؟ أو أن لـي وجهة نظـر خاصة في أن الأطباء ما هـم إلا تجار مهرة؟! هل يدل ذلك على أني مختلة عقليا؟!

ليذهـب الجميـع إلـى الجحيم، يكفي مـا أعانيه من خـوف وقلق.. يكفـي أنني أجريت عملية اسـتئصال للمـرارة في هذه الأيـام الأخيرة، تكفينـي آلام قرحـات المعـدة والرحـم، ويكفـي تـورم قدمـيَّ وعـدم استطاعتي السير عليها بحرية تامة.



يكفـي أن رفعت، هناك في شـقتي وعلى سـريرى، يمارس جزئيات حياتـه "كاملـة "كمـا يريد، بدون أن يسـتميت بجـوارى لانقاذى. لقد تركـت الحيـاة الطبيعيـة منذ عـام وها هي شـهور تمر من العـام الثاني، ناهيكم عن تلك المدة الطويلة التي قضيتها مع رفعت. عمرى ينسـحق تحت أقدامهم ولا أحد يهتم.

آثرت العزلة..

لا أحـد في العالم يفهمني، لا أحد يشـعر بما أشـعر بـه، هذا العالم الغبـي المتصارع مـن أجل تحقيق أطمـاع غبية، القتـل والدمار في كل مـكان، يفتخرون بقطع الرؤوس وتمزيق الأجسـاد وهـدم المدن!! في أى زمن نعيش؟! ألا يدركون أن الأخلاق هي أسمى شيء، لابد أن يتم إصلاح العالم، يجب أن ينام العالم كله بلا استثناء "ليلة "كاملة، حيث تُلقى الإبرة فيسـمع صوتها، ليلة واحدة يغيب فيها العالم عن الوعى ثم يفيـق فجأة، يعـود العالم كله إلى الوعى في لحظـة واحدة، تعود الروح إلـى هذا الجسـد الواحـد، الذي نقى نفسـه تمامًـا وأصبح كمـا الورقة البيضاء، ليعتنق كله مبادئ واحدة ويشعر بإحساس واحد، لابد وأن يتم كل ذلك بأسرع ما يمكن لأن النهاية الأليمة المفجعة وشيكة.

إنهـم لا يعانـون مـا أعانيه، آلامـى خفية، إنـي أخاف جميـع الناس وأشك في الجميع، أحداث الأعوام الماضية تؤكد كافة ظنوني، أصرخ رفضًـا.. أصـرخ وأصرخ.. حتى أكاد أرتاب في نفسـى، فلم أعد أشـعر بـأى نوع من الطمأنينـة أو راحة البال. يحل بي التعـب وتنقلب موازين حياتى، وذَبُلت زهور السوسن.

فـي أيامي الأخيـرة، أيام المصارحـة الكاملة مع الـذات، كنتُ أثور علـى الجميع، أرفـض الذهاب إلى الدجالين، لقد سـئمت هـذه اللعبة التـي زُج بـي فيها رغم أنفي، لـم أعد أريد الاسـتمرار، لابد من البحث عن الحل الأمثل.

إننـي أجمل ممـا يجب، لهذا يجب أن يشـعر الجميع بما أشـعر به، إن فشـلي فـي حياتي كاملة بما تحتوي عليه مـن زواج وعمل وتفاصيل أخرى، منبعه شيء ما، لا أستطيع تحديده بأي حال. كنت أحيانا أصدق بأن هناك مسّـا من الشياطين، إنني لست أنا، يداي ليست يدي، وكذلك قدماي..

رغبتـي في الانتحار تزايـدت خلال الأيام الماضيـة، واليوم أصارع نفس الرغبة لابد من دافع للوقاية. دخلت غرفتي وأغلقت بابها خلفي، حاولت بشتى الطرق أن أستجمع أطراف تفكيري المشتت، كنتُ دائما أفشل في التركيز حول أي فكرة أو موضوع، وكأن التفكير شيء هلامي لا أستطيع الإلمام أو الإمساك به.

في هذا اليوم قررتُ الإمسـاك بأطراف تفكيري وألا أدعه يذهب من بين يديَّ، أردتُ أن أقف على بداية الطريق.. يجب أن أعود..

تذكرت حسـين فعـادت إلى ثورتي، لقد تركني حسـين بأسـرع مما يجب، إنه لم يجاهد في سبيل الحصول عليّ.. أعود وأسأل نفسي:

- وهل جاهد رفعت؟!



تـزداد ثورتي.. أضرب أشـباحًا في الهـواء وكأن عقلي قد طار، ولم أستطع السيطرة على تفكيري ولو لمجرد لحظة واحدة. تكررت الحالة لأيـام متتالية وفي عناد رهيب مع نفسـي كنت أنفـرد بذاتي وأبحث عن سوستتي.

كل ما خرجت به من جلسات المصارحة مع الذات التي طالت، هو شيء واحد.. وهو:

- يجب أن أخضع للعلاج، فأنا مريضة.

فشـل الطب المادي كما فشل الطب الروحاني والدجل والوصفات ولم يتبق إلا الطب النفسـي، اسـتجمعت كل ما يمكنني اسـتجماعه من قوة وطاقة وكونت جملة واحدة:

- أنا مريضة ويجب أن أذهب إلى طبيب نفسي.

***



«من أضعف جزء.. تأتي النجاة»



(33)

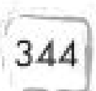
أمل

كثيرة كانت محاولات الاستفسار أو الإقناع من والدي، لكن نفس الجملة هي التي كنت أجيبُ بها على كل شيء، حتى إنني لم أنطق بغيرها لمدة ثلاثة أيام متتالية.. حقا.. إن الإنسان مخرف!! يحاولون إقناعي بأن هناك مسًا شيطانيًا، كانوا على يقين من ذلك، لكنني كنتُ ثابتة على جملة واحدة.. «أنا مريضة ويجب أن أذهب إلى طبيب نفسي».

لم يكن ثمة مفر من الانصياع لرغبتي، يتزايد الأمل بداخلي، بحثتُ عن أي شيء أستطيع أن أقاوم من خلاله، كانت تحقيق رغبتي تلك، ذهبت إلى الطبيب النفسي، يحدثني بأن ذهابي إليه يؤكد بداية الدخول إلى أرض الشفاء. بعد لقاء التعارف وتخطي الرهبة الأولى، بدأتُ أجيب على أسئلته بشأن ما أعاني منه.. أتحدث بلسان ثقيل وكأن صخرة ضخمة معلقة به، تحمر بشرتي، تفرز حبيبات العرق الساخنة، أصابعي تتحرك بعصبية، كانت كلماتي :



- أشعر بالقلق الدائم، التعب، الإرهاق الشديد صباحا حتى بدأت أخشى الصباح، ثم باعتدال طفيف في المساء لدرجة أنني رغبت ألا ينتهي المساء، أصبح الخوف يعتريني من كل شيء حولي، ولم يعد هذا الخوف يفارقني ليل نهار.. بالإضافة إلى السهاد وتبلبل الأفكار مع اليأس، وبعض الأمراض العضوية واستئصال المرارة وقرح المعدة والرحم.. الشعور بالذنب الذي يلازمني، وتأنيب الضمير والاستهانة بنفسي حتى إنني فكرت في الانتحار، مع شعور دائم بعدم فهم الآخرين لي ولمشاعري، الغالبية العظمى تستهين بأفكاري الإصلاحية التي من شأنها إصلاح العالم.. ناهيك عن فقد الشهية للطعام، أصبحت في الأيام الأخيرة أثور، أتخبط، أهذي.. بوجه عام هناك شعور بالكآبة وانقباض وحسرة عند النظر إلى أي شيء، لا يوجد أي نوع من أنواع النشاط، تفكيري كأنه مشلول.. كل هذا لم يكن يظهر بوضوح إلا بعد ظهور الأعراض الكبرى التي حدثني بها الجميع .. منها أنني كنت أقدم على أفعال غريبة وشاذة وأبكي إلى فترات طويلة، كنت أصرخ بصوت مرتفع وأنتفض وأتخبط، قيل لي ذات يوم أن خمسة أفراد عجزوا عن تهدأتي حتى أتى صيدلاني وأعطاني مهدئ، ومهدئًا كلمة جميلة بديلًا لكلمة مخدر، من الأعراض الكبرى أيضا أنني كنت أسير إلى أماكن لا أعرفها، ولا توجد لي أية مصالح فيها.. فقد ذهبت إلى مدافن القرية ليلًا وجلست بينها وحيدة.. في بعض الأحيان يخبرني أحدهم بما أقدمت عليه،



وفـي أحايين أخرى لا يخبرونني بشـيء.. بعدهـا غالبا ما أذهب في النوم.. أستيقظ وكأنني كنت أحلم.

بعدمـا تحدثـت إلى الطبيـب بكل هذه الأعـراض، يبتسـم وكأن ما تحدثت به أمر طبيعي وقال:

- أرى أن غالبيـة ما تحدثـتِ به طبيعي وأنا في حقيقـة الأمر أعاني تقريبـا من نفـس المشـاكل التي تعانيـن منها يا سوسـن.. لكنني أسـاير حياتـي، لدي رغبـة ملحة في إصـلاح العالـم، لكن هناك أمور ينبغي أن نتحدث بها فقط لمن يستوعبها، كل فرد له أهواءه وميولـه، ومثل هـذه الأفكار تجد لها أرض خصبة وسـط أعضاء الجمعيـات الإصلاحية التي تهتم بالفرد، ليـس في بلدنا وحدها وإنما في جميع أنحاء العالم.

نظـرتُ إلى الطبيـب نظرة ريبة، يبدو أنه يسـتهين بأفـكاري، قبل أنْ أتخـذَ ردةَ فعـلٍ قوية، ابتسـم أكثر وهو يرتشـف من فنجـان قهوته ذات الرائحة النفاذة رشفة جديدة، ويقول:

- لا تعتقدي أني أقلل من أفكارك، أنا أحدثك بحقيقة مشـاعري يا سوسـن، هنـاك رغبة داخـل كل منا في الإصـلاح وهناك رغبات فـي التدمير، أيهما ينتصر علـى الآخر؟ ذاك هو الأمر الذي يجب أن نبحـث فيه معًا، فلا تدعي الجزء الأسـود يطغى على الأبيض الجميـل، لا تتركـي غضبك يهيئ لكِ بأنني أسـخر أو أسـايرك.. لا.. انظـري إلـى الأمر من نفس زاويـة رؤيتي له، إننـا نتفق على مبـادئ وقيـم لا خلاف عليها، فقط يجب أن نحـدد ما علينا فعله

خـلال الفترة القادمة بطريقـة تضمن لنا النجاح، خاصة وأن قوى الشر الظلامية تنتشر انتشار الجراد.

كانت دهشـتى تتسـع مـع كلماته، فقـد اتفق معى، شـعرتُ بصدقه، تولـدت بداخلـى علامـات راحة تجاهه، ويبـدو أنه استشـعر ذلك فبدأ يسـألني عن أمـور وأحـداث أدق مرت فـي حياتى، كنتُ أتحـدث إليه بشكل طبيعى، حتى إني دُهشت من الطريقة التي كنت أتحدث بها:

تذكـرتُ أننـي فـي الفتـرة الماضيـة، وقت التـردد علـى المعالجين الروحانييـن، أنني كنت أكرر الزيارة للأشـخاص الذين أشـعر ناحيتهم بنـوع من الألفة، أو الذيـن أجد لديهم رغبة في إصلاح العالـم ويفهمون قدسـية المشاعر والنفس الإنسانية. لذا كان من الطبيعى أن أكرر الزيارة للطبيب النفسى، خاصة وأنا صاحبة فكرة الذهاب إليه، في كل مرة كان الحوار يزداد حول جزئـيات حياتى الخاصة ومعتـقداتي وأرائي.

كان الطبيـب ماهرًا إلى أقصى درجة فـي الغوص إلى أعماق النفس البشـرية، لديه قدرة فائقة على جعل الحديث يسـتمر لسـاعات طـويلة دون أدنـي شـعور بالملل، لـم يهاجمني قـط ولم يندهش مـن أى فعل ذكرته له، بل كان يتقبل دوافعى التي جعلتني أقوم بذلك الفعل.

كَثُـرت زياراتى للدكتور « توفيق »، ومرت فتـرة طويلة وأنا أتحدث فقط وهو يستمع ويستزيد عن طريق بعض الملحوظات والاستنتاجات، التـي توجه التفكيـر إلى نواحي بعينها.. حتى شـعرتُ أنني تحدثت عن كل شيء ولم يعد هناك ما أتحدث عنه.



بـدأ الدكتور توفيق في الجلسـات التالية يوجه الأسـئلة وأنا أجيب، معظـم أسـئلته كانت عن أشـياء ذكرتها بين طيات حديثي ولكني كنت أمـر عليهـا مرورًا سـريعًا، فـكان يسـتزيد عنها. مـن الأشـياء التي ركز عليها الطبيب بشـكل ملفت للنظر هي رفضي للعلاقة مع حسـين زميل الدراسـة، وموافقتـي المشـروطة علـى رفعـت. وأيضًا الموقـف الذي حدث بيني وبين رجل الأمن في المستشـفي يوم أن سألته لماذا يحملق فيّ هكـذا، كما وقف أمام جزئية توجيهي اللـوم لزوجي ووالدي فقط. تعجبـتُ من التوقـف أمام هذه الأمور الصغيرة التـي أرى أنها غير ذات أهمية، يجيبني الدكتور توفيق مبتسما:

- ألم تلاحظي أن هناك عاملًا مشـتركًا بيـن كل هذه الأفعال، هناك جزئيـة واحـدة هـي السـبب الموجـود خلف إصـدار مثـل هذه الأفعال.

لم يفصح وإنما سـألني عن أشـياء أخرى، أجبته بهـدوء ثم تذكرتُ هذا الشـيء الصغير الـذي يماثل القطعة المعدنية والـذي يثور بداخلي وحدثته عنه.

مـرت عدة جلسـات والدكتـور توفيق يحـاول من خلال المناقشـة التوصـل إلـى أى جزئيـة تفيد فـي تقدم العـلاج. كنتُ قد هـدأتُ بقدر معقـول خلال هذه المـدة الماضية، فبعض المرضى يشـعرون بالراحة لمجـرد زيارة الطبيب حتى قبل أن يتعاطوا أية أدوية. أو لنقل أنني كنت أؤجل أية أعراض إلى ما بعد انقضاء مدة الأمل، فإن عدتُ كان بها وإن استمر الوضع نال مني الدكتور فؤاد ما ناله مَن سبقوه.

تذكـرتُ اللوحة التي تحتوى على شـجيرة التـوت، حدثت الطبيب عن تفاصيلها، يفكر بعمق ثم ينهي اللقاء.

بعد مرور عدة جلسـات أخـرى، وبعد حديث دسـم داخل أعماقى تذكـرت جزئية مهمـة، فتحدثت بهـدوء وعمق كأني أعيـش الأحداث بعينهـا فـي هـذه اللحظـات وأغمضت عينـي، كنتُ ممدة على كرسـى طويـل فـي جانب من الحجرة ومروحة مدلاة من سـقف الحجرة تدور ببـطء حيـث ذبذبـات الإضـاءة المتخللـة إلى عينـي المغلقـة، وكانت كلماتي:

- فـي أحد الأيـام.. منذ فترة طويلـة.. طويلة.. عشـرين عاما مرت علـى هذه الحادثـة.. كنت ألعب مـع طفلتين في نفـس عمرى.. هنـاك.. عنـد أطـراف القريـة، وقـت الظهيـرة.. في يوم مـن أيام أغسـطس الحارة.. مكان متسـع، سـاقية تقع على يسـار الطريق وبجوار هذه السـاقية يتواجد المجرى المائي الذي يستقبل الماء الخـارج منها، فـي هذا الجزء الـذي تحجبه السـاقية عن الطريق العـام كانـت الحادثـة.. في هـذه التوقيت حيث تقل جـدًا حركة البشر وقد سكنت العصافير بأصواتها المرتفعة ظل شجرة التوت الضخمة.. بدا المكان بأكمله كأنه معزول عن العالم اللهم إلا من كلب ضال يزوم وهو يشمشـم بحثًا عن أى شيء بين الحشائش، من الخلفية البعيدة يأتى نهيق حمار بدا كنذير شؤم، سيدة عجوز تمر بالقرب تحمل طست ماء من الترعة القريبة.. في هذا الوضع بأكملـه كنا نحن الثلاثة نضحك ونلهـو كالعصافير ونقفز ونعود،

وصلنـا إلى السـاقية وعبرنا «المدار» وهو الممـر الذي يدور فيه البهيم، وفي المجرى المائي الجاف والمختفي تمامًا عن العيون شـاهدتُ هذا المنظر.. البشـع.. كان ثمة رجل في وضع.. وضع ممارسة مع سيدة، كانت السيدة تئن من عنف الرجل الذي بدا أنه يغتصبهـا، غضبت إلى أقصى درجة يمكـن أن تغضب منها طفلة مـن فعـل حيواني في وضـح النهـار، كان بيدي قطعة مـن الطين صنعـتُ منهـا تمثالاً صغيـرًا لرجل أو شـبه رجل، انتهـي الرجل من شـهوانيته وترك السـيدة، رجل طويل يرتـدي جلبابًا ويحبك طاقيتـه علـى رأسـه ويضـع شـاله حـول رقبتـه، ثم ينفـث دخان سـيجارته مطلقا ضحكة خفيفة كشـفت عن أسـنان مدببة صفراء وهو يمد يده نحو تلك السـيدة التي تسبه بألفاظ بذيئة.. ويرحل، ثم ترحل السـيدة بعد دقائق.. لم ينظروا ناحيتنا كأنهم لم يرونا.. تخيل ذلك يا دكتور توفيق؟!! لم تُظهر السيدة الحزن المنتظر من سـيدة تم اغتصابهـا.. أتذكر بوضوح أنني حطمـت التمثال الذي صنعته من الطين بعـد رحيل الرجل، ومرت الأيام وهذا الحدث كله لم أتذكره بتفاصيله الدقيقة تلك إلا اليوم، أتذكر أيضا أنه في هذا اليوم ترددت جملة وحيدة بين الأطفال ببراءة شديدة:

- هما كانوا بيعملوا أيه؟
- كان بيضربها.

وضع الدكتور توفيق مفكرته في جانب، وقدم لى فنجان الشيكولاته باللبن الذي كان يحرص على تقديمها لى في كل زيارة بعدما علم عدم

إقبالي على احتساء القهوة، ثم جلس هو يرتشف قهوته بهدوء كعادته، قبل أن يقول:

- أنتِ يا سوسن لم تفقدي مثل هذا الحدث من الذاكرة، لقد ترسب في اللاشعور.. ترسب بداخلك إحساس قوى مدمر مؤداه: بُغض وكراهية شديد للرجل بوجه عام.. هذا ما يمكن أن يطلق عليه « عقدة الرجل ».. وهذا ما تم ترجمته الى أفعال على أرض الواقع منها رفضك لحسين ورفضك لرفعت، فأنتِ لم توافقي على رفعت، إنما سُررتِ بالوظيفة، لقد سحقتكِ الحياة، المتمثلة في أسرتك الفقيرة، حتى جعلتِ من الوظيفة حلمًا تتلاشى أمامه عيوب الآخرين، وهذا ما حدث بعد ذلك، حيث الانسياق خلف السعادة بالوظيفة الحكومية، والتي جعلت عيوب رفعت تختفي.. ولكن إلى حين.. ثم كانت هناك النظرة إلى والدكِ حيث ألقيت على كاهله كل الأسباب المؤدية إلى مرضك، ومنها فقره.. وقد تندهشين من ذلك، فكيف يدفعك فقر أسرتك للتفاني وتقديم ذاتك قربانًا تفتدي به تلك الأسرة وفي نفس الوقت تنقمين عليهم فقرهم، هي رغبات متضاربة بين الجوهر وما يجب أن يكون.. رغبة التفاني من أجل المشاركة في إسعاد هذه الأسرة، وحقيقة أخرى تُمثل لكِ والدك كرجل مثل بقية الرجال فتنقمين عليه، مثل عبدالمحسن زوج المريضة أو الدكتور المرتشي من الشركة، حتى رجل الأمن في المستشفي وغيره من الرجال، وهذا الشعور لم يظهر قبل هذه الأحداث،

ذلك لأن المشكلات لم تكن قد ظهرت بعد. عموما يا سوسن ما سمعته منك اليوم يمثل حادثة من أبشع الحوادث التي سمعتها في حياتي وهي السبب المباشر في كراهيتك للرجل، وكراهية الجميع بعد ذلك، حتى وصل بك الأمر في بعض الأحيان، إلى هجر هذا الواقع بكل ما فيه واللجوء إلى عالم اللذة الخيالى أو عالم الموتى والذي تمثل في ذهابك للجلوس بين مقابر القرية ليلًا، ذلك نتج عنه كل الأفعال التي ظهرت عليكِ خلال الفترة الماضية، وكان من الممكن جدًا ألا تتأثري بهذه العقدة المترسبة في اللاشعور، لو أنك تزوجتِ بشخص يستطيع أن يُذيل آثار هذه العقدة من خلال الأفعال الجيدة، لكن ارتباطك برفعت، وهو في حد ذاته مشكلة كبرى تؤدي إلى المرض الخطير، ذلك لعدم وجود أى نوع من التواصل بينكما، وهذا بدوره قد عمق العقدة وضخمها.

يتابعني للحظات وأنا أقضى على ما تبقى في فنجاني، كنتُ أنصت له بدهشة وإعجاب، كان موفقًا للغاية في اختيار كلماته وغوصه في أعماقى، تحليلاته مقنعة إلى حد كبير وإن احتاجت مني جهدًا إضافيًا كى أستوعبها، هززتُ رأسى أطلب منه الاستمرار، فقال :

- إن هذه السيدة التي ارتكبت هذا الفعل الشهواني خلف الساقية، لم تكن شريفة على الإطلاق يا سوسن، أنتِ لم تسألى نفسك مَن الذي ذهب بها إلى هذا المكان؟ إنها ذهبت هناك لتفعل ذلك، وسبها للرجل بكلمات بذيئة جعلكِ كطفلة تعتقدين أنها

ضحيــة معتــدي عليهــا، فألقيــت اللوم كلــه على الرجـل ولو أن الأمــر قد تعادل لديك وألقيتِ الذنب علــى الرجل والمرأة على السـواء لـكان ذلك من شـأنه أن يجعل الأمور متزنـة.. بالإضافة إلى الصراعات الداخلية التي زادت من الأثار الضارة.. كل ذلك سـيؤدي بطبيعـة الحال إلـى الوفاة إذا اسـتمر، خاصـة أن الرغبة في العـلاج لدي الطبيب المختص لم تكـن متوافرة، ولكن الآن الوضع كله قد تغير ووصلنا إلى شاطئ آمن يا سوسن..

توقف لحظـات وعلى وجهه علامات سـعادة، وقف واقترب مني، أمسـك بيدي، وقفت بهدوء وتبعته، حتى جلسنا على مقعدين متقابلين أمام مكتبه، ارتد للخلف بكبرياء، ثم قال:

– الآن فقط.. يمكن أن أعلن شفائك التام يا سوسن.

ذُهلـت من قـول الدكتـور توفيق.. كيـف ذلك؟ كيف تم الشـفاء؟! أبهذه البساطة..!! ألا توجد أية أدوية وعمليات جراحية أو ضرب أو..

❋❋❋

«لحظة الميلاد الحقيقة
هي التي نرى فيها أشعة الشمس تحتوى الكون»

(34)

النجاة

يمـر عام آخر من حياتـى بعد آخر لقاء عند الطبيـب والذي يقرر فيه أني قد شُـفيت تمامًا، وأني عدتُ إلى سوســن الطبيعية، وما عليّ إلا أن أسلك الدرب الطبيعي في حياتي والذي يتفق مع ذاتى.

الحقيقـة أني تأكدت بالفعل من أن حديـث الدكتور توفيق عن كون زواجـى برفعــت، وهو الشـخص الـذي لم أجـد فيه مقومـات الحبيب الذي يسـتطيع محو عقدة الرجل من داخلى، عمق العقدة في اللاوعى، فـزادت الكوارث، فوصلـتُ إلى مرحلة المرض النفسـى والذي أطلق عليه الطبيب اسـم مرض « النورسـتانيا ». وقد قرر أنه بعد التعرف على أعماق ذاتى والوصول إلى العقدة في مكانها السحيق، سوف أصل إلى الشفاء التام.

تذكرتُ أيضا حديث الطبيب عن أن البشر شقا رحى، شق خاص بالخير ويسعى جاهدًا لتحقيقه، وشق آخر يبتغي الشر ويسعى خلفه، والخير يصارع دائمًا الشر حتى ينتصر في النهاية.

فكرة إصلاح العالم لابد أن تستمر من أجل التصدي لأفكار الشر، وإن كان في ذلك صعوبة بالغة، لأن إصلاح العالم والوصول به إلى المثالية ليس بالأمر الهين طالما أن هناك عقولًا مخربة وطالما كانت هناك عقول مثل رفعت وجلال والقس مكارى.

نصحني الدكتور توفيق بأنه يجب عليّ أن أحتفظ بأفكارى الإصلاحية الخاصة ومشاعرى، فليس من الطبيعي أن تظهر هذه المشاعر هكذا باستمرار بشكل قد يوصف بالجنون، خاصة في أيامنا هذه، وإنما يجب أن أختار الوقت المناسب لتحقيق ما أريد بالعمل وليس بالكلام المستمر، ومع أناس تعي قيمة هذه الأفكار.

اقتنعت بكل ذلك، وبدأت أتقبل الوجود بكل ما فيه وأقبلت على الحياة، في هذا العام رأيت رفعت على حقيقته، وبعد تفكير عميق وطويل في الانفصال وجدتُ أن الأمر عادي جدًا ولا غرابة فيه، بل ويحدث كل يوم مئات من حالات الطلاق، لم أجد أى مشكلة قد تعود على من الانفصال. من قبل كانت فكرة الانفصال كافية لإثارة الرعب في داخلى، لكن اليوم، طلبت من رفعت الانفصال.



تركت رفعت..

وتركت القرود..

غمرتني الابتسامة..

تفتحت خلايا جسدي حتى إنني شعرتُ بها تتنفس من جديد.

تمت

رضا سليمان

الشيخ زايد - مصر

2016



إصدارات المؤلف

رضا سليمان

- آدم تو ـ مسرحية ـ الهيئة العامة للكتاب.
- عمدة عزبة المغفلين ـ رواية ـ أخبار اليوم.
- مطلب كفر الغلابة ـ رواية ـ دار سما.
- ماريونت ـ رواية ـ دار سما.
- وحي العشق ـ رواية ـ دار سما.
- ظلال الموتى ـ رواية ـ دار سما.
- شِبه عارية ـ رواية ـ دار سما.


سما
للنشر والتوزيع

شبه عارية

نحمل بداخلنا رغبات العمر.. أحلام لا نهائية.. لكن لا يبدو منها غير نذر يسير، نواريها باستمرار، يتملكنا خوف.. بل رعب من إطلاق سراحها. حينما تتكشف الحقائق.. حينما نرى ما هو كائن خلف تلك الملابس، النظرات، الابتسامات.. حينما تتساقط كل الأوراق.. حتى الورقة الأخيرة تسقط.. لن يبقى لنا غير العرى. ماذا لو كانت الأفكار.. الرغبات.. النزوات.. عارية؟ ماذا لو لم نكسوها بثياب تضليل وأوشحة كذب وخداع؟ هنا.. وبعد صراع.. تتمرد فتاتنا.. تلقى بكل ما فى طريقها.. تتساقط أرديتها التي تسلسل بداخلها رغباتها المكبوتة، حتى لا يتبقى غير جزء أخير من الرداء "شبه عارية".

•••



رضا سُليمان. كاتب مصري، ولد بمحافظة الدقهلية 1972 حصل على ليسانس الآداب قسم الإعلام جامعة الزقازيق، يعمل حاليًا مخرجًا بالإذاعة المصرية شبكة البرنامج العام، له العديد من المسلسلات والبرامج الدرامية الإذاعية تأليفًا وإخراجًا أشهرها أوراق البردي، قطوف الأدب من كلام العرب، همسة عتاب. محاضر مادة فن الكتابة والإخراج الإذاعى بكليات وأقسام الإعلام. حصل على العديد من الجوائز الأدبية والفنية منها جائزة كتاب اليوم الأدبي، جائزة الهيئة العامة لقصور الثقافة، جائزة زايد الذهبية للإبداع، جائزة الإبداع الذهبية في مهرجان تونس للإعلام العربي، جائزة الإذاعيون يبدعون. صدر له المسرحية الكوميدية: آدم تو، وروايات: عمدة عزبة المغفلين. مطلب كفر الغلابة. ماريونت. وحي العشق. ظلال الموتى.

تصميم الغلاف



سما للنشر والتوزيع

المجموعة الدولية للنشر والتوزيع

